

أدب الوصايا في العصر العباسي

إلى نهاية القرن الرابع

د. أحمد أمين مصطفى

كلية الألسن جامعة عين شمس

١٩٩٠

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

ادبیات

عربی

۲

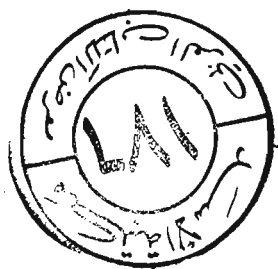
۱

۳۱

کتابخانه شخصی
تاریخ اسلام و ایران

أدب الوصايا في العصر العباسي

إلى نهاية القرن الرابع



د. أحمد أمين مصطفى

كلية الآلسن جامعة عين شمس



١٩٩٠

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

1. The first part of the paper is devoted to a discussion of the general principles of the theory of the structure of the atom. It is shown that the structure of the atom is determined by the laws of quantum mechanics, which are based on the principle of the uncertainty of the position and momentum of the particles.

2. The second part of the paper is devoted to a discussion of the structure of the nucleus. It is shown that the structure of the nucleus is determined by the laws of quantum mechanics, which are based on the principle of the uncertainty of the position and momentum of the particles.

3. The third part of the paper is devoted to a discussion of the structure of the molecule. It is shown that the structure of the molecule is determined by the laws of quantum mechanics, which are based on the principle of the uncertainty of the position and momentum of the particles.

4. The fourth part of the paper is devoted to a discussion of the structure of the crystal. It is shown that the structure of the crystal is determined by the laws of quantum mechanics, which are based on the principle of the uncertainty of the position and momentum of the particles.

5. The fifth part of the paper is devoted to a discussion of the structure of the solid. It is shown that the structure of the solid is determined by the laws of quantum mechanics, which are based on the principle of the uncertainty of the position and momentum of the particles.

6. The sixth part of the paper is devoted to a discussion of the structure of the liquid. It is shown that the structure of the liquid is determined by the laws of quantum mechanics, which are based on the principle of the uncertainty of the position and momentum of the particles.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الوصايا فن مهم من فنون النثر الأدبي ، فهي تكشف عن عقلية المجتمع وعن أفكاره واهتماماته ، ومثله وآماله ، وتكشف أيضا عن كثير من ظروف المجتمع السياسية والاجتماعية والدينية .

وقد عرفت الوصايا في الأدب الجاهلي ، غير أن ما حفظ لنا من هذه الوصايا لم يكن كثيرا ، وليس هذا بدعا بين فنون النثر ، فقد وصل اليها كثير من الشعر الجاهلي وقليل من النثر ، وعلى مؤرخو الأدب ذلك بسهولة حفظ الشعر وشيوعه على الألسنة .

ووجدت الوصايا في أدب صدر الاسلام ، وفي العصور التالية له ، وهذا أمر متوقع ، فهناك الكبير والصغير ، وهناك العالم والمتعلم ، وهناك الامام والمأموم وهكذا .

ومن هنا تأتي الوصايا نابعة من ظروف المجتمع وقيمه وعقلية أفراده .

وكان العصر العباسي نقلة كبيرة في حياة المجتمع العربي ، وظهرت ملامح جديدة في حياة المجتمع السياسية والاجتماعية والثقافية ، وصورت الوصايا كثيرا من هذه الملامح ، وتطورت الوصايا على مر السنين تبعا لتطور الظروف .

ولم تنل الوصايا من اهتمام مؤرخي الأدب مثلما لقيه الرسائل والخطب ، ووردت الوصايا مبعثرة في صفحات الكتب ، ولم يهتم مؤرخو الأدب في العصر الحديث بجمع هذه الوصايا ودراساتها والكشف عن سماتها وعما تصوره من ظروف وأحداث ، وكانت الجهود التي بذلت في هذا المجال - على قلتها - موجهة الى العصر الجاهلي والاسلامي ، أما العصر العباسي فلم ينل شيئا يذكر من هذه الاهتمامات .

لذلك خصصت هذا الكتاب لدراسة الوصايا فى العصر العباسى الى نهاية القرن الرابع ، أما سبب هذه التخصيص فيرجع الى امرين : أولهما طول فترة العصر العباسى حيث تمتد الى أكثر من خمسمائة سنة ، فلا يتسع كتاب واحد لدراسة هذه الفترة ، وثانى الأمرين أن هذه الفترة التى اخترتها أكثر الفترات ازدهارا فى تاريخ الأدب العربى وأحفلها بالأحداث والآراء .

وقد عثرت على كثير من الوصايا فى كتب التراث الأدبى وفى كتب التاريخ ، ومن أهم هذه الكتب كتاب العقد الفريد ، وزهر الآداب ، وصبح الأعشى ، والأدب الصغير والأدب الكبير ، وتاريخ الطبرى ، والكتب التى ضمننت رسائل الأدباء فى القرن الرابع الهجرى مثل كتاب رسائل الخوارزمى ورسائل بديع الزمان الهمذانى ، وجمعت من هذه الوصايا ما يكفى لتوضيح السمات الفنية لأدب الوصايا .

وسأبدأ الكتاب بتمهيد أعرض فيه بعض الوصايا فى الفترة التى سبقت العصر العباسى ، ثم أتحدث عن أبرز الملامح لوصايا العصر الجاهلى ووصايا صدر الاسلام وبنى أمية ، حيث يتضح لنا بعد ذلك مظاهر التطور فى العصر العباسى .

وسأجعل الكتاب بابين ، أخصص البسبب الأول للحديث عن اتجاهات الوصايا فى العصر العباسى ، وسأقسمه ثلاثة فصول ، أتحدث فى أولهما عن الاتجاهات السياسية ، وفى ثانيها عن الاتجاهات الاجتماعية وتندرج معها الاتجاهات الثقافية ، فالثقافة انما هى مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية ، وسأتحدث فى الفصل الثالث عن الاتجاهات الدينية ، وسأوضح الظروف التى قيلت فيها الوصايا ، والمبادئ التى تدعو اليها ، وسأتناول الوصايا التى قيلت فى ظروف خاصة مثل وصايا البخلاء والمكدين والمتطفلين .

أما الباب الثانى فسأخصصه للحديث عن الخصائص الفنية لأدب الوصايا ، فأتحدث فيه عن أهم الموضوعات التى طرقتها والعوامل التى وجهت اليها ، وأتحدث عن الأفكار والمعانى جديدها وقديمها ، وعن العواطف التى تسودها ، وعن مدى تأثرها بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، وعن حظ الوصايا من الايجاز والاطناب ، كما أتحدث عن سمات الأسلوب من حيث

الألفاظ والعبارات ، ومن حيث التصوير البياني ، ومدى اهتمام الموصين بالسجع والمحسنات البديعية ، وأسستقى القوالب الفنية التى تصب فيها الوصايا كالرسائل والخطب والتوقيعات والعهود والأبيات الشعرية ، كما أتحدث عن مطالع الوصايا وخواتيمها ، والقى نظرة على الموصين الذين يصدرن هذه الوصايا .

وأخيرا سأحدث عن المدارس الفنية التى ينتمى إليها أدب الوصايا ، وأفضل الحديث عن سمات هذه المدارس ، ونوجز فى الخاتمة أهم القضايا التى توصلنا إليها فى هذا البحث . وبالله التوفيق .

د . أحمد أمين مصطفى

تمهيد

الوصايا قبل العصر العباسي

(١) في العصر الجاهلي

لا نظن أن أدبا من الآداب يخلو من الوصايا في أي عصر من العصور ، فالآباء والأمهات يوصون أبناءهم وبناتهم ، والكبار يوصون الصغار ، - والرؤساء يوصون الأتباع ، وعلماء الدين يوصون الحاكمين والمحكومين ، وقد تكون هذه الوصايا سياسية أو اجتماعية أو دينية .

ويغلب على هذا اللون صدق العاطفة ، فالآباء والأمهات صادقون في وصاياهم لأبنائهم وبناتهم ، والكبار صادقون في وصاياهم لصغارهم واتباعهم ، وعلماء الدين كثيرا مايصدرون عن عاطفة صادقة في وصاياهم ، وقد نرى في العصر الأموي وفي العصر العباسي وصايا دينية نابعة عن رغبة في الشهرة أو كسب الرضا ، ولكن هذه الظاهرة لم تكن موجودة في العصر الجاهلي .

ومعروف أن الجاهليين على وجه العموم كلنوا أميين لا يقرعون ولا يكتبون ، وبالتالي فإن النثر الجاهلي لم يكتب ، ولم يحفظ الرواة منه مثل ما حفظوا من الشعر الجاهلي ، وتعليل ذلك أن الشعر أسهل حفظا وأعلق بالقلوب من النثر ، وكان لكل شاعر زاوية يحفظ شعره ويرويه ، وتوارث الرواة تلك الأشعار حتى وصلت إلى عصر التدوين قدونت ، أما النثر الأدبي فلم يكن له مثل هذه المكانة في قلوب الناس -

وقد حفظت لنا بعض الوصايا الجاهلية ، ومعلوم أن فترة العصر الجاهلي لا تتعدى قرنين من الزمان على الأكثر ، وقد أوردت بعض الكتب وصايا منسوبة إلى عصور سحيقة قبل الاسلام ، ونحن نشك في هذه الوصايا

ونحسب أنها منحولة ، ومن هذه الكتب (كتاب وصايا ملوك العرب فى الجاهلية) (١) ويقع فى أربعين صفحة من القطع الصغير ، وأورد وصايا ليهود عليه السلام ، ووصايا لقحطان ويعرب ويشجب وعبد شمس وسبأ وحمير وكهلان والهميسع وأيمن وزهير وعريب بن أيمن والغوث وزرعة والرائش وأبرهة ذى المنار وذى الأزعار وتبع بن ذى الأذعار وأسعد الكامل وتبع بن زيد وياسر بن تبع وشمر ذى الجناح وذى مقار وذى حوال وذى مناخ وذى الكلاع وذى أصبح وسيف بن ذى يزن .

وواضح أن معظم هذه الشخصيات موغل فى القدم أو غير معروف لنا ، وقد نقبل مبدئياً بعض هذه الوصايا المنسوبة الى شخصيات معروفة مثل سيف بن ذى يزن ، ولكننا نرى بعض هذه الأحاديث يبدو عليها الاختراع ، فهى تزعم أن سيف بن ذى يزن بشر عبد المطلب بظهور محمد عليه السلام ، وأوصاه به ، وأخبره أن هذا الغلام يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، ولسنا نشك فى مجرد البشارة بظهور محمد ولكننا نشك فى هذه التفصيلات .

وهناك كتاب بعنوان (الوصايا الخالدة) (٢) ضم وصايا جاهلية ، ووصايا اسلامية وفيه وصايا من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .

وجمع أبو حاتم السجستاني وصايا فى كتابين هما (كتاب المعمرين وكتاب الوصايا) وطبعا فى كتاب واحد بعنوان (المعمرين والوصايا) (٣) ويضم الكتاب وصايا جاهلية واسلامية وأموية .

ومن أشهر الوصايا الجاهلية وصية أمامة بنت الحارث لابنتها ليلة زفافها ، ونورد هذه الوصية هنا كما أوردها الأبشيهي . يقول : « لما خطب عمرو بن حجر الكندى الى عوف بن محلم الشيباني ابنته أم اياس أقبلت عليها أمها ليلة دخولها توصيها فقالت : أى بنية ، انك مفارقة بيتك الذى منه خرجت ،

(١) وصايا العرب فى الجاهلية . تأليف يحيى بن الوشاء . مطبعة بغداد .

(٢) الوصايا الخالدة جمع الأستاذ عبد البديع صقر . دار غريب للطباعة .

(٣) المعمرين والوصايا . أبو حاتم السجستاني سهل بن محمد . دار احياء

الكتب العربية .

وعشك الذى فيه درجت ، الى رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة ليكون لك عبدا ، واحفظى له خصالا عشرا يكن لك ذخرا ، فأما الأولى والثانية فالمرضا بالقناعة وحسن السمع له والطاعة ، وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم أنفه منك الا أطيب ريح ، وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت طعامه ومنامه ، فان شدة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة ، وأما السابعة والثامنة فالاحراز لما له والارعاء على حشمة وعياله ، وأما التاسعة والعاشرة ، فلا تعصى له أمرا ولا تفشى له سرا ، فانك ان خالفت أمره أوغرت صدره ، وان أفشيت سره لم تأمنى غدره ، وإياك والفرح بين يديه اذا كان مهتما ، والكآبة لديه اذا كان فرحا « فقبلت وصية أمها (١) » .

وتكشف هذه الوصية عن أن الجاهليين كانوا يعنون بتنميق أسلوبهم فى الوصايا حتى يكون له وقع جميل ويكون هذا عاملا مساعدا على الاصفاء الى الوصية ثم التأثير بها ، ونرى الوصية هنا تلتزم السجع وتعنى بالازدواج وتحوى الطباق والجناس ، أما التزام السجع فواضح فى الوصية ، وتعنى الوصية بالازدواج كما فى قولها : « الى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه » ، ومن أمثلة الجناس : خرجت ودرجت فى قولها : « بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت » ، ويبدو الطباق والمقابلة فى قولها : « وإياك والفرح بين يديه اذا كان مهتما ، أو الكآبة لديه اذا كان فرحا » .

ولانشك فى أن أم الأم قد أعدت الوصية فى نفسها قبل مواجهة ابنتها ، وقد عدت الخصال التى ستوصيها بها فوجدتها عشرا كما أعلنت ذلك فى مطلع الوصية ، ثم خطرت لها خاطرة أخرى بعد استكمال الوصايا العشرة فأضافتها وقالت : « وإياك والفرح بين يديه اذا كان مهتما ، والكآبة لديه اذا كان فرحا » .

وتكشف الوصية عن عقلية ناضجة متفتحة ، وأمامة هنا خبيرة بنفسيات

(١) المستطرق ج ٢ ص ٤٧٩ شهاب الدين محمد بن أحمد الابشيهي . دار الكتب

الرجال وهى أيضا ذات نظرة شاملة تستطيع أن تحيط بالجوانب المتعددة ، وقد عرفت ذلك من معاشرتها لزوجها ومن ملاحظاتها لمن حولها .

وتكشف الوصية أيضا عن بعض الأخلاق السائدة فى ذلك المجتمع ، وتعطينا صورة عن احترام المرأة للرجل وطاعة المرأة لزوجها ، ووفاء الزوج لزوجته ما أطاعته ورعت مايجب عليها رعايته ، فهى تقول : « فكونى له أمة يكن لك عبدا » . وهنا طاعة الزوجة وتقدير الزوج ، وتكشف الوصية أيضا عن أن الأم كانت توصى ابنتها قبل الزواج وتعطيها خلاصة تجاربها .

وإذا ألقينا نظرة فنية على هذه الوصية وجدناها تنم على سليقة لغوية سليمة ، فهى تبدأ الوصية بقولها : « أى بنية » لتجتذبها ولتشعرها بأنها صغيرة ليست لديها خبرة أمها ، وليس هناك أحرص من الأم على مصلحة ابنتها ، ثم قولها : « كونى له أمة » يوحى بالخضوع التام والطاعة المطلقة ، وليس هذا بدون مقابل فسيكون الزوج لها عبدا ، وتحرص الأم على التكرار لتأكيد المعنى وتشبيته فى نفس ابنتها ، ومن ذلك قولها : « رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه » ، وقد أسلفنا أنها تعنى بوضوح النغم الموسيقى ، وهذا يزيد الأسلوب جمالا فى الأذن ويجعله أشد تأثيرا فى النفس .

ونورد من الوصايا الجاهلية وصية ثانية تخوض فى جانب آخر ، تلك هى وصية النعمان ابن المنذر لجماعة من زعماء العرب حينما وجههم الى كسرى . يقول صاحب العقد الفريد : « قدم النعمان على كسرى فتنقص كسرى العرب ، وأطنب النعمان فى الحديث عن فضائل العرب ، فلما قدم النعمان الحيرة بعث الى أكثم بن صيفى وحاجب بن زرارة وعمرو بن معبد يكرّب الزبيدى والحارث بن عباد وقيس بن مسعود وخالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل وعمرو بن الشريد والحارث بن ظالم ، وقال :

انما انا رجل منكم ، والرأى أن تسيروا بجماعتكم الى كسرى ، فاذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ماظن ، ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه فانه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه ، ولا تنخزلوا له انخزال الخاضع الذليل ، وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم وفضل منزلتكم ، وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام

أكثر بن صيفى لسنى محله ، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التى وضعتكم بها ، وإنما دعانى الى التقدمة بينكم علمى بميل كل منكم الى التقدم قبل صاحبه ، فلا يكون ذلك منكم فيجد فى أدابكم مطعنا » (١) .

ووصية النعمان وصية سياسية ، ولا نشك فى أن للنعمان أعداء بالأمر بدليل أنه فكر واختار الأشخاص الذين سيرسلهم سفراء الى كسرى .

والوصية موجزة تتلخص فى أن ينطق كل رجل منهم ليعلم كسرى رجاحة عقول العرب ، وأوصاهم بالألا ينطق أحدهم بما يغضب كسرى حتى لا يبطش بهم ، وأوصاهم بالألا ينخزلوا أمام كسرى ، فالمطلوب عزة النفس وضبطها ، واختار أكثر بن صيفى ليكون أول المتحدثين لأنه خطيب مفوه معروف برجاحة العقل والفصاحة ، أما ما يدور فى اللقاء فلم يوص فيه شيء لأنه واثق برجاحة عقولهم وحسن تصرفهم .

وقد بدأ النعمان وصيته بعبارة : « إنما أنا رجل منكم » ليؤكد لهم أن ولايته للحيرة وقربه من كسرى لم يؤثرأ على ولائه العربى ، ويحرص النعمان على التعليل لأرائه كأن يقول : « فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ماظن » ويوصيهم بعدم اغضاب كسرى ويعلل لذلك بأنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه ، ويوصيهم بعدم الانخزال ويعلل لذلك فيقول : « حتى تظهر وثاقة حلومكم وفضل منزلتكم » .

وتدل الوصية على وجه العموم على رجاحة عقل النعمان وعمق نظرته وحسن تدبيره وفصاحته .

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٩ ، ١٠ - أحمد بن عبد ربه لجنة التأليف والترجمة

والنشر . بتصريف .

(ب) فى صدر الاسلام

يطلق الأدباء والمؤرخون (عصر صدر الاسلام) على فترة النبوة وفترة الخلفاء الراشدين الأربعة ، وهنا نلقى نظرة سريعة على الوصايا فى هذه الفترة ، ونبدأ بالنظر فى وصايا القرآن الكريم والحديث الشريف .

والقرآن الكريم ملئ بالوصايا ، ونكتفى بوصيتين شاملتين لأسس التعاليم الاسلامية ، أما أولاهما فجاءت فى سورة النساء فى قوله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » (١) . وهذه الآية تشتمل على الوصية بعبادة الله وحده ، والاحسان الى الوالدين ، والاحسان الى الأقارب ، وحسن المعاملة للمجتمع كله حتى العبيد .

أما الوصية الثانية التى نورد هنا فقد وردت فى القرآن الكريم على لسان لقمان حيث يقول الله تعالى : « واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم . ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير . وان جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب الى ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يابنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير . يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف ونه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور . ولا تصغر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً ان الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » (٢) .

وتدعو هذه الوصية الى الايمان بالله وحده ، والاحسان الى الوالدين ،

(١) سورة النساء آية ٣٦ .

(٢) سورة لقمان الآيات من ١٣ الى ١٩ .

وتأمر بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر عند المصيبة ،
والتواضع وعدم الفخر ، وتدعو الى المعاملة الجسنة وخفض الصوت عند
الحديث ، وهى مبادئ تعالج علاقة الانسان بربه ، وعلاقته بنفسه وبالمجتمع .

والاحاديث النبوية مليئة بالعظات السامية ، ونكتفى هنا بحديثين ،
يدعو أحدهما الى حسن المعاملة ، ويدعو الثانى الى الثقة بالله والاعتماد
عليه وحده .

فى أحد الحديثين يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « اياكم والظن فان
الظن اكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا
ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله اخوانا » (١) .

والحديث يدعو الى ترك الظن الذى يؤدى الى فقد الثقة فى المجتمع ،
وينهى عن التجسس والحسد والغش والخصام ، وهى صفات تؤدى الى
هدم المجتمع .

أما الحديث الثانى فجاء عن عبد الله بن العباس رضى الله عنهما قال :
ركبت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال : « يا غلام ، انى اعلمك
كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله ،
واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم ان الامة لو اجتمعت على ان ينفعوك لم
ينفعوك الا بشئ قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على ان يضروك بشئ لم
يضروك الا بشئ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » (٢) .

والحديث يعلمنا الاعتماد على الله وحده ، ولهذا أثره فى احقاق الحق
وابطال الباطل وترك النفاق والجبن والتذلل .

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى - أحمد بن على بن محمد بن حجر
العسقلانى ج ٢٢ ص ٢٧٨ حديث رقم ٦٠٦٦ - الحس الجلية والقتل - والتناجش
التزايد فى البيع وغيره بقصد الغش . مكتبة الكليات الازهرية .
(٢) الجامع الصحيح . سنن الترمذى - ج ٤ ص ٦٦٧ باب القيامة - أبو عيسى
محمد بن عيسى بن سورة . دار احياء التراث العربى . بيروت .

وكان الخلفاء الرلشدون يوصون ، ونعرض لكل منهم وصية واحدة تكشف عن اتجاهاتهم وكان أبو بكر رضى الله عنه يرى أن تقوى الله أساس النجاح فى الدنيا والآخرة ، ويتضح هذا فى وصيته لعمر بن الخطاب حين استخلفه ، ان يقول له :

« لنى مستخلفك من بعدى ، وموصيك بتقوى الله ، ان الله عملا بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل ، وانما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم ، وحق الميزان لا يوضع فيه الا الحق أن يكون ثقيلًا ، وانما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم فى الدنيا ، وحق لميزان لا يوضع فيه الا الباطل أن يكون خفيفًا ، ان الله ذكر آية الرحمة مع آية للعذاب ليكون العبد راهبا ولا يتمنى على الله الا الحق ، ولا يلقي بيده الى التهلكة ، فاذا حفظت وصيتى فلا يكون غائب أحب اليك من الموت وهو آتيك ، واذا ضيعت وصيتى فلا يكون غائب أبغض اليك من الموت ، ولست بمعجز الله » (١) .

وهذه وصية خليفة مشرف على الموت يوصى خليفته بما يراه أساس النجاح فى الدنيا والآخرة وهو تقوى الله ، ويكفى أبا بكر أن يؤكد الأساس الذى يؤمن به ، أما التفصيلات فمتروكة للخليفة القادم .

أما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فما أكثر وصاياه فى كل المجالات ، وكان يوصى الولاة والقادة ، ومما جاء فى ذلك : « كان عمر بن الخطاب يقول عند عقد الألوية : « بسم الله وبالله وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله والنصر ولزوم الحق والصبر فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا » (٢) .

وهذه وصية للقادة الحربيين المتوجهين الى قتال العدو ، وتهتم الوصية بتقوى الله فهى أساس التوفيق ، وتوصى بالصبر فى الحرب ، وعدم الاعتداء ،

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٤٥ مطبعة المدنى طه - للجاحظ . بتصرف .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ١٢٨ .

يوتضمن وصايا انسانية تتمثل فى عدم التمثيل بالجثث ، وعدم الفخر عند النصر ، وتجنب قتل الشيوخ والنساء والأطفال .

وأورد الطبرى عديدا من الوصايا أوصى بها عثمان بن عفان رضى الله عنه ولاته بعد أن تولى الخلافة ، وكلها تدور حول التمسك بالدين واتباع الحق ، ومن هذه الوصايا : « كتب عثمان الى عمال الخراج : أما بعد ، فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل الا الحق ، خذوا الحق ، وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء ، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فإن الله خصم لمن ظلمهم » (١) .

وكرث وصايا على بن أبى طالب للأفراد وللجماعات ، وكلها تدعو الى التمسك بأهداب الدين ، ومن هذه الوصايا : « كتب على بن أبى طالب الى عبد الله بن عباس : ليكون سرورك بما نلت من أمر آخرتك ، وليك أسفك على مافاتك منها ، ومانلت من أمر دنياك فلا تكن به فرحا ، وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعا ، وليكن همك ما بعد الموت » (٢) .

وهكذا نرى وصايا الخلفاء الراشدين تدور حول أساس واحد هو التمسك بمبادئ الدين .

وقد وردت البسملة فى مطلع وصية عمر بن الخطاب ، ولم ترد فى باقى الوصايا التى عرضناها هنا ، ولكننا لا نشك فى أن جميع الوصايا فى تلك الفترة كانت تبدأ بالبسملة ولكنها حذفت فى الكتب من باب الاختصار ، وكثيرا ما نرى البسملة موجودة فى بعض المصادر ، ومحذوفة فى بعضها الآخر .

وأسلوب الوصايا أسلوب مرسل لا يتأنق ولا يتكلف ، وهكذا كان أسلوب النثر فى تلك الفترة ، وقد نرى السجع والطباق والجناس ، ولكنها كلها تأتى عفوا الخاطر خادمة للمعنى ، ومن ذلك قول أبى بكر فى وصيته : « ان لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل » وهذا الطباق

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٤٥ محمد بن جرير الطبرى - دار المعارف .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١٤٢ .

بين الليل والنهار يتطلبه المعنى ، ومثله ماورد فى قول على بن أبى طالب :
« ليكن سرورك بما نلت من أمراخرتك ، وليكن أسفك على ما فاتك منها » ،
وهنا مقابلة بين الجملتين ، ونحس شيئا من التوازن الموسيقى فى قول عمر :
« امضوا بتأييد الله والنصر ، ولزوم الحق والصبر » ولا تكلف فيه ، ويقتبس
عمر بن الخطاب من القرآن قوله تعالى : « ولا تعتدوا ان الله لا يحب
المعتدين » .

ونرى من هذا العرض أن الوصايا بعد الاسلام كانت تأتى عن طريق
المحادثة والمشافهة ، كما نرى فى وصية أبى بكر لعمر بن الخطاب رضى الله
عنهما ، وقد تأتى الوصية عن طريق الرسالة كما فى وصية على بن أبى طالب
الى عبد الله بن العباس .

وهناك كثير من الوصايا أسداها الآباء لأبنائهم مثل وصية العباس
لابنه عبد الله (١) أو أسداها زعيم لأبناء قبيلته ، مثل وصية دريد بن الصمة
لمالك بن عوف يوم حنين (٢) .

ونختتم حديثنا هذا بعرض وصية أبى طالب عند موته ، وأبو طالب عم
النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد عاش فى الجاهلية وأدرك الاسلام ولكنه لم
يسلم مخافة ضياع مكانته فى قريش كما قيل ، وقيل : انه حرك شفتيه بالشهادة
قبل موته ، ولا يهمنا هنا أى الرايين أصح ، وان دلت هذه الوصية على صحة
الرأى الأول .

ونص هذه الوصية : « يامعشر قريش ، أنتم صفوة الله من خلقه ، فيكم
السيد المطاع ، ومنكم المقدام الشجاع والواسع الباع ، وانى أوصيكم بتعظيم
هذه البنية (الكعبة) فان فيها مرضاة للرب ، وقواما للمعاش ، صلوا
أرحامكم ولا تقطعوها واتركوا البغى والعقوق ، أجيئوا الداعى ، وأعطوا
السائل » .

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٩٠

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ١٣٣ .

وانى أوصيكم بمحمد خيرا ، فانه الأمين فى قريش ، والصديق فى
العرب ، وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن « (١) » .

- وتشتمل الوصية على أربعة أسس هي : (١) اشادة بقريش .
- (٢) تعظيم الكعبة . (٣) تواصل قريش والمحافظة على مكانتها .
- (٤) العطف على محمد وحسن معاملته .

وتكشف الوصية عن مكانة أبى طالب ، كما تكشف عن كثير من أخلاقه
وأرائه ، فتعظيم قريش يدل على انتمائه فهو أحد أعمدتها ، وتعظيمه للكعبة
يشف عن تدينه ، ثم انه يعلم أن مكانة الكعبة فى نفوس العرب عامل أساءى
فى تعظيم مكانة قريش ، فهو يحرص على استمرار هذه المكانة .

أما وصيته بصلة الأرحام وترك البغى والعقوق واجابة الداعى واعطاء
السائل فيدل على خلق نبيل ونفسية كريمة ، الى جانب أنه يعلم أن هذه
الصفات وسيلة للمحافظة على مكانة قريش فى الجزيرة العربية .

أما وصيته بمحمد فهو ابن أخيه ، وهنا العصبية القبلية ، وهنا عاطفة
القرابة اللصيقة ، وإذا صحت نسبة هذه الخطبة كاملة اليه فان قوله : « وقد
جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان » هذا القول يدل على ايمانه بحقيقة
الرسالة المحمدية ولكنه يخاف النطق بالشهادتين حفاظا على مكانته فى
قريش .

- وأسلوب الوصية أسلوب متدفق نرى فيه السجع فى مطلع الوصية .
- فهو يقول : « فيكم السيد المطاع ، ومنكم المقدام الشجاع ، والواسع الباع » .
- وفى خاتمة الوصية يقول : « وقد جاء بأمر قبله الجنان ، وأنكره اللسان ،
مخافة الشنآن » . وربما قصد الى تجميل أسلوبه حرصا على قوة تأثيره فى
نفوس سامعيه .

(١) الروض الأنف ج ٢ ص ١٧١ عبد الرحمن بن عبيد الله الخثعمى . دار الفكر

(ج) فى عهد بنى أمية

كثرت الوصايا فى عهد بنى أمية تبعا لمتعدد الأحداث وتنوعها ، فبنو أمية يحرصون على اقامة دولة لهم يتوارثها أبناؤهم ، والخليفة يوصى ابنه ويوصى واليه وقائده ، والقادة والولاة يوصون الشعوب بالطاعة ، والعلماء يوصون الخلفاء بتقوى الله ، هذا الى جانب الرضا المعتادة من الآباء الى أبنائهم وما ماثل ذلك .

ومن أوائل هذه الوصايا وصية معاوية بن أبى سفيان لزياد حين ولاه العراق : « يا زياد ، ليكن حبك وبغضك قصدا ، فان العثرة فيهما كامنة ، واجعل للنزوع والرجوع بقية من قلبك ، واحذر صولة الانهماك ، فانها تؤدى الى الهلاك » (١) .

وأوصى يزيد بن معاوية عبيد الله بن زياد فقال : « ان أباك كفى أخاه عظيما ، وقد استكفيتك صغيرا فلا تتكلن منى على عذر ، فقد اتكلت منك على كفاية ، ولأن أقول لك : اياك ، أحب الى من أن أقول : اياى ، فان الظن اذا أخلف فيك أخلف منك ، فلا ترح نفسك وأنت فى أدنى حظك حتى تبلغ أقصاه ، وانكر فى يومك أخبار غدك ، واستزدنى باحسانك الى اهل الطاعة ، واساءتك الى اهل المعصية ، أزدك ان شاء الله تعالى » (٢) .

وكان الخلفاء يوصون أبنائهم وصايا سياسية ، ويعلمونهم كيف يعاملون الرعية ويكسبون ودهم ، ومن أبرز هذه الوصايا وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز حين ولاه على مصر حيث قال : « أرسل حكيمًا ولا توصه ، أى بنى ، أنظر الى عمالك فان كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره الى عشية ، وان كان لهم عشية فلا تؤخره الى غدوة ، واياك أن يظهر لرعيتك منك كذب ، فانهم ان ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك فى الحق ، واستشر جلساءك

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ٦٤١ .

(٢) زهر الآداب ج ٤ ص ١٠٦٣ .

وأهل العلم ، وإن كان بك غضب على أحد من رعيته فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم انظر الى أهل الحسب والدين والمروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك » (١) .

والخليفة يوصى ابنه بالاهتمام بعماله ، والعمال عين الحاكم ويده الطائلة فى كل مكان ، ثم يوصى ابنه بالصدق حتى لا تفقد الرعية الثقة فى حاكمها فيسقط من أعين رعيته ، ثم يوصيه بالشورى وبأن يختار مستشاريه من أهل العلم ، ويوصيه ألا يؤاخذ أحدا من رعيته وهو فى سورة الغضب ، وقد عرف بنو أمية بالحلم ، وكان امامهم فى ذلك معاوية بن أبى سفيان .

والأسلوب مرسل لا تكلف فيه ، وإن كنا نرى المقابلة فانها مقابلة تطلبها المعنى حيث يقول : « فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره الى عشية ، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره الى غدوة » . ونرى التعليل فى قوله : « فانهم ان ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك فى الحق » ، كما نرى المجاز العقلى فى قوله : « حتى يسكن غضبك » وهو مقتبس من قوله تعالى : « ولما سكنت عن موسى الغضب » . وقد استعمل أداة النداء الدالة على القرب فى قوله : (أى بنى) لأن ابنه قريب منه حسيا ومعنويا ، ثم انه يشعره بحرص أبيه على مصالحته فليس أقرب الى الابن من أبيه .

وراضح أن هذه الوصايا وأمثالها ترمى الى أهداف فى مقدمتها بقاء الخلافة فى بنى أمية وجاءت بعض الوصايا فى ذلك العهد موجهة الى بنى أمية ناصحة لهم ومحذرة اياهم من الأخطار التى تحدى بهم ، ومن أبرز هذه الوصايا وصية عبد الملك بن مروان الى بنى أمية : -

« يا بنى أمية ، أحسابكم أعراضكم ، لا تعرضوها على الجهال ، فإن الذم باق مابقى الدهر ، والله ماسرني أنى هجيت ببيت الأعشى وإن لى طلاع الأرض ذهباً ، وهو قوله فى علقمة بن علاثة :

يبيتون فى المشتى ملاء بطونهم وجاراتهم غرثى يبتن خمائصا

والله ما يبالي من مدح بهذين البيتين ألا يمدح بغيرهما ، وهما قول
زهير :

هنا لك ان يستخبلوا المال يخلوا
وان يسألوا يعطوا وان ييسروا يغلوا
على مكثريهم حق من يعتريهم
وعند المقلين السماحة والبذل « (١)

وفى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز كثرت وصاياه للولاة ، فقد كتب
وصايا بعث بها الى الأمصار وكلها تدور حول التمسك بكتاب الله وسنة نبيه
صلى الله عليه وسلم والتمسك بالعدل وتجذب الظلم ، يستوى فى تلك المعاملة
المسلمون وغير المسلمين • وقد ألفت فى سيرة عمر بن عبد العزيز كتب
عديدة ، منها كتابان حويا كثيرا من الوصايا ، أحدهما لابن الحكم (٢) ،
والثانى لابن الجوزى (٣) • وأورد ابن الحكم رسالة مطولة تقع فى أكثر من
سبع صفحات بعث بها عمر الى الأمصار يوصيهم فيها بتقوى الله ، ويوضح
لهم الأوامر والنواهي (٤) •

ونكتفى هنا بإيراد وصية موجزة جاء فيها : « اجتنبوا الأشغال عند
حضور الصلوات ، فمن أضعاعها فهو لما سواها من شرائع الاسلام أشد
تضييعا » (٥) •

وكما كان الخلفاء يوجهون وصاياهم الى الولاة والقواد كان الناس
يوجهون وصاياهم الى الخلفاء ، ولكن ذلك لم يكن كثيرا اذا استثنينا الخليفة
عمر بن عبد العزيز ، ومع ما عرف عن بنى أمية من الحلم والصبر فان الخلفاء

(١) زهر الآداب ج ٤ ص ١١٦٠ •

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز • أبو محمد عبد الله بن الحكم ، مطبعة الاعتماد

بمصر •

(٣) سيرة عمر بن العزيز ، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى • مطبعة المؤيد

(٤) سيرة عمر لابن الحكم ص ٥٩ - ص ٦٧ •

(٥) سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٠٣ •

الأمويين لم يكونوا يفتحون صدورهم كثيرا لهذه الوصايا التي تكشف عن أخطائهم ولو بطريق غير مباشر .

وكان عمر بن عبد العزيز خليفة ورعا ، وفتح صدره للوصايا ، وكان مأمون الجانب وطلب من الحسن البصرى أن يوصيه ، فكتب اليه الحسن البصرى وصية لجأ فيها الى التكرير للتأكيد ، وتأنق فى أسلوبه ، ومما جاء فى هذه الوصية :

« ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم باذهاب طيباتك فى آخرتك ، ولا تنظر الى قدرتك اليوم ، ولكن أنظر الى قدرتك غدا وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله فى مجمع من الملائكة والنبیین والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحى القيوم » (١) .

يحذر الحسن البصرى عمر بن عبد العزيز من الولاة الظالمين ، ويحذره من الاعتزاز بقوته ، ويذكره بالموت والوقوف بين يدي الله ، ونرى المقابلة فى قوله : « ولا تنظر الى قدرتك اليوم ولكن أنظر الى قدرتك غدا » . كما نرى الاستعارة فى « حبائل الموت » حيث شبه الموت بصائد ينصب حبالته ، ثم انه يقتبس من القرآن الكريم : « وعنت الوجوه للحى القيوم » .

وأوصى رجل هشام بن عبد الملك فجاءت وصيته موجزة حيث قال : « لا تعدن عدة لا تثق من نفسك بانجازها ، ولا يغرنك المرتقى وان كان سهلا اذا كان المنحدر وعرا ، وان للأعمال جزاء فاتق المراقب ، واعلم أن للأمور بغتات فكن على حذر » (٢) .

وهى وصية موجزة ولكنها وافية ، فقد أوصاه بأن يكون صادقا مع الشعب ومع نفسه وأوصاه بعدم الاعتزاز وان وجد الطريق سهلا ، وذكره بالرقيب الأعلى ، ونلاحظ أن الخطبة تخلو مما قد يؤدى الى مساءلة الرجل .

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٣٥ .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٥٩ .

وهناك الرصايا التى تصدر من الآباء الى أبنائهم فى مختلف المواقف ،
ويطالعنا هنا عمر بن هبيرة أحد الرجال البارزين فى الدولة الأموية ، وقد
وردت له وصيتان : أحدهما موجهة الى قائده ، والثانية الى ابنه ، وكلتاهما
تدل على رأى صائب ونظرة ثاقبة •

وجه ابن هبيرة مسلم بن سعيد الى خراسان وأوصاه فقال له :
« أوصيك بثلاثة ، حاجبك فانه وجهك الذى به تلقى الناس ، ان أحسن فأنت
المحسن ، وأن أساء فأنت المسئ ، وصاحب شرطتك فانه سوطك وسيفك حيث
وضعتهما ، ضعتهما ، وعمال القدر ، قال : وما عمال القدر ؟ قال : أن تختار
من كل كورة رجلا لعملك ، فان أصابوا فهو الذى أردت ، وان أخطئوا فهم
المخطئون ، وأنت المصيب » (١) •

وكان عمر بن هبيرة يعد ابنه ليحتل مكانة أبيه فى الدولة ، وأمثال هؤلاء
الرجال يجالسون الخلفاء والحكام ، فأوصى ابن هبيرة ابنه بما يهين له
النجاح عند الرؤساء فقال : « لا تكن أول مشير ، واياك والهوى الفطير ،
ولا تشيرن على مستبد ولا على وغد ولا على متلون ولا على لجوج ، وخف الله
فى موافقة هوى المستشير ، فان التماس موافقته لؤم ، وسوء الاستماع
منه خيانة » (٢) •

وأسلوب ابن هبيرة أسلوب مرسل وان رأينا الطباق والسجع فى قوله :
« لا تكن أول مشير ، واياك والهوى والرأى الفطير » ونرى المقابلة فى وصيته
لابنه حيث يقول : « ان أحسن فأنت المحسن ، وان أساء فأنت المسئ ، ثم انه
شبه الحاجب وصاحب الشرطة تشبيهين رائعين ، فحاجبه وجهه لأنه يلقي
الناس باسمه ، وصاحب الشرطة سوطه وسيفه لأنه يضرب به ، ولا نحس
التكلف فى كل ذلك •

وفى أواخر العصر الأموى زادت العناية بالأسلوب ، وزاد الاهتمام بتوليد

(١) المرجع نفسه ص ١٩ •

(٢) المرجع نفسه ص ٦٢ •

المعانى واستقصائها ، ويتضح ذلك فى وصية علقمة بن لبيد العطاردى لابنه ، وهى وصية تجمع صفات الصديق الوفى ، وفيها يقول علقمة :

« يابنى ، اذا نزعتك الى صحبة الرجال حاجة فاصحب منهم من ان تحبه زانك ، وان خدمته صانك ، وان أصابتك خصاصة مانك ، وان قلت صدق قولك ، وان صلت شد صولك ، وان مددت يدك بفضل مدها ، وان رأى منك حسنة عدها ، وان سألته أعطاك ، وان مددت يدك بفضل مدها ، وان نزلت منك حسنة عدها ، وان سألته أعطاك ، وان سكنت عنه ابتداك ، وان نزلت بك احدى الملمات آساك ، من لا يأتيه منك البرائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك عند الحقائق ، وان حاول حويلا أمرك ، وان تنازعتما بنفسا أثرك » (١) .

والوصية تلتزم السجع كما نرى ، بل ان علقمة قد يأتى بثلاث سجعيات متوالية ولا يكتفى باثنتين ، كما انه يحافظ على الازدواج أى تساوى الجمل فى النغم الموسيقى ، كما أنه يهتم باستقصاء المعانى فى كل موقف ، والى جانب السجع ترى المحسنات البديعية الأخرى ، ومنها الطباق فى قوله : « ان سألته أعطاك ، وان سكنت عنه ابتداك » ، ومنها الجناس فى قوله : « وان حاول حويلا أمرك » .

وبرز عبد الحميد الكاتب حيث وضع للكتابة العربية سمات جديدة ، وحفلت رسائله بالوصايا ، ونكتفى هنا بعرض أسطر معدودة من رسالة كتبها عن الخليفة مروان بن محمد الى عبد الله بن مروان حين وجهه أبوه لمحاربة الضحاك بن قيس سنة ١٢٩ هـ ، وتقع الرسالة فى أكثر من أربعين صفحة ، وتحوى كثيرا من الوصايا السياسية والاجتماعية والدينية ، وتبدأ بقوله :

(١) عيون الاخبار ج ٣ ص ٦ - عبد الله بن مسلم بن قتيبة - دار الكتب العلمية

بيروت .

خصاصة فقر - مانك عالك وأنفق عليك - الملمات الشدائد - البرائق المهالك - الطرائق الاختلاف فى المعاملات - الحويل جودة النظر والقدرة على التصرف - أمرك .
شاورك - المنفس المال .

« اعلم أن للحكمة مسالك تفضى مضائق أوائلها بمن أمها سالكا وركب
أخطارها قاصدا الى سعة عاقبتها وأمن سرحها وشرف عزها » .

ومنها : « ثم لتكن بطانتك وجلسائك فى خلواتك ودخلائك فى شرك
أهل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك وعامة قوادك ممن قد حنكته السن
بتصارييف الأمور » .

« احذر تضییع رأيك واهمالك أدبك فى مسالك الرضا والغضب
واعتوارهما إياك ٠٠٠ واعلم أن للمشورة مواضع الخلوة وانفراد النظر
قابغها محرزا لها ورمها طالبا لنيلها » .

« حصن جنك واشكم نفسك بطاعة الله فى مجاهدة أعدائه ، وارج
نصره وتنجز موعوده » (١) .

ويعنى عبد الحميد بأسلوبه ، ويكثر عنده السجع والازدواج ، ولكنه
لا يلتزم بذلك .

وهكذا نرى الرسائل فى العصر الأموى يغلب عليها المساواة وتميل الى
الاطناب أحيانا ، ويغلب على أسلوبها الترسل وان جاء السجع جاء غير
متكلف ، وانما نراه يكسب الأسلوب رنينا وجمالا ، كما أن المحسنات البديعية
تأتى حين يتطلبها المعنى فتزيد المعنى وضوحا وتكسب الأسلوب جمالا ،
ونادرا ما نرى الكاتب يلتزم السجع كما رأينا فى وصية علقمة بن لبید لابنه .

ويغلب على هذه الوصايا التأثير بالروح الدينية ولكنهم لا يكثرُونَ من
اقتباس آيات من القرآن الكريم أو نصوص من الحديث الشريف ، كما أنهم
لا يحشدون الصور البيانية فى وصاياهم وانما تأتي هذه الصور فى مواقف
يساعد التصوير فيها على وضوح المعنى كما فى قول عمر بن هبيرة :
« وصاحب شرطتك فانه سوطك وسيفك » وهى صور مألوفة ليس فيها ابتكار .

(١) صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٩٨ الى ص ٢٤١ - القلقشندي - دار الكتب
العلمية بيروت .

وتأتى هذه الوصايا فى غالب الأحيان مشافهة ، وقد تأتى فى رسائل
يبعثها الموصى الى الموصى كما فى وصايا عمر بن عبد العزيز ، وكما فى وصية
الحسن البى لمعر بن عبد العزيز •

ولما جاء عبد الحميد بن يحيى الكاتب أطل الرسائل وحفلت هذه الرسائل
بالوصايا السياسية والاجتماعية والدينية ، واهتم عبد الحميد اهتماما كبيرا
بالسجع والازدواج وكثرت المحسنات البديعية عنده ، غير أننا حين نقرأ
الوصايا فى مطلع العصر العباسى لا نرى هذا الاهتمام بالسجع والازدواج
كما رأيناه عند عبد الحميد الكاتب ، وغلب الأسلوب المرسل على الوصايا
كما سنرى فى حينه •

الباب الأول
اتجاهات الوصايا
في العصر العباسي

اتجاهات الوصايا فى العصر العباسى

لا يخلو الأدب العربى فى عصر من العصور من أدب الوصايا ، وقد عرضنا نماذج من الوصايا فى العصر الجاهلى ، ثم فى عصرى صدر الاسلام وبنى أمية •

وتكثر الوصايا فى فترات التغيير عند قيام الدول ، وعند حدوث الاضطرابات فرؤساء الدول حريصون على تثبيت دعائم دولتهم ، فنرى هؤلاء الرؤساء يوصون قادتهم وولاتهم وشعوبهم ، ويحذو رجال الدولة حذو رؤسائهم ولا تقتصر هذه الوصايا على النواحي السياسية ، بل تتعداها الى النواحي الاجتماعية والدينية •

ويحرص هؤلاء الرؤساء على اعداد أبنائهم ليخلفوهم فيكثرون من وصاياهم حتى ينشأ أبنائهم متكاملين يجمعون الى الذكاء السياسى سموا خلقيا •

وفى فترات التغيير يحرص رجال الدولة وعلى رأسهم الخلفاء على اظهار التمسك بشعائر الدين واكبار العلماء ، فنراهم يفتحون صدورهم لسماع وصايا العلماء ، وقد يحسون بالضييق من توجيه هذه الوصايا اليهم ، ولكنهم قليلا ما يظهرون التبرم بهم ، وسنرى أن وصايا العلماء للخلفاء بالتمسك بتعاليم الدين تزدهر فى أوائل العصر العباسى ثم تقل مع تقدم الزمن واستقرار الاوضاع وضعف الشعور الدينى •

وسنرى أن هذه الوصايا كانت تأتى مشافهة فى معظم الاحيان ، ومع تقدم الزمن وارتفاع مكانة الكتابة نرى الرسائل تطفى على غيرها من فنون النثر •

وفى خلال حديثى عن الوصايا سأوضح الظروف التى أحاطت بالوصية والمناسبات التى قيلت فيها ، وسأبدأ بالحديث عن الوصايا السياسية ، ثم الاجتماعية ، وأختتم بالحديث عن الوصايا الدينية •

الفصل الأول

الوصايا السياسية

فى فترة الاعداد للخلافة العباسية

حين نبحت فى الوصايا فى العصر العباسى لابد أن نعود خطوة الى الوراء حيث يدبر العباسيون لقيام دولتهم على انقراض الدولة الأموية ، وكانت البذرة الأولى لقيام الدولة العباسية وصية أبى هاشم الى محمد بن على بن عبد الله بن عباس بالامامة من بعده ، وكان كثيرون من الشيعة يلتفون حول محمد بن الحنفية شقيق الحسن والحسين ، ولما مات محمد بن الحنفية ورث ابنه أبو هاشم زعامة فرقة الكيسانية الشيعية ، وتوثقت الصلة بين أبى هاشم ومحمد بن على ، فلما أحس أبو هاشم بدنو أجله سنة ٩٨ هـ أوصى لمحمد العباسى وصية صريحة بالامامة من بعده ، وبذلك وجد محمد بن على ركيزة يعتمد عليها فى اثبات حقه فى الخلافة وبدأ محمد العباسى فى تنظيم الدعوة للعباسيين سرا ، وجعل الدعوة لآل البيت بدون تحديد حتى يتجنب بطش الأمويين بهم ، وأيضا ليكسب الشيعة الى جانبه وهنا نرى أول وصية تتعلق بقيام الدولة العباسية ، فقد اختار محمد بن على العباسى رجال الدعوة وأوصاهم ، ومما جاء فى هذه الوصية :

« أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة على بن أبى طالب ، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف وتقول : « كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القتال » ، وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون فى أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فليس يعرفون الا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان ، عداوة لنا راسخة وجهلا متراكما ، وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وصدورا سليمة وقلوبا فارغة لم تنقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ، ولم تشغلها ديانة ، ولم يتقدم فيها فساد ، وليست لهم

اليوم هم العرب ، ولا فيهم كتحازب الاتباع بالسادات وكتحالف القبائل وعصبية العشائر ، ولم يزالوا يذالون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج ويؤملون الدول ، وهم جند لهم أجسام وأبدان ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أفواه منكرة ، وبعد • فكأنى أثقال الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » (١) •

والهدف من هذه الوصية أن ييث الدعاة الدعوة بين أهل خراسان ،
• وقم علل الموصى لرأيه لينفذه عن اقتناع •

وفى سنة ١٢٥ توفى محمد بن على بعد أن عهد بالامامة لابنه ابراهيم وتولى الدعوة أبو سلمة الخلال ، وتولى القيادة الحربية أبو مسلم الخراسانى ، وأوصى ابراهيم ابن محمد أبا مسلم الخراسانى ، ونراه فى وصيته يركز الشك فى ربيعة ومضر ، ويحتفظ بخراسان موطننا للدعوة العباسية ، ويشتط ابراهيم فيأمر أبا مسلم بأن يقتل من يشك فيه • ويقول :

« انظر هذا الحى من اليمن فالزمهم ، واسكن بين أظهرهم ، فان الله تعالى لا يتم هذا الأمر الا بهم واتهم ربيعة فى أمرهم ، وأما مضر فانهم العدو القريب الدار ، واقتل من شككت فيه ، وان استطعت ألا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، وأيما غلام بلغ خمسة اشبار تتهمه فاقتله ، ولا تخالف هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير) • ولا تعصه ، واذا اشكل عليك أمر فاكتف به منى » (٢) •

وقبض مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية على ابراهيم بن محمد الامام ، وأودعه السجن ، وعرف ابراهيم أن لا خلاص له ، فعهد بالأمر من بعده الى أخيه أبى العباس الذى لقب بالسفاح بعد ذلك ، ودفع ابراهيم

(١) عيون الاخبار ج ١ ص ٢٠٤ - ابن قتبية • دار الكتاب العربى بيروت •

(٢) تاريخ الكامل ج ٥ ص ٣٤٨ - أبو الحسن على المعروف بابن الاثير •

الوصية الى سابق الخوارزمي مولاه ، وأمره ان حدث به حادث من مروان
أن يجد السير الى الحميمة حتى يدفع وصيته الى أخيه أبى العباس .

وأوصاه : « بالقيام بالدولة والجد والحركة ، والا يكون له بعدمه
بالحميمة لبث ولا عرجة حتى يتوجه الى الكوفة ، فان هذا الأمر صائر اليه
لا محالة ورسم له بذلك رسماً أوصاه فيه أن يعمل عليه ولا يتعداه » (١) .

وجد أبو العباس فى الأمر كما أوصاه أخوه حتى تحقق الأمل وقامت
الدولة العباسية وهكذا نرى الوصايا السياسية تواكب الأحداث وتؤثر فيها .

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٥ - الجاحظ مطبعة المدنى ط ٥ بتصرف - والسهك
بيروت .

فى صدر الدولة العباسية

وقامت الدولة العباسية ، وكان لأبى مسلم الخراسانى اثر واضح فى هزيمة الأمويين وتثبيت دعائم الدولة الجديدة ، وكان يوصى قاداته بالجرأة والطاعة وهما أساس النصر ، ومن وصايا أبى مسلم لقواده :

« أشعروا قلوبكم الجرأة فانها من أسباب الظفر ، وأكثروا ذكر الضغائن فانها تبعث على الاقدام ، والزمو الطاعة فانها حصن المحارب » (١) .

ويضيف أبو مسلم الى الوصية بالجرأة والطاعة وصية بذكر الضغائن ، وكان العباسيون يذكرون جرائم الأمويين ويثيرون الضغائن فى صدور الناس ليجدوا فى القضاء على بنى أمية .

ونظر العلويون فوجدوا أن الأمر أثقلت من أيديهم ، وكانوا ينتظرون أن يكون الأمر لهم ، فسخطوا على أبناء عمومتهم وثاروا عليهم ، واشتد العباسيون فى معاملة العلويين وألقوا بهم فى غياهب السجون ، وقتلوا الثائرين عليهم ، وقبض أبو مسلم الخراسانى على عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وألقاه فى غياهب السجن ، وكتب عبد الله الى أبى مسلم يوصيه بالعدل وتقوى الله ، ومن هذه الوصية :

« من الأسير فى يديه ، بلا ذنب اليه ، ولا خلاف عليه ، أما بعد -

فاتاك الله حفظ الوصية ، ومنحك نصيحة الرعية ، والهمك عدل القضية ، فانك مستودع ودائع ، ومولى صنائع ، فاحفظ ودائعك بحسن صنائعك ، فالودائع عارية ، والصنائع مرعية ، فنبه للتفكير قلبك ، واتق ربك ، وأعط من نفسك لمن هو تحتك ما تحب أن يعطيك من هو فوقك من العدل والرافة والأمن من المخافة ، فان علينا من سهك الحديد وثقله أذى شديدا مع معالجة الأغلال وقلة رحمة العمال ، فاليك بعد الله نرفع كربة الشكوى ، ونشكو شدة البلوى ، فارح حرمة من أدركت بحرمة ، واعرف حجة من

فلحت بحجته ، والله المستعان وعليه التكلان ، صريخ الاخيار ، ومنجى الأبرار ، الناس من دولتك فى رخاء ، ونحن منها فى بلاء ، حين أمن الخائفون ورجع الهاربون ، رزقنا الله منك التحنن ، وظاهر علينا فيك التمنن ، فانك أمين مستودع ، ورائد مصطنع ، والسلام ورحمة الله » (١) .

وقد أوجزت الوصية مع الحرص على ابراز أهدافها ، وهى وصية محكمة يشكو فيها عبد الله ما يلاقيه فى سجنه ، ويذكر أبا مسلم بمسئوليته تجاه الرعية ، ويدعو له بأن يلهمه الله العدل ، ويذكره بأن النعم عارية يمكن أن تسترد فى أى وقت ، ثم يطلب اليه أن ينظر الى نفسه ويتخذ منها مثلاً ، فيعطى من تحته ما يجب أن يعطيه من فوقه ، ويحاول أن يجتذب أبا مسلم ويكسب عطفه فيعلن أنه الملجأ بعد الله سبحانه وتعالى ، ويضرب على وتر حساس فيقول له : « قارع حرمة من أدركت بحرمته ، واعرف حجة من فلحت بحجته » أى انه انما نجح فى بحرمة أهل البيت ، فكيف ينقلب عليهم ويعاملهم هذه المعاملة السيئة ؟ .

وجاءت هذه الوصية ملتزمة السجع مع أنها كتبت قبيل منتصف القرن الثانى الهجرى ، ولم يكن الكتاب يلتزمون السجع فى ذلك الوقت ، ويبدو أن الكاتب حرص على جمال الأسلوب ليكون أشد تأثيراً فى نفس أبى مسلم ، حيث يحرص الكاتب على كل وسيلة قد تؤثر فى نفسه ، والفرس يحبون الزخرف .

وهكذا عامل العباسيون خصومهم السياسيين بمنتهى القسوة ، وكانوا يوصون أبناءهم بتجريد السيف للقضاء على كل معارض ، وأوصى أبو العباس السفاح ابن أخيه هارون الرشيد بذلك ، وضم الى السيف الدرهم ، وهما وسيلتان النجاح كما يرى أبو العباس ، فالدرهم يجذب القلوب ، والسيف يحصد من كفر النعمة ، يقول أبو العباس موصياً الرشيد : « انما هو درهمك وسيفك ، فازرع بهذا من شكرك ، واحصد بهذا من كفرك » (٢) .

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٥ - الجاحظ مطبعة المدنى ط ٥ بتصرف - والسهك رائحة الصدا - والصريخ المغيث والمستغيث . ضد .

(٢) نهاية الارب ج ٦ ص ١٨ - أحمد بن عبد الوهاب النويرى . مطبعة دار الكتب المصرية .

فى عهد الخليفة المنصور

ثم تولى أبو جعفر المنصور الخلافة ، وكان أبو العباس السفاح قد عهد اليه بالخلافة من بعده ، ثم الى ابن أخيه عيسى بن موسى ، وكان أبو جعفر المنصور ذكيا وكان شجاعا مدبرا ، وكان حازما قاسيا ، وكان حريصا على مقاومة أعداء الاسلام ، ولكنه كان يستحل كل وسيلة توصله الى غايته ، وأوصى المنصور كما لم يوص غيرہ من الخلفاء العباسيين ، وحفظت لنا كتب التراث عشرات من وصاياه ، وكان معظمها موجها الى ابنه المهدي .

خلع المنصور عيسى بن موسى من ولاية العهد وجعلها لابنه المهدي ، وباع الناس للمهدي طائعين أو مكرهين ، ولم ينس المنصور أن يؤكد هذه البيعة عند وفاته وكتب وصية بذلك جاء فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المنصور أمير المؤمنين الى من خلف بعده من بنى هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامة المسلمين ، أما بعد ، فانى كتبت كتابى هذا وأنا حى فى آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة ، وأنا أقرأ عليكم السلام ، وأسأل الله ألا يفتنكم بعدى ولا يلبسكم شيعا ، ولا يذيق بعضكم بأس بعض ، يا بنى هاشم ، ويا أهل خراسان ... »

ثم أخذ فى وصيتهم بالمهدى وانكارهم البيعة له ، وحضهم على القيام بدولته والوفاء بعهده « (١) » .

وبعد أن تمت البيعة للمهدى أوصاه وصايا تقوم على طاعة الله وحسن الخلق ، ومن وصاياه : « يا أبا عبد الله ، لا يصلح السلطان الا بالتقوى . ولا تصلح رعيته الا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل ، ولا تدوم نعمه السلطان وطاعته الا بالمال ، ولا تقدم فى الحياطة بمثل نقل الأخبار ،

واقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة ، وأعجز الناس من ظلم من هو دونه ، واعتبر عمل صاحبك وعلمه باختياره « (١) » .

واللافت للنظر فى هذه الوصية التفات المنصور الى أثر المال فى نعمة السلطان ودوام طاعته ، وسنرى أن المنصور كان يدبر لتوفير المال له ولابنه من بعده بوسائل مشروعة وغير مشروعة .

وفى موقف آخر أوصى المنصور ابنه المهدي بالحرص على حمد الناس إياه ، والبعد عما يستدعى الذم فقال له : « يا أبا عبد الله ، من أحب الحمد أحسن السيرة ، ومن أبغض الحمد أساءها ، وما أبغض الحمد أحد الا استنذم ، وما استنذم الا كره » (٢) .

وأوصى المنصور ابنه وولى عهده بالحرص على مجالسة العلماء فقال : « يا أبا عبد الله ، لا تجلس مجلسا الا ومعك من أهل العلم من يحدثك ، فان محمد بن شهاب الزهري قال : « الحديث ذكر ، ولا يجبه الا نكور الرجال ، ولا يبيغضه الا مؤنثهم ، وصدق أخو زهرة » (٣) .

وكان محمد المهدي رجلا دمث الخلق فيه وداعة ولين ، ويبدو أن المنصور كان يخاف عليه أفراد البيت العباسي من الطامعين فى الخلافة ، ولذلك عمل المنصور على القضاء على هؤلاء الطامعين ، وأوصى المهدي باليقظة والحزم ، وعين له أخطر الرجال ورسم له كيفية معاملتهم ، وفى إحدى وصاياه للمهدي يقول :

« يا بنى ، انى قد جمعت لك من الأموال مالم يجمعه خليفة قبلى ، وبנית لك مدينة لم يكن فى الاسلام مثلها ، ولست أخاف عليك الا أحد رجلين : عيسى بن موسى ، وعيسى بن زيد ، فأما عيسى بن موسى فقد أعطانى من العهود والمواثيق ما قبلته ، وبالله لو لم يكن الا أن يقول قولاً

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٧١ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٧٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ٧٢ .

لما خفته عليك ، فأخرجه من قلبك ، وأما عيسى بن زيد فأنفق هذه الأموال ، واقتل هؤلاء الموالى ، وهدم هذه المدينة حتى تظفر به ثم لا ألومك » (١) .

ويبدو فى هذه الوصية قسوة المنصور وصلابة ارادته والتضحية بكل شئ فى سبيل تحقيق هدفه .

وكان المنصور بخيلا ، وسلك مسلكا غريبا فى جمع الأموال وأوصى ابنه وصاة غريبة تجاه هذا المال ، وأورد هنا قصة تبين حرص المنصور على المال ، وحرصه على أن يقبض المهدي يده بعد أن رأى كرم ابنه واسرافه .

« قال المؤمل بن أميل : قدمت على المهدي وهو ولى عهد ، فأمر لى بعشرين ألف درهم لأبيات امتدحته بها ، فكتب بذلك صاحب البريد الى المنصور وهو بمدينة السلام ، فكتب اليه المنصور يعذ له ويلومه ، وأمر المنصور بالقبض على المؤمل ، وأدخلوه على المنصور ، فقال له : أتيت غلاما غرا فخدعته ، أنشدنى ما قلت فيه ، فأنشده قصيدة مطلعها :

هو المهدي إلا أن فيه . . . مشابه صورة القمر النير .

فقال : والله لقد أحسنت ، ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم ، وقال : يا ربيع ، انزل فأعطه أربعة آلاف درهم ، وخذ منه الباقي ، ففعل . فلما صارت الخلافة الى المهدي ردها عليه » (٢) .

أما التصرف الغريب والوصاة المتعلقة بهذا التصرف فيتضحان فيما أورده الطبرى : « كان المنصور لا يولى أحدا ثم يعزله الا القاه فى دار خالد البطين فيستخرج من المعزول مالا ، فما أخذ من شئ أمر به فعزل » وكتب عليه اسم من أخذ منه ، وعزل فى بيت مال سماه مال المظالم . ثم قال للمهدي :

(١) المرجع نفسه ص ١٠٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٧٣ .

انى قد هيات لك شيئا ترضى به الخلق ولا تغرم من مالك شيئا ،
فاذا أنا مت فادع هؤلاء الذين أخذت منهم هذه الأموال التى سميتها
المظالم ، فاردد عليهم كل ما أخذ منهم ، فانك تستحمد اليهم والى العامة ،
ففعل ذلك المهدي لما ولى الخلافة » (١) .

وأكثر المنصور من وصاياہ لابنه فى السنة الأخيرة من حياته ،
وكأنه أحس بدنو أجله وأراد أن يرسم لابنه طريقه بوضوح ، فلم يدع
شيئا الا قدم لابنه فيه النصيحة ، وأورد الطبرى صفحات من هذه الوصايا
نورد مقتطفات منها • يقول الطبرى :

« ان المنصور أوصى المهدي فى السنة الأخيرة لما شخص متوجها
الى مكة ، وقد نزل قصر عبدويه وأقام بهذا القصر أياما والمهدي معه
يوصيه ، يفعل ذلك كل يوم من أيام مقامه بالغداة والعشى ، ومن
وصاياہ :

وانظر هذه المدينة فاياك أن تستبدل بها فانها بيتك وعزك ، فقد
جمعت لك فيها من الأموال ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين
كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور ،
فاحتفظ بها فانك لا تزال عزيزا مادام بيت مالك عامرا •

وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم وتقدمهم وتكثر الاحسان
اليهم وتعظم أمرهم ، وتوطئ الناس أعقابهم ، وتوليهم المنابر ، فان
عزك عزهم وذكرهم لك •

وانظر مواليك فأحسن اليهم وقربهم واستكثر منهم ، فانهم مادتك
لشدة ان نزلت بك ، وأوصيك بأهل خراسان خيرا فانهم انصارك
وشيعتك الذين بذلوا أموالهم فى دولتك ، ودماءهم دونك ، أن تحسن اليهم
وتتجاوز عن مسيئتهم وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات فى

أهله وولده ، وإياك أن تدخل النساء فى مشورتك فى أمرك » (١) .

وأوصاه مرة أخرى وهو متوجه الى مكة وصية جامعة تناولت شئون الحرب والمال وتعظيم الخلافة واستطلاع الأحوال ، والجد وعدم الكسل ، وحسن الظن بالله ، وسوء الظن بالرجال ، والعدل بين الرعية ، واليقظة وترك الغفلة ، وتوج وصيته بتقوى الله وعدم سفك الدماء الا بالحق مع عدم التهاون فى حد من حدود الله ، وبدأ الوصية بقوله :

« اتق الله فيما عهد اليك من أمور المسلمين بعدى يجعل لك فيما كربك وحربك ومخرجك ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب ، احفظ يا بنى محمدا صلى الله عليه وسلم فى أمته يحفظ الله عليك أمورك ، وإياك والدم الحرام فانه حوب عند الله عظيم ، وأقم الحدود ولا تمتد فيها فتبور ، واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أمر فى كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى فى الأرض فسادا مع ما ذكر له عنده من العذاب العظيم فقال : (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا ٠٠٠) الآية . فالسلطان يابنى حبل الله المتين ، فاحفظه وحطه وحصنه وذبح عنه ، وأوقع بالمحدين فيه ، وأقمع المارقين منه ، واقتل الخارجين عنه ، واحكم بالعدل ولا تشطط ، فان ذلك أقطع للشغب وأحسم للعدو ، وعف عن الفئء فليس بك اليه حاجة مع ما أخلفه لك ، وافتتح عملك بصلة الرحم وبر القرابة .

واشحن الثغور ، واضبط الاطراف ، وأمن السبل ، وإياك والتبذير فان النوائب غير مأمونة ، والحوادث غير مضمونة ، وإياك وتأخير عمل اليوم الى غد ، وأعد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، واستعمل حسن الظن بربك ، وأساء الظن بعمالك وكتابك ، وتفقد من يبيت على بابك ، وسهل اذنك للناس ، ولا تتم فان أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ، ولا دخل عينه غمض الا وقلبه مستيقظ . هذه وصيتى اليك ، والله خليفتى عليك » (٢) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٢ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٥ - بتصرف .

ولم تكن وصايا المنصور مقصورة على ابنه المهدي ، ومن وصايا رجال دولته وصيته لحاجبه الخصيب ، فقد ورد أن المنصور ولى حجابته الخصيب وأوصاه فقال : « وأبسط وجهك للمساكين ، وصن عرضك عن تناول المحبوبين ، فما شيء أوقع بقلوبهم من سهولة الاذن وطلاقة الوجه » (١) .

وكان المنصور يكره أن ينقده أحد من عامة الشعب ، وانما كان يفتح صدره لوصايا العلماء الذين يعرف فيهم الاخلاص لله وصفاء النية ، وعلى رأس هؤلاء عمرو بن عبيد وكان الناس يهابون المنصور فلا يعارضونه ، وحدث أن خطب المنصور وذكر الناس بالله ، فقام أحد الجالسين وذكره بالله كما ذكرهم به ، فغضب المنصور وأوصى الرجل وأوصى الناس ألا يذكروا من نزلت الحكمة عليهم ، وكان الرسالة أمر يعم بنى هاشم كلهم .

يقول الطبرى : « خطب المنصور فقال : « الحمد لله أحمدته وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له » ، فاعترضه معترض من يمينه فقال :

« أيها الانسان ، أنكرت من ذكرت به ، فقطع الخطبة ثم قال : سمعا سمعا لمن حفظ عن الله وذكر به ، وأعوذ بالله أن أكون جبارا عنيدا ، وأن تأخذنى العزة بالاثم لقد ضللت اذا وما أنا من المهتدين ، وأنت أيها القائل ، فوالله ما أرادت بها وجه الله ، ولكنك حاولت أن يقال : قام فقال فعوقب فصبر ، وأهون بها ، ويلك لو هممت . فاهتبلها اذ عفوت ، وإياك وإياكم معشر الناس أختها ، فان الحكمة علينا نزلت ، ومن عندنا فصلت ، فردوا الأمر الى أهله توروده موارده ، وتصددروه مصادره . ثم عاد فى خطبته » (٢) .

(١) نهاية الارب ج ٦ ص ٩١ - النويرى - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٩٠ .

فى عهد المهدي

كما هو المعهود من وصايا الآباء لأبنائهم أوصى المهدي ابنه وولى عهده الهادي ، وكانت وصيته مطولة شملت الوصية بتقوى الله وإيثار رضاه على ما سواه ، كما شملت شئون الولاية ومعاملة الأشياع ومعاملة عامة الناس واختيار الولاة ، وجاءت هذه الوصية فى مناسبة خطيرة أوردتها صاحب العقد الفريد حيث يقول :

« جمع المهدي أهل بيته لمشاورتهم فى حرب خراسان أيام تحاملت عليهم العمال ، والتقوا بالخرج ، واغتفر المهدي زلتهم ، ثم اختار ابنه موسى ليرسله الى خراسان ويؤليه على جرجان ، وأوصاه » .

والوصية مطولة مفصلة ، نختار منها ما يوضح النقاط التى ركز عليها المهدي وحرص على أن يتمسك بها ابنه وولى عهده . ومنها :

« أى بنى ، انك قد أصبحت لسمت عيون العامة نصبا ، ولثنى أعطاف الرعاية غاية ، فحسنتك شاملة ، وأساءتك نامية ، فعليك بتقوى الله عز وجل بطاعته ، ثم اعلم أن الله تعالى فى كل زمان عترة من رسله وبقايا من صفوة خلقه وخبايا لنصرة حقه » .

ثم يوصيه بأهل خراسان ويطنب فى بيان آثارهم وفضائلهم ، ومن قوله :

« وإن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا وسيوف دعوتنا ، الذين نستدفع المكاره بطاعتهم ، فهم عماد الأرض اذا أُرْجفت كنفها ، وحقوق الأعداء اذا برزت صفحتها ، قد مضت لهم وقائع صادقات ومواطن صالحات أخدمت نيران الفتن ، وقصمت دواعى البدع ، واثلت رقاب الجبارين ، فظاهر عليهم لباس كرامتك ، وانزلهم فى حدائق نعمتك ، ثم اعرف لهم حق طاعتهم ووسيلة دالتهم بالاحسان اليهم والتوسعة عليهم والاثابة لحسنهم والاقالة لمسيئهم » .

ثم يوصيه بعامة الناس ويحثه على طلب رضاهم ، بالعدل وبإعطاء كل بلد حق اختيار حكامه ، فإن أحسنوا حمد الخليفة ، وإن أساءوا فإساءتهم عليهم ، وكان المهدي يفتن إلى حق الانتخاب للشعب وإن اختلفت طريقة الانتخاب في كل عصر ، ومن وصية المهدي في ذلك :

« أي بني ، ثم عليك العامة فاستدع رضاها بالعدل عليها ، واستجلب مودتها بالإنصاف لها ، واجعل عمال القدر (ذوى الشرف والحسب) وولاة الحجج مقدمة بين يدي عملك ذ ونصفة منك لرعييتك ، وذلك أن تأمر قاضي كل بلد وخيار أهل كل مصر أن يختاروا لأنفسهم رجلا توليه أمرهم ، وتجعل العدل حاكما بينه وبينهم ، فإن أحسن حمدت ، وإن أساء عذرت » .

ثم يوصيه بالحرص على اختيار رجلين يلزامانه ، أحدهما كريم الخلق شريف الحسب راجح العقل ظاهر التقوى ، والثاني بصير بالأمر فصيح اللسان محنك في الحروب ، وقد أصاب المهدي ، فالأول يظهر الخليفة تمظهر التقى الحريص على ملازمة ذوى التقوى ، والثاني يحسن تصريف الأمور ويدفع بالحجة ويناصر في الحرب ، ومن قول المهدي في ذلك :

« ولا ينفكن في ظل كرامتك نازلا ، وبعرا حبلك متعلقا رجلا : أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب وأعلام بيوتات الشرف ، وله أدب فاضل وحلم راجح ودين صحيح ، والآخر له دين غير مغموز ، وموضع غير مدخول ، بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأي وأنحاء الأدب ووضع الكتب ، عالم بحالات الحرب وتصاريف الخطوب ، فتستشيره في حربك وتدخله في أمرك » .

ويوصيه كذلك بأن يجمع حوله جماعة مختارة من الفقهاء وخيار الناس يكونون سماره وأهل مشورته فيقول : « ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان وخيار الأمصار أقواما يكونون جيرانك وسمارك وأهل مشاورتك فيما تورد » .

ويختتم الوصية بالدعاء لابنه وولى عهده فيقول : « فسر على بركة الله ، أصبحك الله من عونه وتوفيقه دليلا يهدي إلى الصواب قلبك ، وهاديا ينطق بالحق لسانك » .

وكتب فى شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ٠٠ ببغداد (١) ٠

وعندما حضرته الوفاة أوصى ابنه الرشيد بأهل بيت رسول الله وبأهل الحرمين ، ولفت نظره الى مكانتهم الدينية وأثر آبائهم فى نصرته الرسول عليه السلام ٠ ومن قوله :

« عليك يا بنى بتقوى الله العظيم وطاعته فاتخذها بضاعة يأتيك الربح من غير تجارة ، وأوصيك بأخوتك خيرا ، وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اقبل حسناتهم وتجاوز عن سيئاتهم ، واغفر زلاتهم وأوصيك بأهل الحرمين خيرا فقد علمت من هم ؟ وأبناء من هم ؟ أجزل لهم العطاء وأحسن لهم الجزاء ، يكافئك الله فى الآخرة والأولى » (٢) ٠

وكما أوصى المهدي أبناءه نراه يوصى ولاته وقادته ، ولم تخرج وصاياه عن المعهود فى وصايا الخلفاء لرجالاتهم ، وقد ولى المهدي الربيع بن أبى الجهم فارس ، ثم أوصاه فقال له :

« ياربيع ، أثر الحق ، والزم القصد ، وابسط العدل ، وارفق بالرعية ، واعلم أن أعذل الناس من أنصف من نفسه ، وأظلمهم من ظلم الناس لغيره » (٣) ٠

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢١٠ الى ص ٢١٢ بتصرف ٠

(٢) تاريخ الخلفاء (الامامة والسياسة) ص ١٨٣ - ابن قتيبة - مؤسسة

الوفاء ٠ بيروت ٠

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٣١ ٠

فى عهد الرشيد

وأشهر وصايا الرشيد وصيته لابنيه محمد الأمين وعبد الله المأمون ، ثم للقاسم المعتصم ، وهذه السنة التى اتبعها الخلفاء العباسيون أثارت النزاعات والحروب بين أبناء البيت الواحد ، وخلع الأمين أخاه المأمون ليولى ابنه مكانه واشتعلت الحرب بين الأخوين ، وانتهت بقتل الأمين واستيلاء المأمون على السلطة .

وغير الرشيد صورة الوصية فكتب كتابين أحدهما على لسان الأمين ، والثانى على لسان المأمون ، يتعهد كل منهما بالوفاء بما أملى أمير المؤمنين هارون الرشيد ، ويبدو بوضوح فى هذين الكتابين أن الرشيد كان يخاف بل ويتوقع أن ينقض الأمين وصية الرشيد للمأمون ، فأخذ على الأمين عهداً موثقاً .

والكتابان مطولان نحاول أن نوجزهما بحيث نبرز الأهداف التى يرميان إليها ، وقد جاء فى مطلع كتاب الأمين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين فى صحة من عقله وجواز من أمره ، أن أمير المؤمنين ولانى العهد من بعده ، وولى عبد الله بن هارون العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدى وولاه خراسان وثغورها فى حياته وبعده . »

فإن حدث بأمر المؤمنين حدث الموت وأقضت الخلافة الى محمد بن أمير المؤمنين فعلى محمد انفاذ ما أمر به هارون أمير المؤمنين فى تولية عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وثغورها ، » .

ويظهر بوضوح خوف الرشيد من نقض الأمين العهد حيث يقول : « فإن أراد محمد خلع عبد الله من ولاية العهد من بعده أو عزل عبد الله عن ولاية خراسان فلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين وهو المقدم على محمد » .

ويحث المسلمين على انفاذ العهد فيقول : « فعليكم معشر المسلمين انفاذ ماكتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا ، وعهد الله وذمته رسوله صلى الله عليه وذم المسلمين والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقربين والنبيين والمرسلين ووكدها في أعناق المؤمنين والمسلمين ، لتقن لعبد الله بما سمى ، ولحمد وعبد الله والقاسم بما سمى . »

والله عليكم بذلك كفيل وراع ، وكفى بالله حسيبا » (١) .

وكتب الرشيد كتابا آخر باسم المأمون جاء مطلعُه شبيها بما جاء في الكتاب الذي كتبه باسم الأمين ، ينص على أن الرشيد ولاه خراسان في حياة الأمين ، وجعله وليا للعهد يرث الخلافة بعد أخيه الأمين ، ومما جاء في هذا الكتاب على لسان المأمون :

« ان أمير المؤمنين هارون ولانى العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخى محمد بن هارون ، وولانى في حياته ثغور خراسان وجميع أعمالها » .

ثم كتب الرشيد على لسان المأمون أن يفى لأخيه محمد بالسمع والطاعة ، ومما جاء في ذلك :

« فشرطت لأمير المؤمنين وجعلت له على نفسى أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه ، وأنصحه ولا أغشه ما وفى لى بما شرط لأمير المؤمنين فى أمرى ، فان أنا نقضت شيئا مما شرطت وسمت فى كتابه هذا فبرئت من الله عز وجل ومن ولايته ودينه ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . »

وشهد سليمان بن أمير المؤمنين ، وفلان وفلان ، وكتب فى ذى الحجة سنة ست وثمانين ومائة » (٢) .

وللرشيد وصايا لقواده وولاته ، وكان الرشيد قد ولى على بن عيسى

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٧٨ الى ص ٢٨١ بتصرف .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٨١ الى ص ٢٨٣ بتصرف .

ابن ماهان خراسان فعات فيها فسادا ، فعزله الرشيد وولى هرثمة بن أعين ، وأوصى الرشيد هرثمة وصية بدأها بالتقوى ، ثم أوصاه بشأن على بن عيسى : « وأمره أن يستوثق من الفاسق على بن عيسى وولده وعماله وكتابه ، وأن يشد عليهم وطلاته ، ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم من خراج أمير المؤمنين وفيء المسلمين ، فإذا استنظف ما عندهم من ذاك نظر فى حقوق المسلمين والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذى حق حتى يردوه اليهم ، فإذا خرجوا من حق كل ذى حق أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطاء وخشونة الطعام والمشرب وغلظ اللبس مع الثقة من أصحابه الى باب أمير المؤمنين ان شاء الله » .

وفى ختام الوصية يقول : « فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت اليك ، فانى أثرت الله ودينى على هواى وأرادتى ، ثم اعمل بما يرضى الله منك وخليفته ومن ولاك الله أمره » . ان شاء الله .

وكتب أمير المؤمنين بخط يده ، ولم يحضره الا الله وملائكته « (١) » .

وهكذا وردت بعض الكتب وفيها أسماء الكاتب والشهود ، وهذا الكتاب كتبه أمير المؤمنين بخطه ولم يحضره أحد .

وكتب الرشيد وصية الى هرثمة يأمره بالاشتداد على على بن عيسى . ويأمره بالذهاب الى سمرقند والعفو عمن تاب من أهلها وعقاب من لم يتب (٢) .

وكان وزراء الرشيد يعرفون عنه شدة غضبه ويحذرونه كما يبدو من وصاياهم لمن حولهم ، وأوصى الوزيران الكبيران يحيى بن خالد البرمكى والفضل بن الربيع بالحذر فى معاملة الملوك وفى مخاطبتهم . ومن وصايا يحيى بن خالد :

(١) المرجع نفسه ص ٣٢٧ بتصرف .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٣٦ .

« اذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج
الأحمق » (١) .

وشبيه بهذه الوصية وصية الفضل بن الربيع اذ يقول : « اياكم
ومخاطبة الملوك بكل ما يقتضى جوابا ، لأنهم ان أجابوكم اشتد عليهم ، وان
لم يجيبوكم اشتد عليكم » (٢) .

وأوصى عبد الملك بن صالح أمير سرية الى بلاد الروم فقال : « أنت
تاجر الله لعباده فكن كالمضارب الكيس الذى ان وجد ربها تجر ، والا احتفظ
برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة ، وكن من احتيالك على
عدوك أشد حذرا من احتيال عدوك عليك » (٣) .

وهنا يبدأ الوصية بتشبيهين ملائمين ، فالتاجر والمضارب لا يقدمان
الا اذا ضمنا الربح ، ثم انه تاجر الله ومسئول أمامه ، ونرى المقابلة التى
يتطلبها المعنى : « ان وجد ربها تجر ، والا احتفظ برأس المال » .

(١) المستطرف ج ١ ص ٢٠٣ محمد بن أحمد الابشيهى . دار الكتب العلمية

بيروت .

(٢) تحفة الوزراء ص ١٢٠ عبد الملك الثعالبي . مطبعة العانى بغداد .

(٣) عيون الاخبار ج ١ ص ١٠٩ - ابن قتيبة . دار الكتاب العربى .

فى عهد الأمين والمأمون

وضع الرشيد لبنة الخلاف بين الأمين والمأمون حين جعل ولاية العهد للأمين ثم للمأمون ، وآلت الخلافة الى الأمين بعد وفاة الرشيد ، ولم يمض وقت طويل حتى طمع الأمين فى نقل ولاية العهد الى ابنه فأعلن خلع أخيه المأمون ، وأعلن ابنه وليا للعهد ، وقامت الحرب بين الأخوين .

وكان الأمين صاحب لهو ، ولم يكن مقبلا على العلماء والأدباء ، ولذلك لا نجد له كثيرا من الوصايا ، وما وجدناه من وصايا له يدور حول الحرب التى اشتعلت بينه وبين أخيه ، ومن وصاياہ القليلة وصيته لقائده المتوجه لحرب المأمون ، فقد ذكر الطبرى أن أحمد بن مزيد لما أراد الشخصوخ لحرب المأمون دخل على محمد الأمين فقال : أوصنى - أكرم الله أمير المؤمنين - فقال :

« أوصيك بخصال عدة ، اياك والبغى فانه عقال النصر ، ولا تقدم رجلا الا باستخارة ، ولا تشهر سيفا الا بعد اعدار ، ومهما قدرت بالملين فلا تتعده الى الخرق والشره ، وأحسن صحابة من معك من الجند ، وطالعى بأخبارك فى كل يوم ، ولا تخاطر بنفسك طلب الزلفة عندى ، ولا تستبقها فيما تتخوف رجوعه على ، ركن لعبد الله (يقصد عبد الله بن حميد بن قرطبة) أخا مصافيا وقرينا برا ، وأحسن مجامعته وصحبته ومعاشرته ، ولا تخذله ان استنصرك ، ولا تبطىء عنه اذا استصرحك ، ولتكن أيديكما واحدة ، وكلمتكما متفقة » (١) .

ثم أرسل الأمين على بن ماهان سنة ١٩٥ هـ لحرب المأمون ، وأوصى الأمين قائده فقال :

« امنع جندك من العبث بالمرعية والغارة على أهل القرى وقطع الشجر وانتهاك النساء ، وول الرى يحيى بن على ، ولهمم اليه جندا كثيفا ومره

ليدفع الى جنده ارزاقهم مما يجيء من خراجها ، وول كل كورة ترحل عنها رجلا من أصحابك ، ومن خرج اليك من جند أهل خراسان ووجوهها فأظهر اكرامه وأحسن جائزته ، ولا تعاقب أخا بأخيه ، وضع عن أهل خراسان ربع الخراج ، ولا تأمن أحدا رماك بسهم أو طعن فى أصحابك برمح ، ولا تأذن لعبد الله فى المقام أكثر من ثلاثة أيام من اليوم الذى تظهر فيه عليه ، فاذا أشخصته فليكن مع أوثق أصحابك عندك ، فان غره الشيطان فناصبك فاحرص على أن تأسره أسرا ، وان هرب منك الى بعض كور خراسان فتول اليه المسير بنفسك • أفهمت كل ما أوصيك به ؟ قال : نعم • أصلح الله أمير المؤمنين • قال : سر على بركة الله وعونه « (١) » •

ومن وصايا النساء فى عهد المأمون وصية السيدة زبيدة لعلى بن ماهان لما أراد الشخوص الى خراسان :

« يا على ، ان أمير المؤمنين وان كان ولدى ، اليه تناهت شفقتى ، وعليه تكامل حذرى ، فانى على عبد الله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وانما ابنى ملك نافس أخاه فى سلطانه وغاراه (لاجبه) على ما فى يده والكريم يؤكل لحمه ويميته غيره ، فاعرف لعبد الله حق والده وأخوته ، ولا تجبهه بالكلام فانك لست نظيره ، ولا تقتصره اقتسار العبيد ، ولا ترهقه بقيد ولا غل ، ولا تمنع منه جارية ولا خادما ، ولا تعنف عليه فى السير ، ولا تساوره فى المسير ، ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وان شئت فاحتمل منه وان سفه عليك فلا تراده « (٢) » •

أما المأمون فكان رجلا جادا وعلم وكان يقبل على العلماء والأدباء ، وكان هو أديبا شاملا ، وعالما حكيما ، وكثرت وصاياه فى مختلف الأمور ، وأشهر وصاياه السياسية وصيتان مطولتان نعرض أجزاء منهما فى هذا البحث •

أما أولى الوصيتين فوصيته لعلى بن موسى الرضا بولاية العهد ، وكان المأمون يحب آل أبى طالب ويتشيع لعلى ، واختار على بن موسى الرضا

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٤٠٦ •

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٤٠٥ •

ليكون خليفة من بعده ، وكتب الوصية وأشهد عليها ، وأثارت هذه الخطوة بنى العباس ، وأعلن إبراهيم ابن المهدي نفسه خليفة ببغداد ، ثم مات على بن موسى الرضا في ظروف غامضة ودخل المأمون بغداد ، وقبض على إبراهيم بن المهدي ، واستقرت الأمور للمأمون .

وفى مطلع وصيته لعلى الرضا يعلن أنه كتب هذه الوصية بيده دلالة على شدة اهتمامه بهذا الأمر . يقول المأمون : « هذا كتاب كتبه عبد الله ابن هارون الرشيد أمير المؤمنين بيده لعلى بن موسى بن جعفر ولى عهده » .

ثم يتحدث عن الاسلام واصطفاء الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، ثم قيام الخلافة بعد النبي عليه السلام ، وضرورة طاعة الخلفاء لله ، وطاعة الناس للخلفاء .

ثم ينتقل الى غرضه الأساسى فيتحدث عن ولاية العهد وأن مسألة الإمامة من تمام أمر الاسلام ، وأنه اجتهد غاية الاجتهاد ونظر فى آل العباس وآل على بن أبى طالب فلم يجد أحق بالخلافة بعد المأمون من على بن موسى الرضا . ومن قوله :

« فكانت خيرته بعد استخارته لله على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب لما رأى من فضله البارِع وعلمه الناصع وورعه الظاهر ، فعقد له بالعقد والخلافة ايثارا لله والدين ونظرا للمسلمين » .

ثم يعلن المأمون أن ولده وأهل بيته بايعوا ، ويدعو جميع المسلمين الى هذه البيعة . فيقول : « ودعا أمير المؤمنين ولده وأهل بيته وخاصته وقواده وخدمه فبايعوا ، فبايعوا معشر بيت أمير المؤمنين ومن بالمدينة المحروسة وعامة المسلمين الرضا على اسم الله وبركاته ، شاكرين لله ما ألهم أمير المؤمنين ، راجين عائده فى ذلك فى جمع ألفتكم وحقق دمائكم واستقامة أمورك ، فانه الأمر ان سارعتم اليه وحمدتم الله عليه عرفتم الحظ فيه ان شاء الله تعالى » .

وشهد الفضل بن سهل وعبد الله بن طاهر ويحيى بن اكثم وحمام بن

النعمان وبشر بن المعتمر (١) .

أما الوصية الثانية فوصيته فى مرضه الأخير عندما اشتدت عليه العلة ، وجزء كبير من هذه الوصية موجه الى ولى عهده المعتصم ابن هارون الرشيد ، يقول الطبرى :

« فى السنة التى توفى فيها المأمون نفذت كتبه الى عماله فى البلدان أنه اذا حدث الموت فالخليفة من بعده أبو اسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد » (٢) .

وأورد الطبرى وصيته حين اشتدت عليه العلة ، وهى وصية مطولة جمعت كثيرا من رغبات المأمون وأرائه ومعتقداته ، ونص الطبرى على أنه أوصى بحضور ابنه العباس ، وحضور القضاة والفقهاء والقواد والكتاب .

بدأ الوصية بشهادة أن لا اله الا الله وبتفرد الله بالخلق والتدبير ، وبشهادته بنبوته محمد صلى الله عليه وسلم ، وباقراره بالذنوب وأمله فى عفو الله (٣) .

ثم وجه الوصية الى الحاضرين موصياياهم بما يفعلونه حين ينزل به الموت . فقال:

« فاذا أنا مت فوجهونى وغمضونى وأسبغوا وضوئى وطهرونى وأجيدوا كفننى ، ثم أضجعونى على سريرى ، ثم عجلوا بى ، فاذا أنتم وضعتونى للصلاة فليتقدم بها من هو أقربكم بى نسباً وأكبركم سناً ، ثم أقلونى فابغلوا بى حفرتى ، ثم ضجعونى على شقى الأيمن واستقبلوا بى القبلة ، وحلوا كفننى عن رأسى ورجلى ، واخرجوا عنى وخلونى وعملى ، ولا تدعوا باكية عندى» .

(١) صبح الاعشى ج ٩ ص ٣٦٢ - القلقشندى . المطبعة الاميرية بالقاهرة .

بتصرف .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٦٤٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ٦٤٧ .

ثم وجه المأمون حديثه الى أخيه المعتصم موصيا اياه بما يفعله وما يتركه ، وكشفت هذه الوصية عن بعض معتقدات المأمون المذهبية ، وعن آرائه فى بعض الرجال ، وعن حبه لبنى عمه من ذرية على بن أبى طالب . يقول المأمون :

« يا أبا اسحاق » ادن منى واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك فى القرآن ، واعمل فى الخلافة اذا طوقكها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه ، ولا تغفل أمر الرعية فان الملك بهم وبتعهدك المسلمين ، وعجل الرحلة عنى والقدوم الى دار ملكك بالعراق » . وكان المأمون على مذهب المعتزلة يقول بخلق القرآن ونراه هنا يوصى أخاه باتباع مذهبه .

وكانت الخرمية مصدر قلق وفتن منذ عهد الخليفة المهدي ، وجند الخلفاء الجيوش لقتالهم ولكنهم لم يتمكنوا من القضاء عليهم ، واشتدت ثورة الخرمية بقيادة بابك فى عهد المأمون ، ووجه اليهم الجيوش فلم يتمكنوا من القضاء عليهم ، ولم ينس المأمون أن يوصى أخاه المعتصم بحرب الخرمية ، وفى هذا يقول :

« والخرمية فاعزهم ذا حزيمة وصراحة وجلد ، فان طالمت مدتهم فتجرد لهم بمن معك واعمل فى ذلك عمل مقدم النية فيه راجيا ثواب الله عليه » .

ثم أخذ يبين له رأيه فى الرجال فقال :

« وانظر من كنت تسمعنى أقدمه فأضعف له التقديم ، عبد الله بن طاهر أقره على عمله ، ولا تهجه ، فقد عرفت الذى سلف منكما أيام حياتى وبدحضرتى ، استعطفه بقلبك ، وخصه ببرك ، فقد عرفت بلاءه وغناه عن أخيك ، واسحاق بن ابراهيم فأشركه فى ذلك فانه أهل له ، وأبو عبد الله بن أبى دؤاد فلا يفارقك وأشركه فى المشورة ، ولا تتخذن بعدى وزيرا تلقى اليه شيئا فقد علمت ما نكبنى بن يحيى بن أكثم فى معاملة الناس وخبت سيرته حتى أبان الله ذلك عنه فى صحة منى فصرت الى مفارقتة لاجزاء الله عن الاسلام خيرا » .

وظل المأمون على حبه لآل أبي طالب ، وأوصى أخاه بهم فقال :
« وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه ،
فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئتهم ، وصلاتهم فلا تغفلها فى كل سنة عند
محلها ، اتقوا الله ربكم حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ، أستودعكم
الله ونفسى ، وأستغفر الله مما سلف ، حسبى الله ونعم الوكيل ، وصلى الله
على محمد نبي الهدى والرحمة » (١) .

ولوزراء المأمون وصايا سياسية تنم عن بصر بالأمور وحسن تفكير
وتدبر ، يقول أحمد بن يوسف كاتب المأمون : « اذا لم تقدر أن تعض
يد عدوك فقبلها » (٢) .

وأطول الوصايا فى تلك الفترة وأشملها لجوانب الأمور السياسية
والحربية والاجتماعية والدينية وصية طاهر بن الحسين الى ابنه عبد الله
فى عهد الخليفة المأمون ، وكان طاهر قد احتل مكانة عالية فى الدولة ، ثم
عمل على أن يمكن لأبنائه فى ظل الدولة العباسية ، فولى ابنه عبد الله ديار
ربيعه ، وكتب له وصية رائعة شاملة أعجب بها المأمون وأشاد بها ، وصارت
حديث الناس وتناقلوها وحفظوها .

وتقع الوصية فى تسع صفحات ، ولم تدع أمرا مهما من أمور الدنيا
والآخرة الا أشارت اليه ، وأكثرت من التعليل والاستشهاد حتى يقتنع
القارئ ، ولا نستطيع الا أن نبرز أركان هذه الوصية مع الإيجاز
الشديد لها .

بدأ طاهر الوصية بالبسملة كما هى عادة الكتاب فى ذلك العصر ،
وافتح الوصية بتقوى الله ، ثم بالرافة بالرعية والعدل بينهم مع اقامة حدود
الله عليهم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، عليك بتقوى الله وحده لاشريك له ،
ان الله قد أحسن اليك وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده ،
وألزمك العدل عليهم والقيام بحقه وحدوده فيهم » .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٦٤٧ الى ص ٦٥٠ بتصرف .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢١٣ .

ثم أوصاه بالمحافظة على الصلوات فروضها وسننها وأدائها فى موافقتها واتقانها واسباغ الوضوء لها وحض الجماعة عليها ، ثم أمره بالاستعانة على الأمور باستشارة الله والعدل وإيثار أهل التقوى ، وأمره بالاعتصام والاعتدال .

ويبدو صدق النظرة وشمولها ودقتها حين يوصيه بحسن الظن بالله وعدم اتهام الناس بدون بينة ، وحسن الظن بأصحابه مع التجربة والمباشرة ، وأيضا تقويم نفسه لأنه مسئول عما يصنع . يقول : « وأحسن الظن بالله عز وجل تستقيم لك رعيته ، والتمس الوسيلة اليه فى الأمور كلها تستدم به النعمة عليك ، ولا تتهمن أحدا من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكتشف أمر بالتهمة ، فان إيقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم مائم ، واجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتدعو به الناس الى محبتك ، ولا يمنعنك حسن الظن بأصحابك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمر الأولياء ، وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسئول عما صنع ، وأقم حدود الله فى أصحاب الجرائم ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة ، فان فى تفريطك فى ذلك لما يفسد عليك حسن ظنك » .

ثم يوصيه بتجنب البدع والوفاء بالعهد ، وصون لسانه عن الكذب والزور والنميمة ، ويوصيه بحب أهل الصدق والصلاح وصلة الرحم وكظم الغيظ ، ويبدى رأيه فى مسألة الجبر والاختيار فيقول : ان الانسان مخير لا مسير .

ويوصى ابنه بانفاق الأموال فى الرعية وعدم اكتنازها ، ويرسم له مواقف من الرجال فيقول له : « ولا تمايلين حاسدا ، ولا ترجمن فاجرا ، ولا تصلن كفورا ، ولا تداهن عدوا ، ولا تصدقن نماما ، ولا تأمنن غدارا ، ولا توالين فاسقا ، ولا تتبعن غاويا ، ولا تحمدن مرائيا ، ولا تحقرن انسانا ، ولا تردن سائلا » .

ثم يحذره من تصرفات مسيئة فيقول : « ولا تحبين باطلا ولا تلاحظن مضحكا ولا تخلفن وعدا ، ولا تمشين مرحا ، ولا تفرطن فى طلب الآخرة ،

وليس شيء أسرع فسادا لما استقبلت من أمر رعيك من الشح ، (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) •

ويوصيه بالجند خيرا لأنهم قوام الملك ، ويوصيه بتفقدهم في دواوينهم واجزال عطاياهم ، ويوصيه بالعدل والتثبت وعدم التسرع الى سفك الدماء ويلفت نظره الى أن الحق مر ويجب حمل الناس كلهم عليه مع استعمال ذوى الرأى والتدبير والتجربة ، وأن يكون له فى كل كورة أمين يخبره بأخبار عماله •

ويختتم وصيته بالدعاء له بالنصر والتوفيق (١) •

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٥٨٢ الى ص ٥٩١ - بتصرف •

بعد الخليفة المأمون

الى منتصف القرن الثالث

ولى المعتصم الخلافة بعد أخيه المأمون فى سنة ٢١٨ هـ . وكان هناك فرق شاسع فى العلم والثقافة بين المأمون والمعتصم ، وقد أسلفنا أن المأمون كان بحرا زاهرا فى العلم والأدب ، أما للمعتصم فامتاز بالقوة الجسدية الخارقة ، ولكنه كان أميا أو شبه أمى ، وانصرف عن تعلم الكتابة منذ طفولته .

ومما ورد فى ذلك : « كان المعتصم شجاعا شديد البدن يحمل ألف رطل بغدادى ويمشى بها خطوات فيما قيل ، وكان مع ذلك أميا لا يحسن الكتابة ، ضعيف البصر بالعربية ، ويقال : انه رأى جنازة بعض الخدم يوما فقال : ليتنى مثل هذا حتى أتخلص من الكتاب فقال له أبوه الرشيد : والله لاعذبتك بشيء تختار عليه الموت ، ومنعه عن الكتب من يومئذ » (١) .

ولا نتوقع من خليفة أمى أو شبه أمى أن يوصى وصية يهتم الأدب بتسجيلها وحفظها ، وقد يوصى قائده الذاهب الى الحرب ، وقد يوصى وزيره ، ولكن وصيته لن تتمتع بالأسلوب الأدبى الذى يدعو الأدباء والرواة الى تسجيلها وحفظها ، وهذا هو السبب فى رأينا فى عدم احتفاظ كتب التراث بوصايا للخليفة المعتصم أو لرجالته الذين من حوله .

وأبرز وصية فى تلك الفترة وصية الخليفة المتوكل لأبنائه الثلاثة بولاية العهد واحدا بعد الآخر ، ولم يتعظ بما حدث بين الأمين والمأمون ، وحدث بين الاخوة الثلاثة ما حدث لسابقيهم وقتل الأخ اخاه أو خلعه وألقى به فى غياهب السجون .

(١) مآثر الاناقة فى معالم الخلافة ج ١ ص ٢١٨ - أحمد بن عبد الله القلقشندى

المطبعة الاميرية بالكويت .

يقول الطبرى فى أحداث سنة ٢٣٥ هـ : « عقد الخليفة جعفر المتوكل لابنيه الثلاثة • لمحمد وسماه المنتصر ، ولأبى عبد الله بن قبيصة • وقيل : ان اسمه محمد ، وقيل : اسمه الزبير ولقبه المعتز ، ولابراهيم وسماه المؤيد بولاية العهد » •

وفى صدر الوصية ذكر أسماء أبنائه واللقب أو الكنية ، وذكر أنه أشهد الشهود ، وكتب تاريخ الوصية فقال : « هذا كتاب كتبه عبد الله بن جعفر الامام المتوكل على الله أمير المؤمنين ، أشهد الله على نفسه بجميع ما فيه ، ومن حضر من أهل بيته وشيعته وقواده وقضاته وفقهائه وغيرهم من المسلمين لمحمد المنتصر بالله ، ولأبى عبد الله المعتز بالله ، وابراهيم المؤيد بالله بنى أمير المؤمنين ، فى أصالة من رأيه وعموم من عافية بدنه مختار الماشهد به ، متوخيا بذلك طاعة ربه وسلامة رعيته ، وذلك فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ومائتين » •

والوصية طويلة تقع فى أربع صفحات كبيرة نبرز أهم ما جاء فيها ، وقد رتب أبنائه فى ولاية العهد كما مر ، ونص - كما فعل الرشيد - على وجوب طاعة المعتز والمؤيد لأخيهما الأكبر اذا آلت اليه الخلافة ، فقال :

« وجعل عبد الله جعفر الامام المتوكل على الله أمير المؤمنين لمحمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين على أبى عبد الله المعتز بالله ، وابراهيم المؤيد بالله ابنى أمير المؤمنين السمع والطاعة والنصيحة والمشايعة والموالة لأوليائه ، والمعادة لأعدائه فى السر والجهر والغضب والرضا » •

ثم أكد المتوكل لابنه محمد المنتصر ضرورة أن يفى لأخويه بما عقده الوالد لهما من ولاية العهد فقال : « وجعل عبد الله جعفر الامام المتوكل على الله أمير المؤمنين على محمد المنتصر بالله ابن أمير المؤمنين لأبى عبد الله المعتز وابراهيم المؤيد بالله ابنى أمير المؤمنين الوفاء بما عقده لهما وعهد به اليهما من الخلافة بعد محمد المنتصر بالله وابراهيم المؤيد بالله الخليفة من بعد أبى عبد الله ، وألا يخلعهما ولا واحدا منهما ، ولا يؤخر منهما متقدما ، ولا يقدم منهما مؤخرا ، ولا ينقصهما ولا واحدا منهما شيئا من أعمالهما التى ولاهما عبد الله جعفر الامام المتوكل على الله أمير المؤمنين » •

وراح المتوكل يعدد الأعمال التي أسندها الى المعتز والمؤيد ، ثم أكد حق المعتز على المؤيد اذا آلت الخلافة الى المعتز ، وحق المؤيد على المعتز ، واقتبس الآية الكريمة : (فمن بدله بعدما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم » .

وأشهد الله على ذلك ، وأشهد من حضر من المسلمين ، وختم الوصية بالعبارة التالية :

« وقد كتب هذا الكتاب أربع نسخ ، ووقعت شهادة الشهود بحضرة أمير المؤمنين فى كل نسخة منها ، فى خزانة أمير المؤمنين ، وعند محمد المنتصر بن أمير المؤمنين نسخة ، وعند أبى عبد الله المعتز بالله بن أمير المؤمنين نسخة ، ونسخة عند ابراهيم المؤيد بالله بن أمير المؤمنين » (١) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٩ ص ١٧٥ الى ص ١٨٠ بتصرف .

فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى

كانت هذه الفترة فترة صراعات وعدم استقرار ، وتصارع أبناء المتوكل الثلاثة الذين أوصى لهم أبوهم بولاية العهد ، وشغل الخلفاء بالصراعات ، وبعضهم كالمعتمد كان مشغولا باللهو ، وقل دخول العلماء على الخلفاء وتوصيتهم كما كان يحدث فى صدر الدولة العباسية •

ومن أبرز الوصايا فى تلك الفترة وصية الموفق لأحد رجاله وقد ولاه الصلاة والحرب والأحداث ، وتقع الوصية فى ست صفحات ، وتجمع بين الوصايا السياسية والاجتماعية والدينية ، وكتب الوصية ابن ثوابة ، ومما يتعلق بالسياسة قوله :

« وأمره أن يحسن الولاية لأهل عمله ، والسياسة لمن استرعى أمره ، ويكثر الجلوس لهم والنظر فى أمورهم ، ويفيض العدل والنصفة فيهم ويكف العدو والظالم عنهم ، ويسوى الحق بين كافتهم ، وأن يشرف على أهل الدعارة والفساد فى عمله ويقمعهم ويردعهم فيشرد بهم ريعاقب من استحق العقوبة منهم بقدر جرمه •

وأمره أن يتفقد طرف عمله ومسالحه بالضبط لئلا وبذرقة السابلة المختلفة فيها ، ويرتب فيها الثقات من أصحابه وأهل الجلد من جنده وأعوانه » (١) •

ومن وصايا هذه الفترة وصية عبد الله بن طاهر قبل وفاته باستخلافه أخاه عبيد الله من بعده ، وهذه نسخة الوصية :

« أما بعد ، فإن الله عز وجل جعل الموت حتما مقضيا جاريا على الباقيين من خلقه ، حسبما جرى على الماضين ، وحقيق على من أعطى حظا

(١) اختيار المنثور والمنثور ج ١٣/٣٤٦ بتصرف والمسالح جمع مسلحة وهى

الثغر - والبذرقة الخفارة • فارسية معربة •

من توفيق الله أن يكون على استعداد لحلول ما لا بد منه ولا محيص عنه في كل الأحوال .

وكتابتى هذا وأنا فى علة قد اشتد الاشفاق منها ، وكان الاياس يغلب على الرجاء فيها ، فان يبيل ويدفع فبقدرته وكريم عادته ، وأن يحدث لى الحدث الذى هو سبيل الأولين والآخرين فقد استخلفت عبيد الله بن عبد الله مولى أمير المؤمنين ، أخى الموثوق باقتفائه أثرى وأخذه بسد ما أنا بسبيله من سلطان أمير المؤمنين الى أن يأتية من أمره ما يعمل بحسبه ، فاعلم ذلك واثمتم فيما تتولاه بما يرد به كتب عبيد الله وأمره ان شاء الله .

وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذى القعدة سنة ثلاث وخمسين ومائتين (١) .

وكان من حق الولاة أن يستخلفوا خلفاء فى حياتهم ، ونرى هذه الوصية معلقة بموافقة أمير المؤمنين وقرار عبيد الله اثباتا لحسن نواياه فى طاعة الخليفة .

ولم تعدم هذه الفترة وصايا تدعو الرؤساء الى توخى العدل وتفضيل المصلحة العامة ، وليس من الضرورى أن يكون الموصى من رجال الدين ، فقد يكون من ذوى الخبرة .

ومن هذه الوصايا وصية تدعو الى الدقة فى اختيار الولاة ، وجاءت على لسان أبى الحسن على بن محمد بن الفرات يوصى الوزير العباس بن الحسن ، وكان ابن الفرات يتولى ديوان الخليفة المكتفى ، وقال يوصى الوزير العباس بن الحسن :

« فليثق الله الوزير ولا ينصب الا من قد عرفه واطلع على جميع أحواله ، ولا ينصب بخيلا فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ، ولا طماعا فيشره فى أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم ، ولا قليل الدين

فلا يخاف العقوبة والأثم ويرجو الثواب فيما يفعله ، ولا يول من عرف
نعمة هذا أو بستان هذا أو ضيعة هذا أو فرش هذا ، ومن قد لقي الناس
ولقوه وعاملهم وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه
دخلهم وخرجهم » (١) .

ومن وصايا الوزراء وصية أبى على البصير الى عبيد الله بن يحيى
ابن خاقان ، وفيها يوصى صاحبه بالايعميه حبه لأمر المؤمنين عن النظر للرعية
والألا يشغله عما هو عليه ، ويرسم فى هذه الوصية كثيرا من المناهج
الواجب على الحاكم اتباعها ، وجاء فى هذه الوصية :

« لا يخرجك فرط النصيح لأمر المؤمنين عن النظر لرعيته ، ولا ايثار
حقه عن الأخذ بحققها عنده ، ولا القيام بما هو له عن تضمن ما هو عليه ،
ولا يشغلك معاناة كبار الأمور عن تفقد صغارها ، ولا الجد فى اصلاح
ما يصلح منها عن النظر فى عواقبها ، تمضى ما كان الرشد فى امضائه ،
وترجىء ما كان الحزم فى ارجائه ، وتبذل ما كان الفضل فى بذله ، وتمنع
ما كانت المصلحة فى منعه ، وتلين فى غير تكبر ، وتخص فى غير ميل ،
وتعم فى غير تصنع ، لا يشقى بك المحق وان كان عدوا ، ولا يسعد بك
المبطل وان كان وليا » (٢) .

(١) الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ٩ .. ابن الاثير . دار صادر بيروت .

(٢) زهر الاداب ج ١ ص ٣٤١ .

فى القرن الرابع الهجرى

فى القرن الرابع تسلط الحكام وكثر الظلم والمصادرات وخلع الوزراء والزج بهم فى السجون ، ولذلك نرى معظم الوصايا السياسية تدور حول مداراة السلطان أو تجنبه والبعد عنه أو الصبر على أذاه أو ما ماثل ذلك .

وفى هذا القرن ظهر كبار الكتاب وظفر هذا القرن بما لم يظفر به قرن آخر من أمثال ابن العميد وأبى بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمدانى والصاحب بن عباد وقابوس بن وشكمير وأبى اسحاق الصابى ، وعظم نفوذ هؤلاء الكتاب واطمأن اليهم الخلفاء والرؤساء وصار الرؤساء يطلبون من الكتاب كتابة رسائل فى مختلف المناسبات ، وجاءت معظم هذه الرسائل مطولة تعالج المسائل السياسية فتواشى المنكوب أو تؤنبه أو تحت الثائر على العودة الى حظيرة الطاعة أو مداراة السلطان والصبر على أذاه .

ومكذا ظهرت سمات جديدة فى أدب الوصايا حيث صارت معظم هذه الوصايا تأتى ضمن رسائل مطولة صادرة من كبار الكتاب .

ومع ذلك فنحن لانعدم وصايا صادرة من أب لابنه أو من كبير مجرب لأتباعه ، ومن أبرز وصايا الآباء لأبنائهم فى تلك الفترة وصية أبى الهيجاء الحمدانى لابنه ناصر الدولة ، وقد حكى ناصر الدولة موقف أبيه والمناسبة التى وجه فيها هذه الوصية .

« حدث ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان قال : كان أبى أبو الهيجاء شديد الانحراف عنى لما يراه من الفضل فى وخوفه منى على أعماله ، فتولى طريق خراسان فجلس يعرض دوابه فبقى منها خمسين دابة ما بين زمن وأعجف ، ثم قال : يا حسن ، هذه الدواب مسلمة اليك فان قممت بها حتى تصح وتبرأ وتضمن علمت أنك تصلح لما هو فوقه ، فما مضى عليها الا شهر وأيام حتى صحت وسمنت ، فسر بذلك وقال : يا حسن ، هوذا ، أعلمك بدل قيامك بهذا الأمر شيئاً تنتفع به ، فقلت : قل يا سيدى .

قال : اذا رأيت السلطان قد رفع من أهلك رجلا ، أو الزمان قد نوه به
رأسه فإياك أن تحسده أو تشغل نفسك بعداوته ، فانك تتعب ولا تصل الى
فائدة ، وتسقط أنت ولا يضره هو ، وتغض من نفسك بغضك من رجل صار
كبيرا من أهلك واجهد أن تخدمه وتصافيه الود وتصير أحد أعوانه ، فان
كان لك منزلة من السلطان جاز أن تصل اليها باستخلافه إياك عليها وانتقاله
الى ما هو أكبر منها ، وكذلك ان كانت منزلته من غير سلطان فلا تقل :
أنا أقعد منه فى النسب وانى خير قرابته ، وهذا أمس كان وضيعا وكان دوننا ،
فان الناس بأوقاتهم » (١) .

ومن الوصايا العامة التى لم توجه الى شخص معين وصية أبى على
الصغانى ، يحذر فيها من التعامل مع الملوك أو الاطمئنان اليهم ، يقول :
« إياك والملوك فان من والاهم أخذوا ماله ، ومن عاداهم أخذوا رأسه » (٢) .

ومعظم الوصايا فى القرن الرابع تأتى ضمن رسائل مطولة كما قلنا ،
وتأتى هذه الرسائل راسمة الطريق الذى يجب أن يتبع فى معاملة الرؤساء ،
وقد تجمع بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لأمر المؤمنين ، وهكذا كانت
هذه الرسائل بدافع من الرؤساء أو بدافع من الصداقة والوفاء ، وأحيانا
بدافع الشماتة .

ومن الرسائل التى ترسم طريقة معاملة الرؤساء رسالة كتبها ابن
العميد أبو الفضل محمد بن الحسين ، وكان صديقا لأبى عبد الله الطبرى ،
فكتب ابن العميد اليه هذه الرسالة يوصيه بما يجب أن يتحلى به فى الحياة
الرسمية ، وبعد التمهيد يقول :

« واركب فى الخدمة طريقة تبعدك من الملل وتوسطك فى الحضور
بين الاكثار والاقلال ، ولا تسترسل الى حسن القبول كل الاسترسال ،
فلأن تدعى من بعيد خير من أن تقصى من قريب » .

(١) نشوار المحاضرة ج ٢ ص ١٤٥ - أبو على المحسن التنوخى . دار صادر

بيروت . بتصرف يسير .

(٢) المستطرف ج ١ ص ٢٠٤ - الابشيهى . دار الكتب العلمية بيروت .

وهو يدعو الى الاحتراس فى التقرب من الرؤساء ، ثم يوصيه بالاحتراس فى الكلام وتجنب الشفاعة ما أمكن ، وألا تفارقه طلاقة الوجه . اذا دفع عن حاجته . ومن قوله :

« وليكن كلامك جوابا تتحرر فيه من الخطل والاسهاب ، ولا يستفزك طرب الكلام على ما يفسد تمييزك ، والشفاعة لا تعرض لها فانها مخلة للجاه ، فان اضطرت اليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها وتحصل وزنها ، فان وجدت النفس بالاجابة سمحة والى الاسعاف هشة فأظهر ما فى نفسك غير محقق ، وليكن انطلاق وجهك اذا دفعت عن حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك » (١) .

وربما كتب الخليفة الرسالة بنفسه يوصى فيها أحد الولاة بلزوم الطاعة وكتب الخليفة القائم الى الاخشيدي حاكم مصر رسالة يوصيه بذلك ، وأظهر له من التودد ما يفوق المتوقع .

فقد كتب اليه : « قد خاطبتك - أعزك الله - فى كتابى المشتمل على هذه الرقعة بما لم يجر لى فى عقد الدين وما جرى به الرسم ، وضمنت رقعتى ما لم يطلع عليه أحد من كتابى وذوى المكانة عندى ، وأرجو أن تردك صحة عزيمة وحسن رأيك الى ما أدعوك اليه ، فقد شهد الله على ميلى اليك وايتارى لك ورغبتي فى مشاطرتك ما حوته يمينى واحتوى عليه ملكى .

وليس يتوجه لك العذر فى التخلف عن اجابتي لأنك قد استفرغت مجهودك فى مناصحة قوم لا يرون احسانك ولا يشكرون اخلاصك ، فان لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق فاننى أرى منك بالمودعة فى الأمر والطاعة ، وأنت حقيق بحسن مجازاتى على ما بذلته ، والله يريك حسن الاختيار فى جميع أمرك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » (٢) .

وكانوا يوصون بطاعة الخلفاء ، وغالبا ما يقرنونها بطاعة الله ليوعزوا

(١) زهر الآداب ج ٤ ص ١٠٦٤ - بتصريف .

(٢) المغرب فى حلى المغرب ج ٤ ص ٢٦ عبد الملك بن سعيد وآخرون . مطبعة .

بريل بتصريف يسير .

اليهم أن طاعة الخلفاء من طاعة الله ، ونرى ذلك فى الرسالة التى كتبها أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الى عضد الدولة ، وكان أبو القاسم رئيسا لديوان الرسائل وتولى الوزارة للخليفة الطائع لله ، وكتب هذه الرسالة عن الطائع لله ، وفيها يقول مخاطبا عضد الدولة : « واستدم النعمة عليك بالتقوى لله تعالى ، وبحسن الطاعة لأمر المؤمنين ، فانهما جنتك وعدتك ذريعتك المشفعتان عند الله تعالى فى أولاك وأخراك ، وأحسن كما أحسن الله اليك » (١) .

وقد يثور أحد الولاة فيكتب اليه الكاتب ناصحا اياه بالعودة الى حظيرة الطاعة ونبذ الخلاف والتمرد ، ويطنب الكاتب فى الموازنة بين نعيم الطاعة وجحيم المعصية ، وقد صارت الرسائل فى تلك الفترة معرضا لظهار براعة الكاتب ، ولم تعد تهدف الى تأدية الغرض وكفى ، ومن أبرز الرسائل السياسية التى تدعو الخارجين على الطاعة الى العودة الى حظيرتها رسالة أبى الفضل ابن العميد وزير آل بويه ، فقد كتب الى ابن بلكاونداد خورشيد عند استعصائه على ركن الدولة رسالة طويلة كما نص الثعالبي على ذلك ، وأورد الثعالبي مقتطفات منها تقع فى صفتين ، ومنها : « كيف وجدت مازلت عنه ؟ وكيف تجد ماصرت اليه ؟ ألم تكن من الأولى فى ظل ظليل ونسيم عليل وريح بليل ، وهواء عدى وماء روى ومهاد وطى ، وكن كنين ، ومكان مكين فى حصن حصين ، يقيك المتالف ويؤمنك المخاوف ، ويكنفك من نوائب الزمان ، ويحفظك من طوارق الحدثان ، عززت به بعد الذلة ، وكثرت بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد العسرة ، وأثريت بعد المقربة ، واتسعت بعد الضيقة ، وظفرت بالولايات ، وخفقت فوقك الرايات ٠٠٠ » .

ونرى الكاتب هنا يكرر المعنى الواحد فى جمل متعددة ، ويقلب المعانى على وجوها ، ويحاول أن يبرز المعنى الذى يهدف اليه عن طريق التضاد كالأمن بعد الخوف ، والعز بعد الذلة ، كما أنه يعنى بتجميل أسلوبه بالسجع والمحسنات البديعية ، وكانت هذه هى سمات أسلوب الرسائل فى تلك الفترة ، ولجأ الى الاستفهام التقريرى فى قوله : « ألم تكن من الأولى فى ظل ظليل ؟ » .

ثم يأتى باستفهامات للنفى ينفى فيها أن يكون الثائر قد كسب شيئا من ثورته ، أو وجد عوضا عما فقدته ، ويلبس أسلوبه السمات التى لمحناها فيما سبق ، ويقتبس من القرآن الكريم • فيقول : « فقيم الآن أنت من الأمر ؟ وما العوض عما عددت ؟ والخلف مما وصفت ؟ وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ؟ ونفضت منها كفك ؟ وغمست فى خلافا يدك ؟ وما الذى أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ • أظل ذو ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب ؟ • قل : نعم كذلك ، فهو والله أكثف ظلالك فى العاجلة ، وأروحها فى الآجلة ان أقمت على المحايدة والعنود ، ووقفت على المشاقة والجحود » •

ثم يأمره أن يتأمل واقعه ، ويفكر فيما ينتظره ، ويقارن ماضيه بحاضره • فيقول : تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابى فستنكرها ، والمس جسدك وانظر هل يحس ؟ واحسس عرقك هل ينبض ؟ ، وفتش ماحنا عليك هل تجد فى عرضها قلبك ، وهل حلى بصدرك أن تغفر بغوث سريع أو موت مريح ؟ • ثم قس غائب أمرك بشاهده ، وآخر شأنك بأوله • قال ابن بلكان : « والله ماكانت لى حال عند قراءة هذا الفصل الا كما أشار الأستاذ الرئيس » (١) •

وقد تحل النازلة بأحد رجال الدولة حين يغضب عليه الرئيس وينكبه ، فيكتب اليه الكاتب موصيا اياه مشفقا عليه أو شامتا به ، ونرى كلتا الحالتين عند أبى بكر الخوارزمى ، فقد كتب الى وزير خوارزمشاه لما نكب ، ونصحه مشفقا عليه ، فنصحه أن يلبس ثوب الصبر ولا يجزع لما تأتى به الأيام ، وأوصاه أن يدارى السلطان فيصغر اساءته ويكبر احسانه ، ويروض لسانه على شكره ، ومن قول أبى بكر الخوارزمى :

« فأما الآن وقد كان ماكان فانى أرى للشيخ أن يلبس للدهر ثوبا من الصبر ثخيناً ، ويولى حوادثه ركنا من التماسك ركيماً ، وأن تجده الأيام حراً ، وأن تصيبه الحوادث اذا ذاقته مرا ، وأن يدارى مع ذلك سلطانه ، ويصغر بلسانه اساءته ويكبر احسانه ، ويروض لسانه فى الخلوة على شكره لئلا يجمع به فى « الجلوة الى غيره » •

ثم يشبه الخوارزمي أيام المحنة تشبيهات بارعة تؤيد ما أوصى به صديقه
من الصبر والمدارة حيث يشبهها بالموج وبالجيش فيقول :

« فان أيام المحنة موج من تطأطأ له تخطاه ، ومن وقف على طريقه
أرداه ، ومن قابل أيام الادبار بوجهه صدمته ، ومن قاتل عساكر الاقبال في
أيام كرها هزمته » * ويختم الخوارزمي وصيته بأن طلب النصفة عند السلطان
عسير ، ومن حاسب على كل شيء لقي من العنت الكثير : « ومن طالب
السلطان بالنصفة طلب عسيرا ، ومن حاسب على قليل من العنت لقي
كثيرا » (١) *

وكتب أبو بكر الخوارزمي الى الحاجب أبي اسحاق لما نكبه الوزير
الصاحب بن عباد رسالة مطولة ، وكان أبو بكر مايزال على علاقة ودية
بالصاحب ، وتبدو في هذه الرسالة شماتة أبي بكر بالحاجب ونقمته عليه ،
وتفويض هذه الرسالة بالموصايا النابعة من هذا الموقف ، وكلها تنصح بمسايرة
الرؤساء وعدم التصدى للكبار ، والرضا بأحكام القدر * ومن قوله :

« امش مع الدهر كما يشي ، واجر مع الفلك كما يجرى ، وارفق بمن
رفقت الأيام به ، وارع لمن رعت السعادة له ، ولا تزاحم الفلك الدوار ،
ولا تناطح الأقسام والأقدار ، ولا تصغر الكبار ، ولا تتحكم على الدهر
فان الدهر حاكم لا يحكم عليه ، ومسلط لا يؤخذ على يديه ، وانزل حيث
أنزلك الاستحقاق ، وخذ ما سمحت به لك الأرزاق ، ولا تجلس على طريق
السيل الرابع ، ولا تطعن في نحر القضاء الغالب ، ولا تحارب جيش
السعد ، ولا تطاعن عن حد الجد ، ولا تستسلف أجلك ، ولا تتناول مالم
يوضع لك ، واحذر قوس الخذلان فانها نافذة الرمية صريعة الرمية » (٢) *

ويبدو في هذه الوصية تمجيد الصاحب ابن عباد كما نرى في قوله :
« رفقت به الأيام ، ورعت السعادة له ، الفلك الدوار ، والأقسام والأقدار ،

(١) كتاب رسائل الخوارزمي ص ٩٨ - مطبعة عبد الرحمن رشدي ط ١ *

(٢) المرجع نفسه ص ٧ *

جيش السعد وحد الجد « الخ ، أما قوله : « وانزل حيث أنزلك الاستحقاق » ،
فيدل على استحقاق الحاجب لما حل به من غضب الصاحب .

وقد ترد الوصية فى أسلوب غير أسلوب الوصايا المعهود ، فلا تأتى
فى صيغة أوامر أو نواه ، وإنما يفهم الأمر من المضمون ، ويتضح ذلك فى
حديث الصاحب ابن عباد حين حضره الموت فقال لفخر الدولة :

« قد خدمتك خدمة استفرغت فيها وسعى ، وسرت سيرة جلبت لك
حسن الذكر ، فإن أجريت الأمور على ماكانت عليه نسب ذلك الجميل اليك
وتركت أنا ، وإن عدلت عنه كنت أنا المشكور ونسبت الطريقة الثانية اليك » ،
وقدح ذلك فى دولتك « (١) .

وكان الصاحب ابن عباد وزيرا لفخر الدولة وخدم الدولة باخلاص ،
ويفهم من حديثه أنه يوصى فخر الدولة بأن يسير على النهج الذى اختطه
الصاحب .

الفصل الثانى

الوصايا الاجتماعية

شملت الوصايا مختلف الأحوال الاجتماعية ، فالأبناء يحرصون على تأديب أبنائهم ، وولاة الأمور يوصون شعوبهم بالتمسك بمبادئ توافق هوى أولئك الولاة ، وكان كثير من الخلفاء والوزراء يوصون أبناءهم بطلب العلم وحفظ الشعر والتمسك بالأدب ، وعلى رأس هؤلاء الخليفة المأمون والوزير يحيى البرمكى ، وأوصى أبو حنيفة ابراهيم ابن أدهم أحد الزهاد بالاهتمام بالعلم الى جانب العبادة .

وهناك وصايا علمية وأدبية تدور حول نصيحة الكتاب والشعراء بالتزام مبادئ توافق هوى العصر الذى قيلت فيه ، فوصايا تدور حول الإيجاز فى الكتابة ، ووصايا تدور حول الكتابة حين يصفو الذهن ، وهناك وصايا بلاغية بتجنب وحشى الكلام وعدم التكلف فى الأسلوب ، ونحو ذلك .

وأوصى بعض الخلفاء أبناءهم برعاية اخوتهم والتزام العدل ، وطرقت الوصايا كثيرا من النواحي الاجتماعية كأداب الحديث والاستماع وحقوق الصداقة ، وكان بعض الحكماء كابن المقفع يضعون الوصايا لكل من يتصل بالحكام راسمين لهم مراسم معاملة الخلفاء ، كما أن هؤلاء الحكماء أوصوا الخلفاء بطريقة مهذبة ، وكتب ابن المقفع كتابيه (الأدب الصغير ، والأدب الكبير) وشملا وصايا بعضها مترجم وبعضها من وضع ابن المقفع .

وفى العصر العباسى نشط المانوية والزنادقة وراحوا يبشرون أفكارهم الهدامة ، وتتبعهم الخلفاء العباسيون يقتلونهم ويرحون المجتمع من شرورهم ، فقتل الخليفة المنصور ابن المقفع ، وقتل المهدي أو الرشيد صالح ابن عبد القدوس ، وقتل المهدي بشار بن برد ، وقتل الهادي يعقوب بن الفضل من سلالة الحارث بن عبد المطلب ، وقتل الرشيد يزيد بن الفيض ويونس

«بن أبي فروة ، وأوصى الخليفة المهدي ابنه الهادي بتتبع الزنادقة ، كما سنرى
تقى حينه .

ويدخل فى الوصايا الاجتماعية ماكان يكتبه بعض الكبراء يوصون
برعاية تابع لهم ، أو قضاء حاجته ، وجاءت هذه الوصايا نموذجا للبلاغة
والجمال الفنى .

وقد أدرجت الوصايا الأدبية والبلاغية فى الوصايا الاجتماعية لأن
النهضة الأدبية والعلمية انما هى مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية .

فى صدر الدولة العباسية

كان العلويون يأملون فى الاستيلاء على الخلافة ، وكانوا يحرصون على تربية أبنائهم تربية تليق بالمستقبل الذى يعدونهم له ، ومن أبرز الوصايا التى تلقاها فى صدر الدولة العباسية وصية عبد الله بن جعفر بن أبى طالب لابنه محمد أو إبراهيم ، وكان أبو مسلم الخراسانى قد اعتقل عبد الله هذا ، وكتب عبد الله وصية الى أبى مسلم أوردناها فى حديثنا عن الوصايا السياسية .

وتراه هنا يوصى ابنه وصية من يحرص على اعداد ابنه لعظائم الأمور ، وتكشف الوصية عن عقل واع وأدب جم ، وتتلخص فى التمسك بالأب وطول التفكير قبل الكلام ، واختيار المستشار ، ومحاذرة الهوى والاستبداد بالرأى ، والنظر فى العواقب قبل الاقدام وفيها يقول :

« اى بنى ، انى مؤد حق الله فى تأديك فأد الى حق الله فى الاستماع منى ، اى بنى ، كف الأذى ، وارفض البذا ، واستعن على الكلام بطول الفكر فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك الى الكلام ، فان للقول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب ، واحذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر مشورة العاقل اذا كان غاشا ، لأنه يريدك بمشورته ، واعلم يا بنى ان رأيك اذا احتجت ياله وجدته نائما وجدت هواك يقظان ، فاياك أن تستبد برأيك فانه حينئذ هواك ، ولا تفعل فعلا الا وأنت على يقين أن عاقبته لا تردك ، وأن نتيجته لا تجنى عليك » (١) .

وبرز ابن المقفع فى صدر الدولة العباسية وكان عاقلا حكيما ، وله كثير من الوصايا العامة والخاصة ، فبعض وصاياه عامة موجهة الى كل سامع ، وبعضها موجه الى أشخاص محددين ، وفى مقدمتهم الخليفة المنصور ، وقد

عمل ابن المقفع فى الدواوين واقترب من الحكام وخبرهم وأدرك خطورة معاشرتهم ، وأوصى ابن المقفع كل من خدم السلطان أن يكون واسع الصدر حريصا فى تصرفاته ، ومن قوله :

« ينبغى لمن خدم السلطان ألا يغتر به إذا رضى ، ولا يتغير له إذا سخط ، ولا يستثقل ما حمله ، ولا يلحف فى مسأله » (١) .

وقال أيضا موصيا أصدقاء السلطان : « لا تكن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم ، فإن كنت حافظا إذا ولوك ، حذرا إذا قربوك ، أمينا إذا اتئمنوك ، ذليلا إذا صرموك ، راضيا إذا أسخطوك ، تعلمهم وكأنك تتعلم منهم ، وتؤدبهم وكأنك تتأدب بهم ، وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر ، والا فالبعد منهم كل البعد والحذر منهم كل الحذر » (٢) .

ويبدو أن ابن المقفع كان مولعا بالموصايا ، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على ثقته بالنفس ، وكان ابن المقفع حريصا على العلم كما هو معروف عنه ، ويبدو أنه كان أيضا حريصا على أن يطلب الناس العلم ، وقد كتب الى بعض اخوانه :

« أما بعد ، فتعلم العلم ممن هو أعلم به منك ، وعلمه من أنت أعلم به منه ، فانك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت » (٣) .

ومن أحفل الكتب بالموصايا كتابا (الأدب الصغير ، والأدب الكبير) وهما من وضع ابن المقفع ، وضعهما فى عهد الخليفة المنصور ، ويبدو من قراءة الكتابين أنه التقط كثيرا من هذه الوصايا مما يتردد فى المجتمع حوله . ومما أثر عن القدماء ، وصاغ هذه الوصايا بأسلوبه ، ولا نحسب إلا أنه متأثر فى بعض هذه الوصايا بالموصايا الفارسية .

(١) العقد الفريد ج ١ ص ١١ .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ١١ .

(٣) أمالى المرتضى ج ١ ص ٩٥ .

وينص ابن المقفع فى (الأدب الصغير) على أنه استفاد من كلام الناس المحفوظ فيقول : « قد وضعت فى هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفا فيها عون على عمارة القلوب وصقالها وتجلية أبصارها واحياء للتفكير واقامة للتدبير » (١) .

ويقول أيضا معظما شأن الأسلاف : « منتهى علم عالمنا فى هذا الزمان أن يأخذ من علمهم ، وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر فى كتبهم » (٢) .

وكثير من وصايا الأدب الكبير موجه الى من يتقلد أمور السلطان ، وفى احدى هذه الوصايا يوصى بالاهتمام بعظائم الأمور مع اعطاء الجسم حاجته من الراحة والدعة ، ويعيب على بعض الناس سيطرة الغضب عليهم حتى يؤدى الغضب بهم الى ايقاع الظلم برعاياهم ، وقد يميل بهم الرضا الى محاباة من لا حق لهم ، وفى ذاك يقول :

« لا تترك مباشرة جسيم أمرك فيعود شأنك صغيرا ، واعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ففرغه للمهم ، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك وأن دأبت فيهما ، وأن ليس الى أدائها سبيل مع حاجة جسدك الى نصيبه من الدعة ، فأحسن قسمتهما (الليل والنهار) بين دعتك وعملك ، واعلم أن من الناس ناسا كثيرا يبلغ من أحدهم الغضب اذا غضب أن يحمله ذلك على الكلوح والتقطيب فى غير من أغضبه ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له ، والعقوبة لمن لم يكن يهم بعقوبته ، ثم يبلغ به الرضا اذا رضى أن يتبرع بالأمر ذى الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطى من لم يكن يريد اعطائه ، فاحذر هذا الباب الحذر له » (٣) .

والأدب الصغير فيه وصايا خلقية واجتماعية لذوى السلطان

(١) رسائل البلغاء . الأدب الصغير ص ٣ عبد الله بن المقفع مطبعة الظاهر بالقاهرة .

(٢) الأدب الكبير ص ٦٢ مطبعة منبمنة الحديثة . بيروت .

(٣) الأدب الكبير ص ٧٣ بتصرف .

والأصدقاء ، وهذه الوصايا جمل متفرقة غير مترابطة ، أو نقول : انه لا معنى بربط هذه الجمل وإبرازها وحدة متكاملة • ومن قوله :

« على العاقل ألا يستصغر شيئا من الخطأ فى الرأى والزلل فى العلم والاغفال فى الأمور ، ان من استصغر الصغير أوشك أن يجمع اليه صغيرا وصغيرا فاذا الصغير كبير ، كلام اللبيب وان كان نذرا أدب عظيم ، ومقارفة المأثم وان كان محققا مصيبة جليلة ، لا يمنعك صغير شأن امرئ من احتباء مارأيت من رأيه صوابا ، واصطفاء مارأيت من أخلاقه كريما ، فان اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذى استخرجها ، حق على العاقل أن يتخذ مرأتين فينظر من احدهما فى مساوئ نفسه فيتصاغر بها ، ويصلح ما استطاع منها ، وينظر من الأخرى فى محاسن الناس فيحكىهم بها ويأخذ ما استطاع منها ، والرجل ذو المروءة قد يكرم على غير مال كالأسد الذى يهاب وان كان عقيرا ، والرجل الذى لا مروءة له يهان وان كثر ماله كالكلب الذى يهون على الناس وان طرق وخلخل » (١) •

ومن وصاياه المتعلقة بالصدقة والأصدقاء والتي وردت فى (الأدب الكبير) قوله :

« أنظر من صاحبت من الناس من ذى فضل عليك بسلطان أو منزلة أو من دون ذلك من الخلق والاكفاء والاخوان فوطن نفسك فى صحبتته على أن تقبل منه العفو وتسخو نفسك عما اعتاص عليك مما قبله غير معاتب ولا مستبطن ولا مستزيد فان المعاتبة مقطعة للود ، وان الاستزادة من الجشع » وان الرضا بالعفو والمسامحة فى الخلق مقرب لك كل ماتتوق اليه نفسك مع بقاء العرض والمودة والمروءة » (٢) •

ويقول : « تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، ومن حسن الاستماع امهال المتكلم حتى يقضى حديثه ، والاقبال بالوجه والنظر الى المتكلم

(١) الأدب الصغير ص ٥ وما بعدها بتصرف من رسائل البلغاء •

(٢) الأدب الكبير ص ١٣٤ •

والوعى لما يقول ، وإذا أشار عليك صاحبك برأى فلم تجد عاقبته على ماكنت تأمل فلا تجعل ذلك عليه لوما وعدلا ، وإن كنت أنت المشير فعمل برأيك أو تركه فبدا صوابك فلا تمنن به ، ولا تكثرن ذكره إن كان فيه نجاح ، ولا تلمه عليه إن كان استبان فى تركه ضررا «(١)» .

وأوصى ابن المقفع الخليفة المنصور بطريقة مهذبة فرسم له خطة للنظر فى الأقضية وضمان العدل فى الحكم ، فقال بعد أن تحدث عن اختلال بعض الأمور واختلاف الأقضية : « فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسنن المختلفة فترفع اليه فى كتاب ، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس ، ثم نظر فى ذلك أمير المؤمنين وأمضى فى كل قضية رأيه الذى يلهمه الله ، وينهى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتابا جامعا ، لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكما واحدا صوابا ، ورجونا أن يكون اجتماع السنن قرينة لاجتماع الأمر برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من امام آخر آخر الدهر إن شاء الله »(٢) .

وتعتبر هذه الوصية عن وجهة نظر ابن المقفع ، وإن كنا لا نؤيد تقييد العلماء بالقضاء برأى الخليفة المنصور ، ومن اللفظات الجميلة قول ابن المقفع : « فلو رأى أمير المؤمنين » .

وكانت الوصايا بالاهتمام بالعلم شائعة فى تلك الفترة فقد عمت البلاد نهضة علمية شاملة ، وأوصى الامام أبو حنيفة ابراهيم بن أدهم أحد الزاهدين بالحرص على طلب العلم وعدم الاقتصار على العبادة ، يقول أبو حنيفة : « قد رزقت من العبادة شيئا صالحا فليكن العلم من بالك ، فانه رأس العبادة . وقوام الدين »(٣) .

ومن أبرز الوصايا الاجتماعية فى تلك الفترة وصية الخليفة المنصور لابنه المهدي عند مسيره الى مكة ، وقد أوصاه بضمان دين عليه ، وأوصاه

(١) الأدب الكبير ص ١٤٠ بتصرف .

(٢) رسالة الصحابة ص ١٦٨ من رسائل الجاحظ مطبعة السنة المحمدية .

(٣) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٣٧ .

باخوته خيرا ، ورسم لابنه خطة توزيع الأموال التى تركها ، وختم وصيته لابنه بتقوى الله ، يقول المنصور لابنه :

« هذا كتاب وصيتى مختوما ، فاذا بلغك انى قد مت وصار الأمر اليك فانظر فيه ، وعلى دين فأحب أن تقضيه وتضمنه ، قال : هو على يا أمير المؤمنين ، قال : فانه ثلثمائة ألف درهم ونيف ، ولست أستحلها من بيت مال المسلمين ، فاضمنها عنى ، وما يفضى اليك من الأمر أعظم منها ، قال : أفعل هو على ، قال : وهذا القصر بنيته بمالى فأحب أن تصير نصيبك منه لآخوتك الأصاغر ، قال : نعم ، قال : ورقيقى الخاصة لك فاجعلهم لهم فانك تصير الى ما يغنيك عنهم ، وبهم الى ذلك أعظم الحاجة ، قال : أفعل ، قال : أما الضياع فلست أكلفك فيها هذا ولو فعلت كان أحب الى ، قال : أفعل ، قال : سلم اليهم ماسألتك من هذا وأنت معهم فى الضياع ، قال : والمتاع والثياب ، سلمه لهم ، قال : أفعل ، قال : أحسن الله عليك الخلافة ولك الصنع ، اتق الله فيما حولك وفيما خلفتك عليه » (١) .

وصورت احدى الوصايا صراعا بين النصارى والمسلمين ، ويبدو أن بعض النصارى استغلوا أمرا بتسلم بعض الضياع واستولوا على بعض أراضي المسلمين ، وورد فى ذلك :

« اجتمع الى شبيب بن شيبية جماعة من المسلمين والمنصور فى الحج ، فطلبوا الى شبيب مخاطبة المنصور فى أن يرفع عنهم المظالم ولا يمكن النصارى من ظلمهم فى ضياعهم ، لكونه أمرهم بأن يقبضوا ما وجدوه لبنى أمية ، فقال للمنصور :

« يا أمير المؤمنين ، انها وصية الله اليكم جاءت ، واليكم تؤدى ، ان دون أبوابك نيرانا تأجج من الظلم والجور لا يعمل فيها بكتاب الله ولا سنة نبيه ، يا أمير المؤمنين ، سلطت الذمة على المسلمين ، ظلموهم وعنفوهم ولن يقضوا عنك من الله شيئا يوم القيامة » (٢) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٦٠٤ .

(٢) أحكام أهل الذمة ج ١ ص ٢١٤ ابن قيم الجزيرة مطبعة جامعة دمشق

بتصرف .

ومن أشهر الوصايا الأدبية وصية بشر بن المعتمر ، وتعد من الوصايا التي وضعت أسس البلاغة العربية ، وقد أورها الجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين) وتناولها الأدباء من بعده ، ونص الجاحظ على أنها من تحبير بشر وتنسيقه ، وجاء فى هذه الصحيفة : « خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها اياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهرها وأشرف حسبا ، وأحسن فى الأسماع ، وأحلى فى الصدور ، وأسلم من فاحش الخطاء ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع ، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاوله والمجاهدة وبالتكلف والمعاعدة » .

وهنا يفتتح وصيته باختيار ساعة النشاط وفراغ البال ، ولهذا أثره المفيد فى الاجادة ، ثم يوصى الأديب بترك التوعر فانه يؤدى الى التعقيد ، ويعيب الألفاظ ، ويستهلك المعانى ، وأوصى بشر بضرورة الاهتمام بالمعنى واللفظ . ومن قوله :

« وإياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما فليلتبس له لفظا كريما ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف » .

ثم يبين أن أولى المنازل أن يجمع الأديب بين جمال اللفظ وقرب المعنى ، وهنا يلتفت الى مقتضى الحال ومراعاة السامعين ان كانوا من العامة أو من الخاصة فيقول : « فكن فى ثلاث منازل ، فان أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ، ويكون معنك ظاهرا مكشوفيا وقريبا معروفا ، اما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، واما عند العامة ان كنت للعامة أردت ، وانما مدار الشرف على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال ، فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك الى أن تفهم العامة معانى الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلتف عن الدهماء ولا تجفرو عن الأكفاء فأنت البليغ التام » .

ويوصى بشر بن المعتمر الأديب بتأجيل الكتابة اذا تعسرت عليه أو أحس بالملل وفى ذلك يقول : « فان ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ولم

تسمح لك الطباع فى أول وهلة فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك .
وسواد ليلتك ، وعأوده عند نشاطك وفراغ بالك فانك لا تعدم الاجابة والمواتاة .
ان كانت هناك طبيعة » .

وتدل الجملة الأخيرة على التفات بشر بن المعتمر الى أثر الموهبة
الأدبية ، وأنها أساس نجاح الأديب ، وينصح من حرم هذه الموهبة ، بالعدول
عن هذه الصناعة .

وأخيرا يؤكد بشر ضرورة تجنب الألفاظ العامية والساقطة ، كما يجب
تجنب الألفاظ الغريبة الوحشية فيقول : « وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا
وساقطا وسوقيا فكذا لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا » (١) .

وتعد وصية بشر بن المعتمر من أهم الوصايا البلاغية فى الأدب العربى ،
وقد وضعت أساسا سليما للبلاغيين الذين جاءوا من بعده وعلى رأسهم
عبد القاهر الجرجانى .

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٥ وما بعدها . مطبعة المدنى . بتصريف

فى عهد المهدي

وسار الخليفة المهدي سيرة أبيه المنصور فى تتبع الزنادقة والمناوية ، وقد أسلفنا أن المهدي قتل صالح بن عبد القدوس وبشار بن برد ، وعبد الكريم ابن أبى العوجاء وحماد عجرد ، وأوصى المهدي ابنه الهادي بتتبع هذه الفرق وقتل أفرادها ، وعمل الهادي بوصية أبيه ، ومن وصية المهدي لابنه موسى الهادي وقد قدم اليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب ف ضرب عنقه وأمر بصلبه :

« يابنى ، ان صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة فانها فرقة تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للأخرة ، ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تخرجها وتحوبا ، ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين : أحدهما النور ، والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات ، والاعتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنفذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور ، فارفع فيها الخشب ، وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها الى الله لا شريك له ، فانى رأيت جدك العباس فى المنام قلدى سيفين ، وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين » (١) .

وتكشف هذه الوصية عن جد الخلفاء العباسيين فى تتبع المناوية والزنادقة والقضاء عليهم ، كما تكشف لنا عن بعض مبادئ هؤلاء الفسقة وكيف يتحايلون لاستدراج الناس الى صفوفهم والتظاهر بالزهد فى الدنيا والعمل للأخرة ، ثم يكشفون لأتباعهم عن مبادئهم الحقيقية شيئا فشيئا ، أما حكاية المنام الذى رآه المهدي فلا نظن الا أنها من اختراعه لتحميم ابنه لقبول الوصية ، وربما أضافها الرواة لاقناع الناس بسوء هذه الطائفة الخارجة على الدين .

وكان الخليفة المهدي دمث الخلق واسع الصدر تنفس الناس فى عهده الصعداء بعد قسوة المنصور وشدته عليهم ، ووجد ابن خريم الجرأة ليدخل

على المهدي ويوصيه بالعفو والتسامح ، ويبين له أن طاعة الناس له عن محبة خير له من طاعتهم له عن خوف ، يقول ابن خريم للمهدي : « عليك بالعفو عن الذنب والتجاوز عن المسئء ، فلأن يطيعك العرب طاعة محبة خير لك من أن تطيعك طاعة خوف » (١) .

وبعض الوصايا الاجتماعية تنظم العلاقة بين الخليفة والمحكومين ، وتحدث عن طبقات المجتمع ونظام دخولهم على الخليفة وأوقات الزيارة ، وتحكم الناس فى منطقهم وتصدر هذه الوصايا من الخليفة كما تصدر من رجاله ، فالمهدي يوصى وزيره الفضل بن الربيع بتقديم أبناء الدعوة العباسية ، ثم الأولياء ، ويوصيه بأن يختار للعامة وقتاً ضيقاً لا يستطيعون معه طول المكث فى مجلس الخليفة .

يقول المهدي للفضل بن الربيع :

« انى قد وليتك ستر وجهى وكشفه ، فلا تجعل الستر بينى وبين خواصى سبباً لضغنهم بقيح ردك ، وعبوس وجهك ، وقدم أبناء الدعوة فانهم أولى بالتقديم ، وثن بالأولياء ، واجعل للعامة وقتاً اذا دخلوا أعجلهم ضيقه عن التلبث وصرفهم عن التمكن » (٢) .

ويوصى أبو عبيدة كاتب المهدي بالسكوت ويفضله على الكلام فيقول :
« كن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منه على التماسه بالكلام ، ان البلاء موكل بالمنطق » (٣) .

وواضح أن كاتب الخليفة يوصى بالسكوت فى مجالس الحكام طلباً للسلامة .

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ١٨٨ .

(٢) زهر الآداب ج ٢ ص ٥٥٠ .

(٣) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٧٢ .

فى عهد الرشيد

أتحفتنا كتب التراث بكثير من الوصايا الاجتماعية فى عهد الرشيد ، وكان عهد الرشيد عهد تفتح وازدهار للعلم والأدب ، وكان عهد أمن وطمأنينة ، وطرقت الوصايا الاجتماعية كل باب ، وكان الخلفاء يعهدون الى كبار العلماء والأدباء بتأديب أبنائهم ، وكانوا يحرصون على أن ينشأ أبنائهم على الخلق الحميد وعلى الامام بمعارف العصر ، وتقاليد المنصب الكبير الذى ينتظرهم .

وقد عهد الرشيد الى الأحمر النحوى بتأديب ابنه الأمين ، وأوصى الرشيد العالم الكبير وصية جامعة لكل مايجب أن يعلمه العالم المؤدب للخليفة المنتظر ، وقدم لهذه الوصية بمقدمة رائعة نابغة من أعماق نفسية الرشيد . فقال :

يا أحمر ، ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمره قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث يضعك أمير المؤمنين « وتدل هذه المقدمة الى جانب الصدق النفسى على أن الخلفاء كانوا يطلقون أيدي المؤدبين ، ويجعلون لهم السيطرة على أبناء الخلفاء حرصا على تنشئة أبنائهم تنشئة قوية .

ثم يوصى الرشيد مؤدب ابنه بأن يقرئه القرآن ويعلمه السير ويعرفه التاريخ ويرويه الأشعار ، كما يوصيه بتبصيره بأداب السلوك وانزال الناس منازلهم ، ولا ينسى الرشيد أن يلفت نظره الى عدم ارهاقه ويأمره بالشدة فى معاملته ان لم تجد الملاينة ، يقول الرشيد :

« اقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره مواقع الكلام وبدءه ، وامنعه الضحك الا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم اذا دخلوا اليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة الا وأنت تغتنم فيها فائدة تفيدها من غير أن تخرق به فتميت ذهنه ، ولا تمنع فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقومه

ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان أباهما فعليك بالشدّة والغلظة » (١) .

وكان يحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد رجلا حكيما حريصا على العلم وعلى تنشئة أولاده على حب العلم والأخذ من كل فن بطرف ، وكثرت وصاياه لأبنائه ، ومن وصاياه لابنه : « عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدو ما جهل ، وأنا أكره أن تكون عدو شيء من العلم ، وأنشد :

تفَنّ وَخُذْ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ فَاَنْمِ
يَفُوقُ اَمْرُؤُ فِى كُلِّ فَنٍّ لَهُ عِلْمٌ
فَاَنْتَ عَدُوٌّ لِلَّذِى اَنْتَ جَاهِلٌ
بِهِ وَلَعَلَّ اَنْتَ تَتَقَنُّهُ سَلَمٌ (٢)

وكان أبناء يحيى بن خالد على شاكلة أبيهم يهتمون بالعلم ويدعون اليه ويشجعون العلماء ، وكان جعفر بن يحيى يرى أن الإيجاز مظهر البلاغة والقدرة ، وأوصى الأدباء بذلك فقال :

« ان استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا » (٣) .

ومن أطرف الوصايا فى مجال العلم وصية كتبها محمد بن الليث الى جعفر بن يحيى البرمكى ، وتدور الوصية حول القلم وطريقة بريه ، وحول القرطاس والمداد والخط ، وفيها يقول : « أما بعد فليكن قلمك بحريا لا سميئا ولا رقيقا ، مابين الرقة والغلظ ، ضيق النقب ، فابره برياً مستويا كمنقار الحمامة ، اعطف قطته ، ورقق شفرتة ، وليكن مدادك صافيا خفيفا اذا استمددت منه ، فانقعه ليلة ، ثم صفه فى الدواة ، وليكن قرطاسك رقيقا مستويا النسج تخرج السحابة مستوية من أحد الطرفين الى الآخر ، فليست

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥١ - المسعودى - دار الاندلس .

والخرق والخرق ضد الرفق ، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور .

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٤١ - أبو الحسن على بن محمد الماوردى ، دار

اقرأ بيروت .

(٣) زهر الآداب ج ١ ص ١٩٩ - الحصرى . دار الجيل .

تستقيم السطور الا فيما كان كذلك « (١) .

وكان الحكماء يوصون بالتمسك بالأخلاق الكريمة ، وكان يحيى بن خالد رجلا سخيا وأوصى ولده بالسخاء فقال : « اذا أقبلت الدنيا فأنفقوا منها فانها لا تبقى ، واذا أدبرت فأنفقوا منها فانها لا تبقى » (٢) .

وكتب يحيى بن خالد الى ابنه الفضل وقد بلغه انشغال الفضل بالصيد والملاذات فكتب اليه يوصى بالتستر وأداء الواجب أولا . يقول : « حفظك الله يا بنى وأمتع بك ، فقد انتهى الى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر فى أمور الرعية ما أنكره ، فعاود ما هو أزين بك ، فانه من عاد الى ما يزينه أو يشينه لم يعرفه أهل دهره الا به .
والسلام .

وكتب فى أسفله هذه الأبيات :

انصب نهارا فى طلاب العلا	واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى اذا الليل أتى مقبلا	واستترت فيه وجوه الغيوب
فكابد الليل بما تشتهي	فانما الليل نهـار الأريب
كم من فتى تحسبه ناسكا	يستقبل الليل بأمر عجيب
أرخصى عليه الليل أسـتاره	فبات فى لهو وعيش خصب
ولـذة الأحـمق مكشوفة	يسعى بها كل عدو رقيب (٣)

ومن أشمل الوصايا وصية عبد الملك بن صالح لابنه ، وهى وصية جمعت بين الوصية بالأخلاق الحسنة ومعاملة الناس والأصدقاء وتقوى الله ، ونلاحظ أنها وصايا متتابعة لا يحاول الموصى الترتيب بينها ولا الربط بين نقاطها ، وقد بدأها بقوله :

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ١٩٥ - بتصرف .

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٠٤ .

(٣) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٨ - أحمد بن محمد خلكان - دار صادر بيروت .

« أى بنى ، احلم فان من حلم ساد ، ومن تفهم ازداد ، والى أهل الخير فان لقاءهم عمارة للقلوب ، ولا تجمع بك مطية اللجاج » .

ثم يوصيه بما يحفظ وقاره ، ويوصيه بحسن التدبير ، ويحذره من الاسراف ، ذلك أن ابنه شاب ربما يدفعه الجاه والثراء الى التبذير ، ولذلك يوصيه فيقول :

« المزاح يورث الضغائن ، وحسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الاسراف ، والاقتصاد يثمر القليل ، والاسراف يتبر الكثير » .

ثم يوصيه بالاعتدال فى الطلب ، وتقديم رضا الله على كل شئ ، ويجمع له بعض الوصايا المتعلقة بمعاملة الناس فيقول : « ارفق فى الطلب ، وأجمل فى المكسب ، والمغبون من غبن نصيبه من الله ، عاتب من رجوت عتابه ، وفاكه من أمنت بلواه ، وعود نفسك السماح فان الخير عادة ، ومن الفقه كتمان السر » .

ويوصى عبد الملك ابنه بالاقبال على العلم والاستفادة من تجارب الحياة ، والتحكم فى الشهوات فيقول : « ولقاح المعرفة دراسة العلم ، وطول التجارب زيادة فى العقل ، ومن شمر فى الأمور ركب البحور ، الاحجام عن الأمور يورث العجز ، والاقدام عليها يورث اجتلاب الحظ ، اتباع الشهوة يورث الندامة ، وفوت الفرصة يورث الحسرة ، لا تملك المرأة الشفاعة لغيرها ، فيميل من شفعت له عليك معها » (١) .

ويلفت النظر هذه اللفتة الأخيرة بعدم السماح للمرأة بالشفاعة لغيرها ، وهى لفتة نابعة من الحرص على صيانة العرض .

وكثرت الوصايا المتعلقة بمعاملة الملوك ، وجاءت هذه الوصايا من رجال خالطوا الملوك وعرفوا طباعهم ، ورسم يحيى بن خالد طريقة مخاطبة الملوك وسؤالهم فقال :

« مساءلة الملوك عن حالها من تحية النوكى ، فاذا أردت أن تقول :
كيف أصبح الأمير ؟ فقل : صبح الله الأمير بالنعمة والكرامة ، وإن كان عليلا
فأردت أن تسأله عن حاله فقل : أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة » (١) .

ورسم يحيى بن خالد طريقة معاملة الملوك شعرا فقال :

ان الملوك لا يخطبوننا ولا اذا ملوا يعاتبونا
وفى المقال لا ينازعونا وفى العطاس لا يشتمونا
وفى الخطاب لا يكيّفونا يثنى عليهم ويبجلونا
وافهم وصاتى لا تكن مجنوننا (٢)

ومن ألوان الوصايا الاجتماعية ما يكتبه كبار الرجال موصين بأشخاص
لهم حاجات يأملون قضاءها ، ومن ذلك ما كتبه يوسف بن القاسم عن الفضل
ابن يحيى البرمكى فى حاجة لرجل : « فلان قد استغنى باصطناعك اياه عن
تحريكى لك بأمره ، لأن الصنيعة حرمة المصطنع ووسيلته الى مصطنعيه
سيما عذد من يحسن الصنيعة ويستتمها مستثبنا للشكر عليها والثناء الجميل
بها ، بسط الله بالخير يديك ، ووصل به أسبابك ، وأعانك عليه ، وجعلك من
أهله » (٣) .

ولم يصرح الموصى هنا بالطلب ولم يعين الحاجة

(١) العتد الفريد ج ٢ ص ٤٦٠ .

(٢) معجم الأدباء ج ٢٠ ص ٦ - ياقوت الحموى . مطابع دار المأمون .

(٣) كتاب الأوراق ج ١ ص ١٥٨ - أبو بكر محمد يحيى الصولى .

مطبعة الصاوى .

فى عهد المأمون

كان الخليفة المأمون رجل جد ورجل علم ، وكان فصيحاً ثاقب النظر ، وأوصى فأكثر من الوصايا ، وجاءت وصاياه كاشفة عن راحة العقل وعمق النظرة ، وأوصى المأمون ابنه العباس وهو أكبر أبنائه ، ودارت الوصية حول الصفات التى يجب أن يتحلى بها الحاكم « (١) » .

وأوصى بعض ولده بعدم الانصات الى السعاة ، وهى وصية تناسب من يعده لولاية الأمور ، يقول المأمون : « اياك أن تصغى لاستماع قول السعاة ، فانه ماسعى رجل برجل الا انحط من قدره عندى مالا يتلافاه أبدا » (٢) .

وأوصى المأمون أولاده بالاهتمام بعامة الناس ، وذكرهم بأن الكبير انما كبر بصغار عظموه ، وأن الرعايا الأحرار خير من المستكرهين ، وأوصاهم بأن يستفيدوا بخبرات الناس وتجاربهم ، وتكشف هذه الوصية عن أخلاق المأمون السامية واحترامه للرعية ، وقدرته على سياسة الشعب الحر الراعى ، يقول المأمون لأولاده :

« يابنى ، ليعلم الكبير مكنم أنه انما عظم قدره بصغار عظموه ، وقويت حجته بضعاف أطاعوه ، وشرفت همته بعوام اتضعوا له ، فلا يدعونه تفخيم المفخم منهم اياه الى تصغيره ، وتعزيز أمره الى تذليله ، ولا يستأثرن بفائدة وارتفاق ، وقد قيل : « من ملك أحرارا كان أشرف ممن ملك عبيدا مستكرهين ، يابنى ، ارجعوا فيما أثبتين عليكم من التدبير الى آراء الحزمة المجربين ، فانهم مرايا لكم يرونكم مالا ترون ، قد صحبوا لكم الدهر وكفوكم التجارب » (٣) .

(١) كتاب بغداد ج ٦ ص ٥٢ - ابن طيفور - مكتب نشر الثقافة الاسلامية .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٦١ .

(٣) خلاصة الذهب المسبوك ص ١٩١ .. عبدالرحمن الاربلئى . مكتبة المثنى ببغداد .

وكان المأمون يكثر من الوصية بالاستشارة ويوصى بتقبل مايكشفونه من عيوب ، ومن قوله : « استشيروا ذوى الرأى والتجربة والحيلة ، فانهم أعلم بمصارف الأمور وتقلبات الدهور ، وأطيعوهم وتحملوا ما يغلطون من قول أى يكشفون من عيب ، لما ترجونه من حالة تصلح ، وفتق يرتق ، فان من جرعكم المرارة لشفائكم أشفق ممن أطعمكم الحلاوة لأسقاكم » (١) .

وكان المأمون فصيحاً يحب الفصاحة ويحث عليها ، وقد سمع أحد أبناءه يلحن ، فأوصى أبناءه بتعلم العربية ، وبين لهم أثر ذلك ، وقد جاء فى زهر الآداب :

« قال المأمون لبعض ولده وقد سمع منه لحناً : ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده ، ويزين بها مشهده ، ويقل حجج خصمه بمسكتات حكمه ، ويملك مجلس سلطانه بظاهر بيانه ، ليس لأحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأأتمه فلا يزال الدهر أسير كلمته » (٢) .

وكان المأمون يستمع الى وزرائه ، وقد أوصاه وزيره الحسن بن سهل فقال :

« هب لوعدك مذكراً من نفسك ، وهنىء سائلك حلاوة نعمتك ، واجعل ميلك الى ذلك فى الكرم حثاً على اصطفاء شكر الطالبين ، تشهد لك القلوب بحقائق الكرم ، والألسن بنهاية الجود » (٣) .

وكان الوزراء والكتاب ورجال الدولة يوصون فى مختلف المناسبات ، وكانوا يوصون بالمتزام الآداب المرعية فى كل مجال ، ومن ذلك وصية أحمد بن أبى داؤد لابراهيم بن المهدي عم الخليفة المأمون بالمتزام آداب المناظرة حين أغلظ ابراهيم القول لبختيشوع الطبيب ، يقول صاحب العقد الفريد :

« تنازع ابراهيم بن المهدي وبختيشوع الطبيب بين يدى أحمد بن أبى داؤد

(١) تحفة الوزراء ص ٨٧ عبد الملك بن منصور الثعالبي . مطبعة العاني بغداد .

(٢) زهر الآداب ج ٣ ص ٧٧٥ .

(٣) المحاسن والمساوى ص ٧ الجاحظ مطبعة الفتوح الادبية ط ١ .

القاضي فى مجلس للحكم ، فزرى عليه ابن المهدي وأغلظ له بين يدي أحمد ابن أبى داؤد ، فأحفظه ذلك ، فقال : يا ابراهيم ، اذا نازعت أحدا فى مجلس الحكم فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتا ، ولا أشرت اليه بيد ، وليكن قصدك أمما وطريقك نهجا وريحك ساكنة ، ووف مجالس الحكومة حقوقها من التوقيير والتعظيم والتوجه الى الواجب ، فان ذلك أشبه بك وأشكل لمذهبك فى محتدك وعظم خطرك ، ولا تعجل ، فرب عجلة تهب ريثا ، والله يعصمك من الزلل وخطر القول والعمل» (١) .

وأوصى طاهر بن الحسين ولده عبد الله حين ولاه ديار ربيعة ، وجاءت هذه الوصية شاملة لكثير من النواحي السياسية والاجتماعية والدينية ، وقد عرضنا هذه الوصية فى حديثنا عن الوصايا السياسية .

وكان طاهر بن الحسين ثاقب النظر ، ومن وصاياه للحكام : « لا تستعن بأحد فى خاص عملك الا من ترى أن نعمتك نعمته تزول عنه بزوالها عنك ، وتدوم عنده بدوامها لك » (٢) .

وبرزت ظاهرة الزهد فى العصر العباسى ، وكانوا بين زاهد صادق نى زهده ، وآخر يرائى الناس ويتخذ الزهد وسيلة لجمع المال متسترا تحت زهده ، وأوصى عبد الله بن المبارك باتباع الزاهد اذا تبئب الناس ، وبتجنبيه اذا اتبع الناس ، يقول : « اذا هرب الزاهد من الناس فاطلبه ، واذا طلبهم فاهرب عنه » (٣) .

ومن أطرف الوصايا وصية أحد الحكماء بالعشيق ، فقد أورد صاحب (زهر الآداب) قوله : « قال اليمانى بن عمرو مولى ذى الرياستين : كان ذو الرياستين يبعث بى وبأحداث من أهله الى شيخ بخراسان ، ويقول : تعلموا منه الحكمة ، فسرنا الى الشيخ يوما فقال لنا : اعشقوا ، فان العشوق

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٨٥ .

(٢) كتاب بغداد ج ٦ ص ٧٠ - أحمد بن طيغور .

(٣) زهر الآداب ج ٣ ص ٨٦٦ .

يطلق الغبى ويفتح جبلة البليد ، ويسخى كف البخيل ، ويبعث على النظافة وحسن الهيئة ، ويدعو الى الحركة والذكاء وشرف الهمة ، واياكم والحرام» (١) .

ومن ألوان الوصايا ما كان يكتبه أحد الكبراء توصية لصاحب مصلحة ، وقد حفظت لنا كتب التراث كثيراً من هذه الوصايا ، وغلب على هذه الوصايا الايجاز البليغ حتى قال صاحب العقد الفريد : « كتب العتابي فكاد أن يخل بالمعنى من شدة الاختصار ، فكتب : حامل كتابى اليك أنا ، فكن له أنا ، والسلام » (٢) .

وشبيه بهذه الوصاة ماكتبه الحسن بن سهل وزير المأمون ، ونحسب أن أحد الكاتبيين اقتبس من الآخر ، فقد كتب الحسن بن سهل : « موصل كتابى اليك أنا فكن له أنا ، وتأمله بعين مشاهدتى وخلتى ، فلسانه أشكر ما أتيت اليه ، وأذم ما قصرت فيه » (٣) .

-
- (١) زهر الآداب ج ٤ ص ١٠٢١ .
(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٦٣ .
(٣) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

بعد عصر المأمون الى منتصف القرن الثالث

برزت وصية أبى تمام للبحترى ، وكان أبو تمام يكبر البحترى ، وكان لأبى تمام تجاربه وخبراته ، فأوصى البحترى وصية مخلصه ، وبدأ الوصية بضرورة اختيار الوقت الذى يحس فيه الشاعر بصفاء النفس وذهاب الهم ، وخير الأوقات وقت السحر ، يقول أبو تمام :

« يا أبا عبادة ، تخير الاوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغوم ، واعلم أن العادة جرت فى الأوقات أن يقصد الانسان لتأليف شئ أو حفظه فى وقت السحر وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم » .

وأوصاه أن يبدى فى كل غرض ما يناسبه ، وفى الغزل يتعمد اللفظ الرشيق والمعنى الرقيق ، وفى المديح يظهر أيادى الممدوح ومناقبه .
ومن قوله :

« وان أردت التشبيب فاجعل اللفظ رشيقا ، والمعنى دقيقا ، وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الأشواق ولوعة الفراق ، فاذا أخذت فى مديح سيد ذى أياد فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وابن معاملة وشرف مقامه ، ونضد المعانى واحذر المجهول منها » .

ثم أوصاه بتجنب الألفاظ الرديئة ، واختيار الألفاظ الملائمة لكل موقف فقال :

« وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة ، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد » .

ويختم وصيته بقوله : « وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من

شعر الماضين ، فما استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ترشد
ان شاء الله » (١) .

ونتوقف هنا عند الوصية بأن يقيس شعره بما سلف من شعر الماضين،
وهذا مقياس غير ملائم ، فلكل عصر مقياسه الأدبية ، وما يلائم الجاهليين
قد لا يلائم العباسيين .

وكان الجاحظ أحد الأدباء الذين أصدروا وصايا اجتماعية ، ومن
وصاياهم العامة التي لم يخص بها شخص معيناً وصية حث فيها الموصى
على اختيار عذب الكلام واختيار صائب المعاني ومراعاة مقتضى الحال ،
فلا يكلم الخاصة بكلام العامة ولا يكلم العامة بكلام الخاصة . يقول الجاحظ:

« ينبغي للكاتب أن يكون رقيق حواشي الكلام ، عذب ينابيع اللسان ،
إذا جاوز سدد سهم الصواب الى غرض المعنى ، لا يكلم الخاصة بكلام
العامة ، ولا يكلم العامة بكلام الخاصة » (٢) .

وللجاحظ وصايا تلمس مختلف جوانب الحياة ، وقد عاش ما يقرب
من مائة عام ، وعاصر كثيراً من الخلفاء ، وأدرك أن السكوت خير ضمان
للسلامة ، وأوصى بذلك فقال : « أما بعد ، فليكن السكوت على لسانك ان
كانت العافية من شأنك » (٣) .

وله كثير من الوصايا الاخوانية ، ومن ذلك وصية بالحرص على
الاخوان ، وعدم الزهد في التقرب اليهم ، يقول : « لا تزهدن فيمن رغب
اليك فتكون لحظك معانداً وللنعمة جاحداً » (٤) .

وأوصى بسخاء اليد ومجاملة الاخوان فقال : « ان أحببت أن تتم

(١) زهر الآداب ج ١ ص ١٥٢ - بتصرف

(٢) زهر الآداب ج ١ ص ١٥٩ .

(٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٤٢ .

(٤) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٤٢ .

لك المتعة فى قلوب اخوانك فاستقل كثيرا مما توليهم» (١) .

وللجاحظ وصية مشحونة بالكلمات الغامضة ، وقد أورد الوصية ثم
فسر كلماتها ، ويبدو أنه كان يهدف الى اظهار قدرته اللغوية ومعرفته
بغريب الألفاظ . يقول :

« لا ينبغي للفتى أن يكون مكحلا ولا مقببا ولا شكامدا ولا حرامدا
ولا نقامدا .

أما المكحل فالذى يتعرق العظم حتى يدعه كأنه مكحلة عاج ، والمقرب
الذى يركب اللحم بين يديه حتى يجعله كأنه قبة ، والمكوكب الذى يبصق فى
الطست ويتنخم فيها حتى يصير بصاقه كأنه الكواكب فى الطست ، والحرامد
الذى يأتى فى وقت الغداء والعشاء فيقول : ما تأكلون ؟ . فيقولون من
بغضه : سما ، فيدخل يده ويقول : فى حرام العيش بعدكم ، والشكامد الذى
يتبع اللقمة بأخرى قبل أن يسبغها فيختنق كأنه ديك قد ابتلع فأرة والنقامد
الذى يضع الطعام بين يديه ويأكل من بين يدي غيره » (٢) .

وكان يوحنا بن ماسويه طبيا وتحدث عن الأطعمة والأشربة ، ومن
وصاياه فى هذا المجال : « عليك من الطعام بما حدث ، ومن الشراب
بما قدم » (٣) .

ويعنى بالشراب هنا الخمرة .

ومن الوصايا ما يكتبه الكبراء توصية بأحد أتباعهم ، وتمتاز هذه
الوصايا بالايجاز فى معظم الأحيان ، وبالاقتنان فى المعانى والعناية
بالموسيقى اللفظية ، ومن أكثروا من هذه الوصايا عمرو بن بحر الجاحظ .
ومن وصاياه :

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٤٣ .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٥٨ .

(٣) زهر الاداب ج ٤ ص ٩٣٢ .

« أما بعد ، فان أحق من أسعفته فى حاجته ، وأجبتة الى طلبه ، من توسل اليك بالأمل ، ونزع نحوك بالرجاء » (١) .

ومن الوصايا بالأشخاص وصية كتبها الحسن بن وهب الى مالك بن طوق موصيا بابن أبى الشيص ، وسلك الكاتب طرقا عديدة لضمان اهتمام الموصى بابن أبى الشيص ، فبين أنه كتب الوصية بيده ، وأنه لن يقبل العذر عنها ، ولن يقصر فى الشكر عليها ، كما أشاد بالموصى به ، ويبدو أنها كانت وصية بعتاء يوهب ، اذ يعتذر الكاتب بضيق ذات اليد عن أن يبر من أوصى به ، يقول الحسن بن وهب :

« كتابى اليك خططه بيمينى ، وفرغت له ذهنى ، فما ظنك بحاجة هذا موقعها منى ، أترانى أقبل العذر منها ؟ أو أقصر فى الشكر عليها ؟ وابن أبى الشيص قد عرفته وعرفت نسبه وصفاته ، ولو كانت أيدينا تنبسط ببره ماعدانا الى غيرنا ، فاكثف بهذا منا » (٢) .

وصايا البخل

كتب الجاحظ كتاب البخل ، وحوى هذا الكتاب كثيرا من وصايا البخل ، ولا تمثل هذه الوصايا مبادئ خلقية سليمة ، ولا تعبر عن مبادئ عربية أصيلة ، وانما هى أحاديث جرت على لسان البخل ولا نشك فى أن بعضها واقعى وبعضها مخترع ، وأن الجاحظ قصد الى ادخال المتعة والتسلية على نفوس القارئ ، وهناك دافع آخر هو الرد على الشعوبيين الذين عابوا العرب وحطوا من شأنهم ، فرد عليهم بذكر صور من بخلهم ليبين فضل العرب بسخائهم ، وقد أورد الجاحظ نماذج من بخل شخصيات عربية ولكن غالبة الحكايات كانت عن الفرس ، وجاءت الوصايا بالبخل على لسان شخصيات فارسية .

وتحفل هذه الوصايا بكثير من النصائح الطريفة والحجج المنطقية

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٤٣ .

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٢٧ .

والاثارة العاطفية ، وتحفل أيضا بالمغالطات للوصول الى الهدف الذى ينشده البخيل ، وفى احدى هذه الرصايا يوصى البخيل عياله وأصحابه بالصبر عن الفاكهة عند ابتدائها كبها للنفس ويقول :

« أصبروا عن الرطب عند ابتدائه وأوائله ، وعن باكورات الفاكهة ، فان للنفس عند كل طارف نزوة ، وللقادم حلاوة وفرحة ، فانك متى رددتها ارتدت ، ومتى ردعتها ارتدعت ، فاذا أثر ذلك فيها فعظها فى تلك الباكورة بالغلاء والقلة ، فان ذكر الغلاء والقلة حجة صحيحة وعلة عاملة فى الطبيعة ، فاذا أجابتك فى الباكورة فسمها مثل ذلك فى أوائل كثرتها ، واضرب نقصان الشهوة ونقصان قوة الغلبة بمقدار ما حدث لها من الرخص والكثرة ، ومتى لم تعد الشهوة فتنة ، والهوى عدوا اغتررت بهما وضعفت عنهما واتممتنهما على نفسك ، وهما أحضر عدو وشر دخيل » (١) .

ويبدو هنا التحايل على النفس حتى تتعود الصبر عما تريد ، ويستعمل الألفاظ المنفرة مثل شهوة وعدو وهوى .

وفى وصية أخرى يوصى البخيل عياله بأكل نوى التمر وتعود ابتلاعه ، ويطنب فى بيان فوائد ذلك فيقول : « لا تلقوا نوى التمر والرطب ، وتعودوا ابتلاعه وخذوا حلوقكم بتسويغه ، فان النوى تعقد الشحم فى البطن وتدفع الكليتين بذلك الشحم ، والله لو حملتم أنفسكم على البزر والنوى ، وعلى قضم الشعير واعتلاف القت لوجدتموها سريعة القبول » .

ثم يوصى ابنه بالأثرة أى حب النفس ، ويشبه الأكل بالأفعاى والبراذين والنعاج والجمال بقصد التقبيح والتنفير ، ويستدل بالأثر وبالمشعر فيقول :

« أى بنى ، عود نفسك الأثرة ومجاهدة الهوى والشهوة ، ولا تنهش نهش الأفعاى ، ولا تخضم خضم البراذين ، ولا تدم الأكل ادامة النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال ، قال أبو ذر : ان الله قد فضلك فجعلك انسانا ، فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعا ، وقال الأعشى :

(١) كتاب البخلاء ص ٩٨ ، ٩٩ - الجاحظ - المطبعة الخيرية ط ١ . بتصرف .

والبطنة يوما تسفّه الأحلاما ، •

ثم يحذر من الأكل ، ويتدرج فى الاسباب والمسببات حتى يجعل الأكل قاتل نفسه ، ويؤكد أن الأكل الكثير يؤدى الى القبر ، ويذكر فوائد الصوم وأنه يطيل العمر ، ويستشهد بالهنود والأعراب فيقول :

« واعلم ان الشبع داعية البشم ، وأن البشم داعية السقم ، وأن السقم داعية الموت ، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة ، وهو قاتل نفسه ، وقاتل نفسه ألوم من قاتل غيره ، وقد قال الله جل ذكره : (ولا تقتلوا أنفسكم) • وسواء قتلنا أنفسنا أو قتل بعضنا بعضا كان ذلك للآية تأويلا ، أى بنى ، ان القاتل والمقتول فى النار ، ولو سألت حذاق الأطباء لأخبرك أن عامة أهل القبور انما أتوا بالتخم يابنى ، والله ما أدى حق الركوع ولا وظيفة السجود ذو كظة ، ولا خشع لله ذو بطنة ، والصوم مصححة ، لأمر ما طالعت أعمار الهند ، وصحت أبدان الأعراب ، وكيف لا ترغب فى تدبير يجمع لك صحة البدن وزكاء الذهن وصلاح المعاش وكثرة المال ؟ • فان كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة ، وان كنت تحب الموت فلا يبعد الله الا من ظلم » •

(١) كتاب البخلاء ص ١١١ - بتصرف •

والقت • نبات يابس ، والخضم الأكل باقصى الأضراس أو ملء الفم •

فى النصف الثانى من القرن الثالث

من أبرز الوصايا الجامعة فى تلك الفترة وصية الموفق لأحد رجالاته وقد ولاه الصلاة والحرب والأحداث ، ثم أوصاه وصية تجمع بين السياسة والاجتماع والدين وكاتب الوصية ابن ثوابة ، وتقع الوصية فى ست صفحات ، وتنبنى عن نظرة صائبة وسياسة عادلة وأخلاق كريمة ، ومن الملامح الاجتماعية وصيته بتجنب المحاباة ، والعطاء بغير حق ، وتجنب المكسب الحرام حيث يقول :

وأمره ألا يقسم على أهل عمله قسمة بسبب نزل ولا غيره مما كان شرار العمال يوظفونه ويقسمونه على أهل أعمالهم ، وتجنب الطعم الشائنة والمكاسب الرديئة ، ويحذر أن يعرض لشيء منها أو يطلقه لأحد من كفاته فيرد عليه من النكير ما هو حرى بتوقيه والتصون عنه » .

ومن اللفتات النادرة حديثه عن الضوال أو الحيوان الضائع وواجب الحاكم إزاءها حيث يقول : « وأمره أن يتقدم فى تعريف ما يوجد من الضوال فى عمله والاشادة بذكرها ، فان عرف أحد ضالة منها وأوضح ملكه أياها سلمت اليه وأشهد بها عليه ، وان لم يحضر لها طالب وأشفق من ضياعها باعها فى أسواق المسلمين بأقصى أثمانها وسلم ثمنها الى عامل الخراج قبله ليجعلها عزلا فى بيت المال ، فان استحققه مستحق بعد ذلك دفعه اليه ان شاء الله » .

ثم يأمره أن يتخير من عماله الأكفاء المتعففين لرفع الغش فى المكاييل والموازين وختمها بالرصاص ، ويقتبس من القرآن الكريم فيقول : « وأمره أن يتخير للحسبة على أهل الأسواق وسائر أصحاب الصناعات والبياعات من يعرف بالقصد فى مذهبه والعفاف فى طعمته واستيفاء الحق فيما يقلده بتصحيح المعاملة ورفع الغش وتجنب كل ما عاد بمضرة على المسلمين ، وتعيرير المكاييل والموازين فى سائر عمله واقامتها على الوفاء والعدل وختمها بالرصاص ، فان الله عز وجل يقول : (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين » .

وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولاتبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » (١) .

ومن أبرز الوصايا البلاغية والأدبية فى تلك الفترة وصية كتبها ابراهيم بن محمد بن المدبر فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة ، وهى مطولة نقتبس أهم أجزائها :

يوصى ابن المدبر باتخاذ البرهان فى الكتابة للاقتناع ، ويقول فى ذلك : « اتخذ البرهان دليلا شاهدا ، والحق اماما قائدا يقرب مسافة ارتيادك ويسهل عليك سبيل مطالبها ، واستوهب الله توفيقا تستنتج به مطالبك ،

ويدعو الموصى الى اكتساب التعلم على العلماء ، وقراءة كتب الحكماء ، وتصفح رسائل المتقدمين والمتأخرين والأشعار فى الأخبار والسير ، ومعنى ذلك عدم الاعتماد على الموهبة وحدها ، وضرورة تنمية هذه الموهبة بالاطلاع . يقول :

« واعلم أن الاكتساب بالتعلم وطول الاختلاف الى العلماء ودراسة كتب الحكماء ، فان أردت خوض بحار البلاغة ، وطلب أدوات الفصاحة فتصفح من رسائل المتقدمين ما تعتمد عليه ، ومن رسائل المتأخرين ما ترجع اليه فى تلقيح ذهنك واستنتاج بلاغتك ، ومن الأشعار والأخبار والسير ما يتسع به منطقك ويعذب لسانك » .

ويدعوا بن المدبر الى مخاطبة كل شخص بما يلائمه ، ومراعاة أقدار المخاطبين ويلتفت أيضا الى ضرورة الاهتمام باللفظ والمعنى . يقول : « واذا احتجت الى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكتاب والخطباء والأدباء والشعراء فخاطب كلا على قدر أهله وجلالته ويقظته وانتباهه ، ولا تعد بالمعنى الجزل ما لم تلبسه لفظا جزلا لائقا بمن كاتبته، ومشابها لمن راسلته» .

ثم يعرج على القلم ويحدد صفات العود وطريقة البرى وصفات السكين المستعمل فى بره ، ويختتم الوصية باختيار الأوقات التى يحس فيها

(١) اختيار المنظوم والمنثور ٣٤٦/١٣ - بترف .

والنزل ماهيىء للضيف لينزل عليه ، والعزل ما يورد بيت المال غير موزون ولا منتقد - والبياعات السلع .

الكاتب بفراغ القلب وبالنشاط حتى تجود النفس بمكنونها يقول :
« وارتصد لكتابك فراغ قلبك وساعة نشاطك فتجد ما يمتنع عليك بالكد
والتكلف » (١) .

وهناك وصايا تتحدث عن الآداب الاجتماعية التي يجب على الانسان
مراعاتها ، ومنها وصية عبيد الله بن عبد الله بن طاهر لرجل اعتد عند
بأثر جميل : « لا تفسدن تالد احسانك بطارف امتنانك ، واقتصر من وصف
سالفك على ذكر مستأنفك » (٢) .

ولابن المعتز وصية موجزة تحتوى على ثلاث وصايا فى موضوعات
مختلفة لا يجمع بينها الا تفتح الوعى وحسن الخلق ، وكان ابن المعتز من
أبناء البيت العباسى ، ونراه يوصى بعدم الاسراع الى أرفع موضع فى
المجلس فقد ينحى عنه ، ويوصى أيضا بالمداراة وعدم الوقوف فى وجه
التيار ، ويوصى بعدم ذكر الميت بسوء وهى وصية نابغة من خلقه الكريم
الذى عرف به . يقول ابن المعتز :

« لا تسرع الى أرفع موضع فى المجلس ، فالموضع الذى ترفع ائيه
خير من الموضع الذى تحط منه ، لا تذكر الميت بسوء فتكون الأرض أكرم عليه
منك ، ينبغي للعاقل أن يدارى زمانه مداراة السابح للماء الجارى » (٣) .

وكثرت وصايا الأدباء بالأشخاص لقضاء مصلحة أو لنيل وظيفة أو
لضم شخص الى معية أحد الكبراء ، وكانت هذه الوصايا معرضا لظهار
البلاغة والفصاحة والمقدرة الفنية ، وغلب على هذه الوصايا الإيجاز كما فى
قول ابن المعتز :

« موصل كتابى فلان ، وقد جعلت الثقة بك مطية اليك فلا تنضها
بعطلك ، وأسرع ردها بسابق انجازك وتصديق الأمل فيك والظن بك » (٤) .

(١) رسائل البلاغ ص ٢٥٣ . مطبعة لجنة التأليف والترجمة .

(٢) زهر الآداب ج ٤ ص ٩٤٣ .

(٣) زهر الآداب ج ٤ ص ١٠٥٦ .

(٤) الأوراق للصولى ج ٢ ص ٢٩٠ .

فى القرن الرابع الهجرى

فى هذا القرن مالت الوصايا الى الطول وورد بعضها فى رسائل تجمع بين الوصايا السياسية والاجتماعية والدينية ، وقلت الوصايا الموجهة الى كبار رجال الدولة ولم يعد أولئك الكبراء يفتحون صدورهم لتقبل هذه الوصايا ، ومع ذلك فاننا لا نعدم أمثال هذه الوصايا ، ومن أشهرها وصية أبى الحسن الماوردى لأحد الوزراء يوصيه بمراعاة الله فى معاملة الرعية ، وتقديم حق الله على حق السلطان اذا تعارضا ، وفى ذلك يقول :

« اجعل - أيها الوزير - لله تعالى على شرك رقيقا يلاحظك من زيغ فى حقه ، واجعل لسلطانك على خلوتك رقيقا يكفك عن تقصير فى أمره ، فتسعد فى عاجلتك وأجلتك ، فان تنافى اجتماعهما لك فقدم حق الله تعالى على حق الملك ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

ثم أوصى الوزير بتفقد أحوال الرعية والاستعانة بالصالحين منهم على كشف حقيقتهم وأحوالهم ، وعدم صحبة الجاهلين منهم ، وحذره من الكذوب والفاجر ويستشهد بالحديث وبالحكم * وفى ذلك يقول :

« وحق عليك أيها الوزير أن تكون بأمور الناس خبيرا ، والى أحوالهم متطلعا ، وبهم على نفسك وعليهم مستظهرا ، لتعلم ما فيهم من فضل ونقص وعلم وجهل وخير وشر ، وتتحذر من غرور المتشبه وتدليس المتصنع ، فتعطى كل واحد حقه ولا تقصر بذى فضل ، ولا تعتمد على ذى جهل ، واحذر من الكذوب فلن ينصحك من غش نفسه ، ولن ينفك من ضرها ، ولا تستكفين عاجزا فيضيع العمل ، ولا شرها فيضرك باحتجانه ، ولا تعباً بمن لا يدافع على المروءة فقلما تجد فيه خيرا لزهده فى صيانة النفس وميله الى خمول القدر ، وقد قيل فى حكم الهند :

« ذو المروءة يرتفع بها ، وتاركها يهبط ، والارتقاء صعب ، والانحطاط هين ، كالحجر الثقيل الذى رفعه عسير وحطه يسير » (١) *

(١) نهاية الأرب ج ٦ ص ١٢٢ . بتصرف . والمتشبه من يظهر بغير ما فطر عليه .

ومن الظواهر الأدبية فى تلك الفترة أن كبار الكتاب كانوا يكتبون عن الخليفة عهد تقليد الوظيفة ويحشدون الوصايا فى هذا العهد ، ومن ذلك عهد كتبه أبو اسحاق الصابى عن الخليفة الطائع لله ، يوصى أبا طريف بن عليان العقيلي ، من أرباب السيوف حين قلد حماية الكوفة ، ومما ورد فى هذا العهد :

« فتول - أيدك الله - ذلك مقدما تقوى الله ومراقبته ، ومستمدا توفيقه ومعونته واحرس الرعية فى مساكنها ، والسابلة فى مسالكها ، وادفع عن عملك ونواحيه أهل العيث جميعا واطلبهم طالبا شديدا ، واطرقهم فى مكانهم ، وتولج عليهم فى مكانهم ، ونكل بمن تظفر به منهم نكالا تقيم به حكم الله عليهم وحدوده فى أمثالهم ، وراع الأكرة والمزارعين حتى يتبسطوا فى معاشهم ويتصرفوا فى مصالحهم وتيسر عواملهم فى عماراتها ، ومواشيهم فى مسارحها ، وخفف عمن وليت عليهم الوطأة ، وارفح عنهم المئونة والكلفة ، وامنع قلوبهم من تحيف المضعوف ، وشریفهم من استئصامة المشروف » (١) .

وأوصى أحمد بن محمد بن مسكويه ، وجاءت وصيته فى صورة غير تقليدية حيث جعل وصيته فى صورة معاهدة عاهد عليها نفسه ، وجاء فى معجم الأدباء : « نسخة وصية أبى على مسكويه » . وكتب الموصى فى صدر وصيته : « أنه يكتبها وهو معافى فى جسمه ولا تدعوه الى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن » . وهذا يوضح أنه يوصى بها نفسه وغيره .

يقول فى أول الوصية : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عاهد عليه أحمد بن محمد وهو آمن فى سربه ، معافى فى جسمه ، لا تدعوه الى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ، ولا يريد بها مراعاة مخلوق ولا استجلاب النفقة ولا دفع مضرة » .

ثم أورد الأمور التى عاهد عليها الله ، وتتلخص فى مجاهدة النفس وتجنب كل ما يهتك المروءة ، والجد فى طلب العلوم ، وفى ذلك يقول :

« عاهده على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره فيعف ويشجع ويحكم ، وعلامة عفته أن يقتصد في مأرب بدنه حتى لا يحمل الشرة على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته ، وعلامة شجاعته أن يحارب دواعي نفسه الذميمة ، حتى لا تقهره شهوة قبيحة ، ولا غضب في غير موضعه ، وعلامة حكمته أن يستبصر في اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شيء من العلوم والمعارف الصالحة ليصلح أولاد نفسه ، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ويجتهد في القيام بها والعمل بموجبها ، وهي خمسة عشر بابا » .

ثم راح يعدد هذه الأبواب وتتلخص في الثقة بالله ، ومجاهدة النفس ومعاملة الناس بالحسنى مع قلة الثقة بهم . وفي ذلك يقول :

« ايثار الحق على الباطل في الاعتقادات ، والصدق على الكذب في الأقوال ، والخير على الشر في الأفعال ، وكثرة الجهاد الدائم بين المرء ونفسه ، والتمسك بالشرعية ، وحفظ المواعيد حتى ننجزها ، وأول ذلك ما بينى وبين الله عز وجل ، وقلة الثقة بالناس ، ومحبة الجميل لأنه جميل ، والصمت في أوقات حركات النفس للكلام ، وحفظ الحال التي تحصل في شيء حتى تصير ملكة ولا تفسد بالاسترسال ، والاقدام على كل ما كان صوابا ، والاشفاق على الزمان الذي هو العمر ليستعمل في المهم دون غيره وترك الخوف من الموت والفقر لعمل ما ينبغي ، وترك التواني وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد ، وحسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان وذكر المرض وقت الصحة ، والههم وقت السرور ، والرضا عند الغضب ، وحسن الرجا ، والثقة بالله عز وجل ، وصرف جميع البال إليه » (١) .

وهناك وصايا موجزة تطرق مختلف جوانب الحياة ، ومنها التمسك بالشورى ، وقد أوصى أحمد بن سهل البلخي بالشورى وقال في ذلك : « شاور في أمرك من جرب الأمور وخبرها ، وتقلب على الحوادث وباشرها ، مالم يوهنه ضعف الهرم ، ولم يغيره حادث السقم » (٢) .

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٧ الى ١٩ ياقوت الحموي . مطابع دار المؤمن

بتصرف .

(٢) تحفة الوزراء ص ٨٩ - الثعالبي - مطبعة العاني بغداد .

ونرى كثيرا من الوصايا الشعرية التى تطرق مختلف جوانب الحياة ،
وبعض هذه الوصايا موجه الى أشخاص معينين ، وبعضها وصايا عامة
يمنتفع بها كل انسان ، ومن الوصايا الموجهة الى أشخاص معينين قول المتنبى
لعلى بن ابراهيم التنوخى :

فلا تغررك السنة موال	تقلبهن أفئدة أعادى
وكن كالـموت لا يرثى لباك	بكى منه ويروى وهو صاد
فان الجرح ينغر بعد حين	إذا كان البناء على فساد (١)

ومن الوصايا العامة قول أبى الفتح البستى يوصى بالتريث وعدم
العجلة . فيقول :

فلا تكن عجلا فى الأمر تطلبه فليس يحمد قبل النضج بحران (٢)

وكان صاحب بن عباد وزيرا لآل بويه واتصل بالسلطين وخبرهم
وعرف طباعهم ومراسم معاملتهم ، وأوصى صاحب بتعظيم السلطان مع
الحذر منه فقال :

إذا أولاك سلطان فزده	من التعظيم واحذره وراقب
فما السلطان الا البحر عظما	وقرب البحر محذور العواقب (٣)

ومن الوصايا الطريفة وصية أبى بكر الخوارزمى لصديق له يوصيه
وصية طبية ، ولم يكن أبى بكر الخوارزمى طبيبا ، وانما كان أدبيا مثقفا
واسع الاطلاع ، وكان فى كتاباته يطرق كثيرا من الأبواب محاولا أن يظهر
ثقافته المتنوعة ، وقد ورد عليه كتاب صديق له يشكو فيه الجرب ، فكتب
اليه هذه الوصية ، وواضح أنه يستمد معلوماته من المعارف العامة فى
زمانه ، ومن نصائح الأطباء المتخصصين فى ذلك الوقت ، وهو فى وصاياه

(١) زهر الآداب ج ١ ص ١١٠ .

(٢) زهر الآداب ج ٤ ص ٩٣٤ .

(٣) زهر الآداب ج ٣ ص ٧٣٠ .

الطبية لا يتخلى عن طريقته المعهودة وأسلوبه الذى يهتم بالسجع والمحسنات البديعية ، فهو أسلوب أديب لا طبيب ، يقول فى مطلع الوصية :

« أرى لسيدى أن يصبر على الجوع مع مرارته ، وعلى العطش مع حرارته ، وأن يقتصر من الطعام على ما يكون فى أوسط طبقات الرطوبة ، وفى أعدل موازين البرودة ، ولابد من هجر اللحم والفاكهة ، ولا سبيل الى الحرافة ، فأما البقول فيجب الا ترى ولو فى المنام ولا تمس ولو بالأوهام ، والسّمك وما ناسبه بليه ، واللبن وما خرج منه منية » .

ثم يوصيه بشرب شربة تنظف معدته ، ثم بفصد الأكل ، ويستعمل الخوارزمى هنا بعض المصطلحات الطبية الشائعة آنذاك كـالسوداء والصفراء . يقول :

« حتى اذا أحس فى معدته بالخلاء ، ووقف من طبيعته على الصفاء ، ومن أخلاط جسمه بالاعتدال والاستواء استخار الله تعالى وشرب شربة قوية تكنس فضول السوداء ، وتخرج خبايا الصفراء ، وتقمع سلطان البلغم ، وتصفى كدورة الدم ، فاذا انجلى عنه خمار ضعفها وتقشعت غيابة سكرها أمدّها بفصاد يخص به الأكل فانه نهر العروق ، والطريق الذى يفضى منه الى كل طريق تصعد اليه السفلى وتنزل عليه العليا » .

وأخيرا يوصى صاحبه باستعمال اللطوخ لعلاج ظاهر البدن ، وبالاكتثار من الأغتسال ويعلل لذلك بأن البارد اذا لقي الحار أطفأ بعضه ، والطب الحديث يؤيد ذلك . يقول :

« فاذا فرغ منه وخرج باذن الله تعالى سليما عنه ، وعلم أنه لم يبق من العارض الا هبأؤه ، ومن المخوف الا زبده وجفأؤه ، يعالج حينئذ باللطوخ الذى يغسل ظاهر الجسم ويجلو صدأ السقم ، ولا ينسين الاستكثار من الغسل والاغتسال ومباشرة الماء على كل حال ، فان الجرب فى حيز الحرارة ، كما أن الماء فى حيز البرودة ، والبارد اذا لقي الحار أطفأ بعضه وان لم يقطع أصله ، والضد اذا زاحم الضد أوهن سلطانه وان لم يهدم

اركانه ، (١) .

وقد ساد هذا الأسلوب المسجوع المعنى بالمحسنات البديعية فى القرن الرابع الهجرى ، وكان ابو بكر الخوارزمى وبدع الزمان الهمدانى فرسى رهان لا يكادان يأتیان بجملتين تخلوان من السجع ، ولبدیع الزمان وصية كتبها الى وارث مال يوصيه بالحرص على المال ، وعدم انفاقه فى المتعة والشراب ، ويحذره من الانخداع بكلام الناس ، ويبدو فى هذه الوصية اقتنان بديع الزمان وتلاعبه بالألفاظ ولعه بالطباق والجناس وقد أورد الثعالبي فى يتيمة :

« كتب بديع الزمان الهمدانى يوصى وارث مال : « العزاء من الأعزة رشد كانه الغى ، وقد مات الميت فليحى الحى ، واشدد على حالك بالخمس ، فانت اليوم غيرك بالامس كان ذلك الشيخ وكيلك يضحك ويبكى لك ، وسيعجم الشيطان الآن عودك ، فان استناك رماك يقوم يقولون : خير المال متلفة بين الشراب والشباب ، ومنفقة بين الحباب والاحباب ، والعيش بين القдах والاقдах ، ولولا الاستعمال ما أريد المال ، فان اطعتهم فالיום فى الشراب ، وغدا فى الخراب ، واليوم واطربا للناس ، وغدا واحربا من الافلاس .

يا مولاي ، ذلك المسموع من العود يسميه الجاهل نقرا ، ويسميه العاقل عقرا ، وذلك الخارج من الناي هو اليوم فى الأذان زمر ، وهو غدا فى الأذان سمر ، والعمر مع هذه الآلات ساعة ، والقنطار فى هذا العمل بضاعة » (٢) .

وظلت الوصايا بالأفراد ذوى الحاجة ، ومالت الى الطول والافتنان والعناية بالأسلوب ، ومن أبرز هذه الوصايا وصية كتبها صاحب بن عباد وزير آل بويه وأحد كبار الكتاب فى القرن الرابع الهجرى موصيا بالقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى ، وقد كتب صاحب بن عباد هذه الوصية الى وزير السامانيين حسام الدولة أبى العباس تاش الحاجب ،

ويبدو من مطلع الوصية أنها ليست أول وصية ، وأن صاحب بن عباد كتب قبل ذلك الى حسام الدولة مشيدا بالقاضى الجرجانى ، ويؤكد صاحب هنا أن فضل الجرجانى أجل من أن يحيط به القلم فيقول :

« قد تقدم وصفى للقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى - أدام الله تعالى عزه - فيما سبق الى حضرة الأمير الجليل صاحب الجيش - أدام الله تعالى علوه - من كتبى ما أعلم أنى لم أؤد فيه بعض الحق ، وان كنت قد دلتته على جملة تنطق بلسان الفضل ، وتكشف عن أنه من أقراد الدهر » .

ثم تحدث صاحب عن مكانة الجرجانى فى نفسه فبين أنها مكانة تناسب محاسنه ومناقبه ، وأنه يسكن قلبه لا يفارقه ، ورجا من الأمير أن يقدم للجرجانى كل مساعدة مالية وأدبية . يقول صاحب :

: فاما موقعه منى فالواقع تخطبه هذه المحاسن ، وتوجبه هذه المناقب ، وعادته معى ألا يفارقنى مقيما وظاعنا ومسافرا وقاطنا ، واحتاج الآن الى مطالعة جرجان بعد أن شرطت عليه تصيير المقام كالامام ، فطالبنى مكاتبتى بتعريف الأمير مصدره ومورده ، فان عن له ما يحتاج الى عرضه وجد من شرف اسرافه ما هو المعتاد ، ليستعجل انكفاؤه الى بما يرسم - أدام الله أيامه - من مظاهرتة على ما يقدم الرحيل ويفتح السبيل من بذقة ان احتاج اليها والى الاسستظهار بها ، ومخاطبة لبعض من فى الطريق بتصرف والنجح فيها » .

ويختتم الوصية بخاتمة ذكية تترك الخيار لأبى العباس الحاجب ، وتؤكد مكانة الجرجانى فى نفس صاحب فيقول : « فان رأى الأمير أن يجعل من حظوظى الجسيمة عنده تعهد القاضى أبى الحسن بما يعجل رده فانى ما غاب كالمضل الناشد ، واذا عاد كالغائم الواجد فعل ان شاء الله تعالى » (١) .

وصايا المقامات

ومن الوصايا التي ظهرت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ما ورد فى مقامات بديع الزمان الهمدانى ، وتدرج هذه المقامات حول الكدية والتحايل لكسب المال بكل طريق مشروع أو غير مشروع ، وللمقامات راو هو عيسى بن هشام ، وبطلا دائما أبو الفتح الاسكندرى ، ويمثل الاسكندرى شخصيات عديدة ومنها مختلفة ، ويقدم وصايا متنوعة الموضوعات ومعظمها يدور حول البخل والتحايل لكسب المال •

وأكثر هذه المقامات افتنانا فى الوصية بالبخل (المقامة الوصية) وفيها يحث البخيل ابنه على البخل ، ويبدأ بالتودد لابنه واطهار الثقة به ، ويوصيه بالمصوم والنوم ، ويحكى بديع الزمان فيقول :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : لما جهز أبو الفتح الاسكندرى ولده للتجارة أقعده يوصيه فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه صلى على رسوله صلى الله عليه وسلم :

يابنى ، انى وان وثقت بمتانة عقلك فانى شفيق ، والشفيق سيىء الظن ، ولست آمن عليك النفس وسلطانها ، والشهوة وشيطانها ، فاستعن عليهما نهارك بالمصوم ، وليلك بالنوم » •

ثم يحذره من الكرم والقرم وهو الشهوة الى أكل اللحم ، ويوصى بالتجارة والحرص على المال فيقول : « وكما أخشى عليك ذاك فلا آمن لصين : أحدهما الكرم ، واسم الآخر القرم ، وإياك وإياهما ، ان الكرم أسرع فى المال من السوس ، وان القرم أشأم من اليسوس ، ودعنى من قولهم : ان الله كريم ، انها خدعة الصبى عن اللبن ، أفهمتها يا ابن المشئومة ؟ • انما التجارة تنبسط الماء من الحجارة ، انه المال - عافاك الله - فلا تنفقن الا من الريح » •

ثم يوصيه بأكل الملح والخل والبصل ، ويحذره من أكل اللحم والحلو

ومن كثرة الطعام فيقول : « وعليك بالخبز والملح ، ولك فى الخل والبصل رخصة ، وللحم لحكمك وما أراك تأكله ، والجلو طعام من لا يبالي على أى جنب يقع ، والوجبات عيش الصالحين ، والأكل على الجوع واقية الفوت ، وعلى الشبع داعية الموت ، ثم كن مع الناس كلاعب الشطرنج خذ كل ما معهم واحفظ كل مامعك » (١) .

ووردت فى المقامات على لسان أبى الفتح الاسكندرى وصايا دينية ، ولكنها غير خالصة لوجه الله ، ويدرك قارئ المقامة أن الاسكندرى يتظاهر بالتقوى ويدعو الى البذل لكى يجمع من المال ما يريد ، ومما ورد فى المقامة الأهوازية : « فليكن الموت منكم على ذكر ، لئلا تأتوا بنكر ، فانكم اذا استشعرتموه لم تجمحوا ، ومتى ذكرتموه لم تمرحوا ، وان نسيتموه فهو ذاكركم ، وان نمتم عنه فهو ثائركم » (٢) .

وفى ثنايا المقامات ترد وصايا شعرية تدعو الى الأخلاق الدينية والتحایل على الناس تمشيا مع مبادئ المكدين التى تدعو الى جعل المال هدفا وغاية ، وفى المقامة المكفوفية يدعو الاسكندرى الى الكسب الدون والحق والتخلّى عن العقل .

يقول :

اختر من الكسب دونا	فان دهـرك دون
زج الزمان بحمق	ان الزمان زبون
لا تكـذب بعقل	ما العقل الا الجنون (٣)

وفى المقامة القريضية يدعو الى التحایل والدوران مع الليالى حيث تدور فيقول :

-
- (١) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ١٤٤ - ١٤٦ بتصرف . المطبعة المحمودية بمصر ط ٢ - والبسوس خالة جلييلة وجساس ، وقد تسببت فى قيام حرب استمرت أربعين عاما - والوجبات جمع وجبة وهى الأكلة فى اليوم واللييلة مرة .
- (٢) مقامات بديع الزمان . المقامة الأهوازية ص ٣٧ .
- (٣) مقامات بديع الزمان . المقامة المكفوفية ص ٥٣ .

ويحك هذا الزمان زور فلا يغررك الغرور
زوق ومخرق وكل وأطبق واسرق وطلبق لمن يزور
لا تلتزم حـالة ولكن در بالليـالى كما تدور (١)

وفى المقامة الأصفهانية يدعو الاسكندرى الى التحايل على الناس ،
ويشبههم بالحمير ويدعو الى الاغماض عن أفعالهم مع محاولة نيل ما يريد .

الناس حمر فـجـوز وابـرز عليهم وبرز
حتى اذا نلت منهم ماتشـتهيه ففـروز (٢)

وواضح أنها وصايا لا تمثل معتقدات راسخة عند الناس ولكنها تمثل
طائفة معينة .

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٦ - المطبعة الحنفية . مخرق (تصرف فى الامور .

(٢) مقامات بديع الزمان . المقامة الاصفهانية ص ٣٥ - حمر حمير - جوز

اغمض عن أفعالهم فروزمات .

وصايا المتطفلين

المتطفلون الذين يذهبون الى اللائم بدون دعوة ويقبلون على الطعام بنهم شديد ، وأورد القلقشندي وصية بالتطفل أنشأها أبو اسحاق الصابي بناء على اقتراح معين الدولة بن بويه (ويسمى معز الدولة) ، ووجهها باسم رجل من المتطفلين يدعى عليكا .

وتقع الوصية فى ست صفحات نبرز هنا أهم نقاطها :

« هذا ما عهد على بن أحمد المعروف بعليكا الى على بن عرس الموصلى حين استخلفه على احياء سنته ، واستنابه فى حفظ رسومه من التطفل على أهل مدينة السلام .

أمره بتقوى الله التى هى الجانب العزيز والحرز الحريز .

وأمره أن يتأمل اسم التطفل ومعناه ، ويعرف مغزاه ومنحاه ، ويتصفح تصفح الباحث عن حظه بمحموده ، غير القائل فيه بتسليمه وتقليده ، وقد عرفت التطفل ولا عار فيه عند ذوى التحصيل لأنه مشتق من الطفل وهو وقت المساء وأوان العشاء ، فلما كثر استعمل فى صدر النهار وعجزه ، وأوله وآخره ، وأمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزاياه ، وسمط الأمراء والوزراء بسراريه ، فانه يظفر منها بالغنيمة الباردة ، ويصل عليها الى الغريبة النادرة ، واذا استقراها وجد فيها من طرائف الألوان الملذة للسان ، وبدائع الطعوم السائغة فى الحلقوم مالا يجده عند غيرهم ، ولا يناله الا لديهم .

وأمره أن يتتبع ما يعرض لموسرى التجار ومجهزى الامصار من وكيرة الدار (١) والعرس والأعذار ، فانهم يوسعون على نفوسهم فى اللوائب بحسب تضيقهم عليها فى الراتب ، وربما صبروا على تطفل المتطفلين وأغضوا على تهجم الواغلين ليتحدثوا بذلك فى محافلهم الرذيلة ، ويعدوه فى مكارم أخلاقهم النذلة .

(١) الوكيرة والوكرة طعام يعمل عند الفراغ من البنيان .

وأمره أن يصادق قهارمة الدور ومديريها ، ويرافق وكلاء المطابخ
وحمالها ، فانهم يملكون من أصحابهم أزمة مطاعمهم ومشاربهم ويضعونها
بحيث يحبون من أهل موداتهم ومعارفهم .

وأمره أن يتعهد أسواق المسوقين ومواسم المتبايعين فاذا رأى وظيفة
قد زيد فيها ، وأطعمة قد احتشد مشتريها ، اتبعها الى المقصد بها ، وشيئها
الى المنزل الحاوى لها ، واستعلم ميقات الدعوة ومن يحضرها من أهل
النسيان والمروة .

وأمره أن ينصب الارصاد على منازل المغنيات والمغنين ومواطن الأبيات
والمخنثين ، فاذا أتاه خبر لجمع يضمهم ، ونادية تعمهم ، ضرب اليها أعناق
أبله ، وأنضى نحوها مطايا خيله ، وحمل عليها حملة الحسوت الملتقم ،
والتعبان الملتهم ، والليث الهاصر ، والعقاب الكاسر ان شاء الله .

وأمره أن يحرز الخوان اذا وضع ، والطعام اذا نقل ، حتى يعرف
بالحدس والتقريب والبحث والتنقيب عدد الألوان فى الكثرة والقلة ، وافتنانها
فى الطيب واللذة .

وأمره أن يروض نفسه ، ويغالط حسه ، ويضرب عن كثير مما يلحقه
صفحا ، ويطوى دونه كشحا .

وأمره أن يكثر من تعاهد الجوارشونات المنفذة للسدد ، المقوية للمعد .
المشبهة للطعام ، المسهلة لسيل الانهضام .

هذا عهد عليكا بن أحمد اليك ، وحجته لك وعليك ، لم يالك فيه ارشادا
وتوقيفا وتهذيبا وتثقيفا ، فكن بأمره مؤتمرا ، وبزواجره مزدجرا ، ان شاء
الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته « (١) » .

(١) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٤٠٤ الى ص ٤١٠ - بتصرف - أحمد بن على
القلقشندى . دار الكتب العلمية . الجوارشونات الحلويات . معربة - الأبيات نساء
السوء .

الفصل الثالث

الوصايا الدينية

كثرت الوصايا الدينية ، وكان الشعور الدينى مايزال قويا مسيطرا ، وكان الخلفاء يحكمون باسم الخلافة الاسلامية وبحكم قرابتهم من النبى عليه السلام ، وكانوا يفتحون صدورهم فى كثير من الاحيان لسماع هذه الوصايا ، ووجه بعض العلماء وصايا مكتوبة الى الخلفاء كما سنرى .

وجاءت بعض الوصايا الدينية رد فعل للترف والبذخ ، ونما شعر الزهد فى هذه الفترة ، وظهر أبو العتاهية شاعر الزهد الأول سواء أكان زهده نابعا من مشاعر صادقة أم كان وسيلة لجمع المال من كبار رجال الدولة .

وظهر التصوف فى القرن الثانى الهجرى ، وكثرت وصايا المتصوفين ، وكانت تدعو أساسا الى القرب من الله والتمسك بحبله ، واشتملت فى بعض الاحيان على مبادئ غامضة أو شاذة ، ولقيت رواجاً عند بعض الناس ، ورفضها كثيرون منهم .

وظهرت وصايا الشيعة واشتملت على بعض المبادئ الغريبة كاعتقاد بعضهم فى حلول الله فى أئمتهم ، وأن الامام يعلم الغيب ، ودعوا الى الخضوع المطلق للامام .

وظهرت مسائل خلافية دار حولها جدل كثير كما حدث فى مسألة خلق القرآن ، ولحق بعض العلماء اذى بسبب تمسكهم بأرائهم كما حدث للامام أحمد بن حنبل ، ودارت بعض الوصايا حول هذه المسائل .

وكانت هناك وصايا لعامة الناس توصى بتقوى الله ، وكانت تصدر من العلماء ومن الحكام ، وتبذلت رسائل بين العلماء دار فيها جدل حول بعض

المسائل الدينية ، وأوصى العالم نظيره باتباع الحق ، وحففت هذه المجادلات بالأدلة التي تثبت رأيا وتنفي رأيا آخر .

وهكذا نرى الوصايا الدينية كانت وليدة الظروف ، وكانت صدى لما يجرى فى المجتمعات من أحداث وآراء .

فى صدر الدولة العباسية

فى صدر الدولة العباسية - ونعنى بها الفترة التى سبقت خلافة المنصور - طغت الأحداث السياسية ، ولم تكن لأبى العباس السفاح فسحة من الوقت لكى يفتح بابه للعلماء والواعظين ، ولا نظن الا أن الواعظين كانوا يهابون وصية السفاح .

ولذلك لا نجد كتب التراث تحتفظ بوصايا دينية مستقلة الا ماندر ، وكانت الوصايا الدينية تأتى فى ثنايا الوصايا السياسية والاجتماعية ، وكان كبار رجال الدولة يوصون بطاعة الخليفة ويتحدثون عن مكانته السياسية والدينية ، ويعدون طاعة الخليفة مظهرا من مظاهر طاعة الله .

ومن الوصايا الدينية التى وردت فى ثنايا الوصايا السياسية ماكتبه عبد الله بن معاوية من سجنه الى أبى مسلم الخراسانى : « أتاك الله حفظ الوصية ، ومنحك نصيحة الرعية ، وألهمك عدل القضية ، فنبه للتفكر قلبك ، واتق الله » (١) .

ومن الوصايا الدينية التى وردت فى ثنايا الوصايا الاجتماعية ماورد على لسان أبان بن تغلب اذ يقول : « مررت بامرأة وبين يديها ابن لها يريد سفرا وهى ترصيه فقالت : « اجلس أمنحك وصيتى وبالله توفيقك ، وقليل اجدائها عليك أنفع من كثير عقلك ، اياك والنمائم فانها تزرع الضغائن ، ولا تجعل نفسك غرضا لرماة فان الهدف اذا رمى لم يلبث أن ينتلم ، ومثل لنفسك مثالا ، فما استحسنته من غيرك فاعمل به ، وما كرهته منه فدعه واجتنبه ، ومن كانت مودته بشره كان كالريح فى تصرفها .

اذا هزرت فهز كريما فان الكريم يهتز لهزتك ، واياك واللئيم فانه صخرة لا ينفجر ماءها ، واياك والغدر فانه أقبح ماتعومل به ، وعليك بالوفاء ففيه نماء ، وكن بمالك جوادا ، وبدينك شحيحا ، ومن أعطى السخاء والحلم

فقد استجاد الحلة ربطتها وسربالها ، اذهض على اسم الله « (١) » .

ومن الوصايا الدينية المستقلة ما كتبه عبد الله بن معاوية بن جعفر ابن
أبى طالب الى صديق له ، « أوصيك بتقوى الله تعالى ، فان الله جعل لمن
اتقاه المخرج من حيث يكره ، والرزق من حيث لا يحتسب » (٢) .

(١) البيان والتبيين ج ٤ ص ٧٢ .

(٢) زهر الآداب ج ١ ص ١٢٠ .

فى عهد المنصور

كان الخليفة المنصور حازما ، وكان الناس يهابونه ، ولكنه كان يقدر العلماء المخلصين والزاهدين الصادقين فى زهدهم ، وكان يفتح لهم بابه ويفتح صدره ، وكان يثق بعمر بن عبيد ثقة لا حد لها فكان يستدعيه ويأذن له بالدخول ، وحفظت كتب التراث كثيرا من هذه الوصايا التى وجهت الى المنصور .

وكان الخليفة المنصور يطلب من أولئك الصالحين أن يعظوه ، ومما ذكره صاحب (زهر الآداب) : « دخل عمرو بن عبيد على أبى جعفر المنصور ، فقال له : عظمى ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ان الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها ، يا أمير المؤمنين ، ان هذا الأمر لو كان باقيا لأحد قبلك ما وصل اليك ، ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد ، قال : فبكى المنصور حتى بل ثوبه ، ثم قال : حاجتك يا أبا عثمان ، وكان المنصور لما دخل عليه طرح عليه طيلسانا ، فقال : يرفع هذا الطيلسان عنى » (١) .

وكان الخليفة المنصور يشناق الى عمرو بن عبيد ويرسل اليه يستدعيه ، وكتب اليه مرة يستدعيه فوقع عمرو بن عبيد فى كتاب المنصور : ارفع علم الحق يتبعك أهله » (٢) .

وكان المنصور يثق أيضا بالأوزاعى ، وكان الأوزاعى يدخل عليه ويوصيه ، وحفظ لنا صاحب العقد الفريد وصية مطولة جاءت على لسان الأوزاعى حيث يقول :

« دخلت على المنصور فقال لى : ما الذى بظا بك عنى ؟ قلت : وما تريد

(١) زهر الآداب ج ١ ص ١٤٤ - بتصرف .

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٥٧ .

منى يا أمير المؤمنين ؟ قال : الاقتباس منك ؟ قلت : يا أمير المؤمنين : قال النبي صلى الله عليه وسلم : من بلغته عن الله نصيحة فى دينه فهى رحمة من الله سيقت اليه ، فان قبلها من الله بشكر ، والا فهى حجة من الله عليه ليزداد اثما » .

ثم يوصى الخليفة بأداء الأمانة التى تحملها ، ويذكره بأن قرابته من الرسول لن تغنى عنه شيئاً يوم القيامة ، ومن قوله : « أعيدك بالله يا أمير المؤمنين أن ترى قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفك مع المخالفة لأمره ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :

يا صفية عمة محمد ، ويا فاطمة بنت محمد ، استوثبوا أنفسكما من الله فانى لا أغنى عنكما من الله شيئاً ، وكذلك جدك العباس سأل أمانة من النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أى عم ، نفس تحييها خير لك من أمانة لا تحصيها ، نظرا لعم وشفقة عليه من أن يلى فيحيد عن سنته جناح بعوضة ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما من راع يبيت غاشيا لرعيته الا حرم الله عليه رائحة الجنة » .

ثم أوصاه بالعدل المطلق ، وضرب له مثلا بالنبي عليه السلام ، وذكره بأن نعيم الدنيا لا يساوى شيئاً بجانب نعيم الآخرة ، وذلك حيث يقول : « يا أمير المؤمنين ان المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا الى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابيا لم يتعمده ، واعلم يا أمير المؤمنين أن كل ما فى يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ولا ثمرة من ثمارها ، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لأذابته ، فكيف بمن يسلك فيها ويرد فضلها على عاتقه ؟ » (١) .

وأورد صاحب العقد الفريد وصية رجل للمنصور ، وبدأ الرجل فعاب على المنصور اغفاله لأمر الرعية واحتجابه عنهم وتحكم رجال من أعوانه فى مصائر الناس .

ثم أوصاه بألا يجعل المال كل همه ، وضرب له مثلا بالطفل يولد عارية
ثم يرزقه الله ، وضرب له مثلا ببني أمية لم يغن عنهم ما جمعوا من مال
وسلاح ، يقول :

« فان كنت انما تجمع المال لولدك فقد أراك الله عبرا في الطفل يسقط
من بطن أمه ماله على الأرض مال ، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم
رغبة الناس اليه ، فان قلت : انما تجمع المال لتشد به السلطان فقد أراك
الله عبرا في بني أمية ، ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب وما أعدوا من الرجال
والسلاح حين أراد الله بهم ما أراد » •

ثم حذره من غضب الملك الحق الذى لا ملك فوقه وذكره بحساب
الآخرة ، فبكى المنصور وقال : « ويحك ، فكيف أحتال لنفسي ؟ » • فنصحه
باتخاذ بطانته من الصالحين ونشر العدل المطلق ، وذلك حيث يقول : « ياأمير
المؤمنين ، ان للناس أعلاما يفرزعون اليهم فى دينهم ، ويرضون بهم فى
دنياهم ، فأجعلهم بطانتك يرشدوك وشاورهم فى أمرك يسددوك ، قال : قد
بعثت اليهم قهربوا منى ، قال : خافوك أن تحملهم على طريقتك ، ولكن افتح
بابك وسهل حجابك ، وانصر المظلوم ، واقمع الظالم ، وأنا ضامن عليهم أن
يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة » (١) •

وكان عبيد الله بن عمر بن حفص بن عبد الله بن عمر بن الخطاب
(ويعرف بالعمري) معروفا بالصلاح والتقوى ، وقد حج المنصور وسأل عن
العمري فلم يجده ، فظن أنه يتجنب لقاءه ، فكتب عبيد الله الى أبى جعفر
المنصور يحذره من أن تكون نفسه كل همه ، ويذكره بأنه مسئول عن الأمة
كلها ، ويوصيه بالنظر الى الله وخوف يوم القيامة وسلطان الله القاهر فوق
عباده • يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أبى جعفر أمير المؤمنين من عبيد
الله بن عمر ، سلام الله عليك ورحمة الله التى اتسعت فوسعت من شاء ، أما

بعد ، فانى عهدتك وأمر نفسك لك مهم ، وقد أصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها وأبيضها وشريفها ووضيعها يجلس بين يديك العدو والصديق والشريف والوضيع ، ولكل حصته من العدل ونصيبه من الحق ، فانظر كيف أنت عند الله يا أبا جعفر ، وانى أحذرك يوما تعنو فيه الوجوه والقلوب وتنقطع فيه الحجة الملك قد قهرهم بجبروته ، وأذلهم بسلطانه ، والخلق داخرون له ، يرجون رحمته ويخافون عذابه وعقابه ، •

ثم يوصيه بعدم الانصات الى وشاية الواشين ، ويؤكد له أنه لا يريد يوصيته الا وجه الله خالصا • فيقول : « وانا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة سيرجع فى آخر زمانها أن يكون اخوان العلانية أعداء السريرة ، وانى أعوذ بالله أن تنزل كتابى سوء المنزل ، انما كتبت به نصيحة • والسلام » (١) •

وكان هؤلاء الزاهدون والعلماء يوصون بعضهم ، ويوصون أصدقاءهم ، ويوصون عامة الناس ، وقد كتب الأوزاعى الى أخ له : « أما بعد فقد أحيط بك من كل جانب ، وانه يسار بك فى كل يوم وليلة ، فاحذر الله والقيام بين يديه وأن يكون آخر العهد بك • والسلام » (٢) •

ومن وصاياهم لبعضهم قول أبى حنيفة لابراهيم بن أدهم أحد كبار الزاهدين :

« وقد رزقت من العبادة شيئا ضالحا فليكن العلم من بالك فانه رأس العبادة وقوام الدين » •

فقال ابراهيم : « وأنت فلتكن العبادة والعمل بالعلم من بالك ، والا هلكت » (٣) •

وأوصى ابراهيم بن أدهم وصية عامة لم يخص بها أحدا ، فأوصى بتذكر

(١) الامامة والسياسة - ج ٢ ص ١٧٥ - ابن قتيبة • مؤسسة الوفاء • بيروت •

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١١٩ - الحافظ بن كثير • دار الفكر العربى •

(٣) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٢٧ •

الموت والقيامة وأهوالها • يقول : « مثل لبصرك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض روحك ، وانظر كيف تكون حينئذ ، ومثل له القيامة وأهوالها » (١) •

ولابراهيم بن أدهم وصية يوصى فيها بالفرار من الناس الا عند الصلاة ، يقول : « فروا من الناس كفراركم من الأسد الضارى ، ولا تخلفوا عن الجمعة والجماعة » (٢) • وقد ظهرت هذه الفكرة فى وصايا المتصوفين بعد ذلك •

(١) المرجع نفسه ص ١٤٠ •

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٩ •

فى عهد الخليفة المهدي

ظل الخلفاء العباسيون طيلة القرن الثانى الهجرى يظهرن المحافظه على تعاليم الاسلام ويستمعون الى وصايا العلماء والزاهدين ويدعون الناس الى التمسك بالتقوى (وذلك باستثناء الخليفة الأمين) ، وقد كان المهدي يوصى فى خطبه بتقوى الله ، وفى احدى خطبه يقول :

« أوصيكم عباد الله بتقوى الله فان الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها ندامة ، وأحثكم على اجلال عظمته ، وتوقير كبريائه وقدرته ، والانتهاى الى ما يقرب من رحمته ، وينجى من سخطه ، وينال به مالمديه من كريم الثواب وجزيل المآب » (١) .

وكتب المهدي الى ولاته يوصيهم بالتقوى ، فكتب الى واليه على أرمينية:

« هذا ما عهد به عبد الله محمد أمير المؤمنين الى فلان ، أمره بتقوى الله فى سرائره وعلائيته ، والاعتصام بالله والعمل بطاعته ، والايثار لحقه على ماسواه ، وأراقبه له ، والخشية منه ، فان الله لا يضيع لمحسن أجرا ، ولا يصلح لمفسد عملا .

وأمره أن يشعر قلبه مخافة الله ، وأن يعلم أن لا حول ولا قوة فى شيء الا بالله والعمل بطاعته ، فان الله عز وجل اذا علم بصدق نيته أحسن عونه وخار له فى قضائه ، وكفاه ما هم ، ولم يكله فى شيء من أموره الى نفسه ان شاء الله

وأمره ألا ياتمر أمرا حتى يستخير الله فيه ويستعينه عليه ويستقضيه فيه بالذى هو أحب اليه وأرضى عنده ، فان العاقبة للتقوى ، وأمره أن يصلى الصلوات لمواقيتها فى مسجد الجماعة ولا يتشاغل عنها بغيرها ، فان الله

جعلها عمود الدين فقال تبارك وتعالى : « فاذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » (١) .

وكان الخليفة المهدي يحب شبیب بن شیبة ويفتح له بابه وصدره كما كان المنصور يفعل مع عمرو بن عبید ، وكان شبیب یوصی المهدي وصاياه دينية ، وفي احدى وصاياه أوصاه بتقوى الله وأن يعمل على أن يكون له مكانة عليا في الآخرة كما أعطاه الله المكانة العليا في الدنيا ، يقول شبیب :

« يا أمير المؤمنين ، ان الله اذ قسم الأقسام في الدنيا جعل لك أسنماها وأعلاها فلا ترض لنفسك في الآخرة الا مثل ما رضى لك به من الدنيا ، وأوصيك بتقوى الله ، فعليكم نزلت ومنكم أخذت واليكم ترد » (٢) .

وكان صالح بن عبد الجليل عالما جليلا ، وزاهدا ورعا ، وكان يوصي المهدي فینصت له ، يقول صاحب العقد الفريد : « قام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي فقال : جاء في الأثر : من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل ، وأشد منه عذابا من أقبل اليه العلم فأدبر عنه : فاقبل يا أمير المؤمنين ما أهدى اليك من السنتنا قبول تحقيق وعمل ، لا قبول سمعة ورياء فانما هو تنبيه من غفلة ، وتذكير من سهو ، وقد وطن الله عز وجل نبيه عليه السلام على نزولها . فقال تعالى : (واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم) » (٣) .

وكان الزاهدون يجتمعون ويتواصون شعرا ونثرا ، وكانت الوصايا تدور حول التقوى ، وتجنب الناس وسوء الظن بهم ، وقد أورد الحافظ بن كثير في حوادث سنة ١٦٢ مجموعة من الوصايا الدينية لأعلام الزهد في ذلك الوقت . ومما أورده :

« قال ابراهيم بن ادهم : وقفت على باب راهب ، فأنشأ يقول :

(١) المنظوم والمنثور ج ١٣ ص ٥٠٣ . يتصرف .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١٦٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٥٨ .

خذ من الناس جانباً كى يعدوك راهباً
ان دهــــرا اظلمنى قد ارانى العجائباً
قلب الناس كيف شئــــ ست تجدهم عقارباً

قال بشر بن الحارث الحافى : فقلت لابراهيم بن ادم : هذه موعظة
الراهب لك ، فعظنى انت ، فأنشأ يقول :

توجس من الاخوان لا تبغ مؤنسا ولا تتخذ خلا ولا تبغ صاحبا
وكن سامرى الفعل من نسل آدم وكن أوحديا ما قدرت مجانيا
فقد فسد الاخوان والحب والاخا فلسـت ترى الا مذوقا وكاذبا
فقلت : ولولا أن يقال : مدهده وتنكر حالاتى لقد صرت راهبا

قال سرى : فقلت لبشر : فعظنى انت ، فقال : عليك بالخمول ولزوم
بيتك .

وقال الحلبي : فقلت لسرى : فعظنى انت ، فقال : عليك بالاخمال ،
وانشأ يقول .

يامن يروم بزعمه اخمالا ان كان حقا فاستعد خصالا
ترك المجالس والتذاكر يا أخى واجعل خروجك للصلاة خيالا
بل كن بها حيا كأنك ميت لا يرتجى منه القريب وصالا

وقال الحلبي : « أحب الأصمال الى الله ما صعد اليه من قلب زاهد فى
الدنيا ، فازهد فى الدنيا يحبك الله ، ثم أنشأ يقول :

انت فى دار شـماتات فتأهب لشـماتك
واجعل الدنيا كيوم صمته عن شهواتك
واجعل الفطر اذا ما صمته يوم وفاتك » (١)

وهذه وصايا لكبار الزاهدين ، وتتشابه هذه الوصويا فى الدعوة الى ترك مخالطة الناس ، وسوء الظن بهم ، والاخلاص لله .

ومن أجمل وصايا الفقهاء وصية الامام مالك للامام الشافعى رضى الله عنهما بعد أول لقاء بينهما اذ يقول مالك : « انى أرى الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية ، وقد قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » ومن الفرقان النور الذى يفرق به العبد بين الحق والباطل ، وكلما كان قلبه أقرب الى الله كان فرقانه أتم ، وبالله التوفيق » (١) .

وتكشف هذه الوصية عن مخايل النجابة التى ظهرت على الامام الشافعى منذ صغره ، كما تكشف عن النظر الثاقب عند الامام مالك ، وصدق ظنه فى تقدير الرجال .

(١) اعلام الموقعين ج ٤ ص ٢٥٨ محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية .
مكتبة الكليات الازهرية .

فى عهد الرشيد

كان أبو جعفر المنصور يصغى الى وصايا عمرو بن عبيد ، وكان المهدي يصغى الى وصايا شبيب بن شيبة ، وكان الرشيد يصغى الى وصايا ابن السماك ، ويقول الحافظ بن كثير :

« كان ابن السماك كثير الدخول على الرشيد وتوصيته ، قال له :
« انك تموت وحدك ، وتدخل القبر وحدك ، وتبعث منه وحدك ، فاحذر المقام
بين يدي الله عز وجل والوقوف بين الجنة والنار ، حين يؤخذ بالكظم وتزل
القدم ويقع الندم ، فلا توبة تقبل ، ولا عثرة تقال ، ولا يقبل فداء بمال » (١) :

بل ان الرشيد كان يرسل الى ابن السماك يستدعيه ويطلب منه الوعد والوصية ، وجاء فى تاريخ الطبرى : « استدعى هارون الرشيد ابن السماك ، فدخل فقال له : عظمى ، قال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك واقف غدا بين يدي الله ربك ، ثم مصروف الى احدى منزلتين لا ثالثة لهما : جنة أو نار ، فبكى هارون الرشيد حتى اخضلت لحيته » (٢) .

وكان هارون الرشيد حاد العاطفة قوى الانفعال كثير البكاء من خشية الله ، وكان يحب الموعظة ويطلبها من ابن السماك وغيره ، وكان يطلب الموعظة من أبى العتاهية ، فيعظه فى أبيات مؤثرة . يقول الحافظ بن كثير :

« قال الرشيد لأبى العتاهية : عظمى بأبيات من الشعر وأوجز . فقال :

لا تأمن الموت فى طرف ولا نفس ولو تمتعت بالحجاب والحرس

(١) البداية والنهاية ج ٢٠ ص ٢١٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٣٥٧ .

واعلم بأن سهام الموت صائبة لكل مدرع منها ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجرى على اليبس (١)

ومن المعلوم أن الرشيد وغيره من الخلفاء كانوا يعيشون عيشة مترفة ،
وكازن للرشيد ابن زاهد لا يرضيه هذا البذخ ، فأوصى أباه وحذره ، يقول
الحافظ بن كثير : « كان أحمد بن الرشيد زاهدا عابدا ، وكان يأكل من عمل
يده ، وأوصى الرشيد فقال : « اياك أن تموت فى سكرتك هذه فتندم حيث
لا ينفع نادما نسمة ، واحذر انصرافك من بين يدي الله الى احدي الدارين ،
وأن يكون آخر العهد بك ، فان ما أنت فيه لودام لغيرك لم يصل اليك ،
وسيصير الى غيرك ، وقد بلغك أخبار من مضى » (٢) .

ومن أشهر الوصايا الدينية وصية الامام مالك لهرون الرشيد ، وقد
كتبها الامام مالك حرصا على الاستفادة بها ، وطبعت هذه الرسالة فى حوالى
ثلاثين صفحة ، ويبدو عند قراءة الوصية أن الامام لم يقصد الى أن تكون
خاصة بالرشيد ، وانما قصد أن يكون نفعها عاما ، ففيها أوامر ونواه
لا توجه الى الرشيد كقوله : « اذا حضرت السلطان فاشفع بخير » .

بدأ الوصية بحمد الله والصلاة على رسول الله ، ثم قال : « أما بعد ،
فانى كتبت اليك بكتاب لم ألك فيه رشدا ، ولم أدخرك فيه نصحا ، فتدبره
بعقلك ، وردد فيه بصرك ، وارع سمعك ، فان فيه الفضل فى الدنيا ، وحسن
ثواب الله تعالى فى الآخرة » .

ثم يذكر الرشيد بالموت القادم ، والوقوف بين يدي الله وهول المحشر ،
وزفير اهل النار ، مما يصغر معه كل ملك فى الدنيا ، ويرسم الامام مالك
الى جانب ذلك اهل الطاعة ومنزلتهم ونصرة وجوههم ، وبحثه على
إنقاذ نفسه .

ثم يوصيه بالصلاة واتقانها ، وبصيام ثلاثة أيام من كل شهر ،

(٣) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢١٨ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٨٤ .

وبإخراج الزكاة وبإداء الحج ، ويستدل بالقرآن الكريم وبالحديث الشريف ثم يوصيه بالأحسان الى الرعية ويحذره من الكبر والزهو ومن بطانة السوء ويقول : « اتق أهل الفحش ومجالسة أهل الردى ومجالسة الضعفة من الناس فإنه بلغنى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « اعتبر الناس بأخذانهم فإنما يخادن الرجل الرجل مثله » .

ويوصى باكرام اليتيم وابن السبيل واعانة المظلوم وانصاف الناس من نفسه وصلته الرحم والوفاء بالموعد والدعاء للموالدين فى كل صلاة ، وبحثه على ذكر الله فى كل عمل فيقول : « اذا ركبت دابة فوضعت رجلك فى الركاب فقل : باسم الله ، واذا استويت راكبا فقل : (سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) . فإنه بلغنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول ذلك كلما ركب دابة » .

ويوصيه بتأديب ولده ومن ولى امره ، وينهاه عن الإسراف وعن لبس الحرير والمعصر وعن استعمال الذهب والفضة . وعن اكل لحم شيء من السباع ولا ذى مخلب من الطير .

وتتطرق الوصية الى بعض المسائل الفقهية ويوصى فيها بما يوافق مذهبه ، ومن ذلك قوله : « ارفع يدك فى عشرة مواطن : اذا دعوت عند افتتاح الصلاة والعيدى والقنوت والتكبير ، وعند استلام الحجر وعرفة والمزدلفة والصفة والمروة والجمار ، روى ذلك عن ابن عباس ، وعند افتتاح الصلاة والقنوت والعيدى ترفعهما حتى تحاذى ابهامك اذنك » .

ويختتم وصيته بالحث على قبول ما جاء بها فيقول : « وليكن منك فيما كتبت اليك من القيام بأمر الله تعالى ، واتباع ما هو امله ما ترجو به القربة عند الله تعالى ، والله الموفق للصواب واليه المرجع والمآب » (١) .

وكان الشافعى محببا الى هارون الرشيد ، وأوصى الشافعى الرشيد وصية نبهه فيها الى أن هذه النعم ابتلاء من الله تعالى ، ولها ثمن هو الشكر

يقول ! يا أمير المؤمنين اعلم أن الله جل ثناؤه امتحنك بالنعم وابتلاك بالشكر، فكن لله تعالى شاكرا ولآلائه ذاكرا تستحق منه المزيد ، واتق الله فى السر والعلانية تستكمل الطاعة » .

ولما كان الخلفاء والكبراء مظنة التعالى على الموصين أوصاه بأن يسمع وصية من دونه ، وأن يكون ظاهره مطابقا لباطنه فقال : « واسمع لقائل الحق وإن كان دونك تشرف عند الله وتزد فى عين رعيك ، واعلم أن الله تعالى يفتش سرى ، فإن وجده بخلاف علانيتك شغلك بهم الدنيا وفتق لك ما يزلق عليك ، واستغنى الله ، والله غنى حميد ، وإن وجده موافقا لعلانيتك أحبك وصرف هم الدنيا عن قلبك » .

ثم أوصاه باتباع كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وطريق الخلفاء الراشدين فقال : « وعليك بكتاب الله الذى لا يضل المسترشد به ، وعليك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تكن على طريقة الذين هداهم الله فيهداهم اقتده ، وما نصب الخلفاء المهديون فى الخراج والأرضين والسواد والمسكن والديارات ، فكن لهم تبعا وبه عاملا » .

وختم الوصية بطاعة الله والنصح للرعية ، وبين له سوء العاقبة لمن لم ينصح رعيته ، « وكن لله كما تحب أن يكون لك أولياؤك من العامة من السمع والطاعة ، فإنه ما ولى أحد على عشرة من المسلمين فلم يحطهم بنصيحة الا جاء يوم القيامة ويده مغلولة الى عنقه لا يفكها الا عدله ، وانت أعرف بنفسك » (٢) .

وكان العلماء يبذلون الوصية والنصيحة لكل من يتصل بهم خالصة لله تعالى ، وكما أوصى الشافعى هارون الرشيد أوصى أخا له فى الله تعالى ، وحذره من الركون الى الدنيا والاغترار بها ، وأوصاه باللجوء الى الله ، يقول الجنيد : « وعظ الشافعى أخا له فى الله تعالى فقال :

يا أخى ، ان الدنيا دحض مزلة ، ودار مذلة ، عمرانها الى الخراب صائر ، وساكنها الى القبور زائر ، شملها على الفرقة موقوف وغناها الى الفقر مصروف ، الاكثار منها اعسار ، والاعسار فيها يسار ، فافزع الى الله وارض رزق الله ، لا تستسلف من دار بقائك فى دار فنائك ، فان عيشك فى زائل ، أكثر من عملك ، وقصر من أملك » (١) .

وكان العلماء يوصى بعضهم بعضا بما يعتقدون أنه الحق ، وحدث خلاف فى وجهات النظر بين الامام مالك امام المدينة المنورة ، والامام الليث ابن سعد امام مصر ، حيث كان الليث بن سعد يرى لنفسه وللعلماء المهيبين للفتيا الحق فى الافتاء بما يرونه موافقا لمبادئ الدين فى المسائل التى لم يرد فيها نص صريح من الكتاب أو السنة ، وأنكر الامام مالك على الليث بن سعد أن يفتى بأراء مخالفة لرأى أهل المدينة ، وكتب مالك الى الليث رسالة يوصيه بالالتزام بفتيا أهل المدينة ، وعلل لوصيته حتى تجد قبولا لدى صديقه الليث بن سعد ، فبين فضل المدينة المنورة التى كانت اليها هجرة الرسول عليه السلام ، والتى قام فيها أبو بكر وعمر ومن خلفهما ثم سار التابعون على هذا المنهج القويم ، وفى بيان فضل المدينة المنورة يقول :

« فانما الناس تبع لأهل المدينة ، اليها كانت الهجرة ، وبها تنزل القرآن ، وأحل الحلال وحرم الحرام ، وبها كان الصحابة ، انه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم يحضرون الوحى والتنزيل ، ويأمرهم فيطيعونه ، ويسن لهم فيتبعونه ، حتى توفاه الله ، ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ممن ولى الأمر من بعده ، فما علموا أنفذوه ، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه ، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا فى ذلك فى اجتهادهم ، وان خالفهم مخالف ترك قوله وعمل بغيره ، ثم كان الناس من بعدهم يسلكون تلك السبيل ، فاذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا معمولا به لم أر لأحد خلافة للذى فى أيديهم من تلك الوراثة » .

(١) نهاية الادب ج ٥ ص ٢٤٩ - أحمد بن عبد الوهاب النويرى . مطبعة

ثم يختم وصيته بأنه لم يقصد الا النصيحة لله والنظر لصاحبه ، ويوصيه بقبول وصيته فيقول : « فأنظر - رحمك الله - فيما كتبت اليك لنفسك ، واعلم أنى أرجو ألا يكون قد دعانى الى ما كتبت اليك الا النصيحة لله وحده ، والنظر لك والضم بك ، فأنزل كتابى منزلته ، فانك ان فعلت تعلم أنى لم ألك نصحا ، وفقنا الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله فى كل أمر ، ، وعلى كل حال ، والسلام عليك ورحمة الله » (١) .

وأوصى القاضى شريك بن عبد الله نفسه ، وكان يحمل الوصية معه وينظر فيها قبل الحكم حتى يذكر نفسه فلا تنسى ، يقول الحافظ بن كثير : « كان لا يجلس للحكم حتى يتغدى ، ثم يخرج ورقة من حقه فينظر فيها ، ثم يأمر بتقديم الخصومة اليه ، فحرص بعض أصحابه على قراءة ما فى تلك الورقة ، فاذا فيها : « يا شريك بن عبد الله اذكر الصراط وحدته ، يا شريك ابن عبد الله اذكر الموقف بين يدى الله عز وجل » (٢) .

(١) أعلام الموقعين ج ٤ ص ١٢٣ محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية . دار

الجيل . بتصرف .

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٧١ .

فى عهد المأمون

كان المأمون خليفة عادلا ، وكان متدينا ، وقد قدمنا له وصايا سياسية واجتماعية وكان حريصا على تنشئة أولاده على المبادئ الدينية والأخلاق السامية ، وأوصى ابنه العباس بالتنافس فى الخير والحرص على العدل وأحياء السنة الصالحة وامانة البدعة ، والاحسان فى معاملة الناس ، يقول :

« ينبغى يابنى لمن أسبغ الله عليه نعمه وشركه فى ملكه وسلطانه وبسط له فى القدرة أن ينافس فى الخير بما يبقى ذكره ويجب أجره ويرجى ثوابه ، وأن يجعل همه فى عدل ينشره ، أو جور يدفعه ، وسنة صالحة يحييها ، أو بدعة يميتهها ، أو مكرمة يعتقدها ، أو صنعة يسديها ، أو يد يردعها ويوليها ، أو أثر محمود تتبعه » (١) .

والحقيقة أنه ليست هناك حدود فاصلة بين السياسة والاجتماع والدين ، فكثير من الوصايا جمعت بين الألوان الثلاثة ، وقد قدمنا فى حديثنا عن الوصايا السياسية وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله فى عهد المأمون ، وهى وصية مطولة أعجب بها الخليفة المأمون وحفظها الكتاب وتداولوها ، وجاء فى مطلع الوصية :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لاشريك له ، وخشيته ومراقبته ومزايلة سخطه وحفظ رعيته ، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر اليه وموقوف عليه ومسئول عنه ، والعمل فى ذلك كله بما يعصمك من الله وينجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن اليك وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده والزمك العدل عليهم » (٢) .

وبرز فى عهد المأمون على بن موسى الرضا وكان زعيم الشيعة ، واختاره

(١) كتاب بغداد ج ٦ ص ٥٣ - ابن طيغور .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٥٨٢ .

المأمون لولاية العهد وزوجه ابنته ، ولكنه مات فى عهد المأمون ، وقد أوصى على بن موسى بعدم الركون الى الدنيا والتعلق بالآمال الخادعة فقال :

لا تغرنك أباطيل المنى والزم القصد ودع عنك العلل
انما الدنيا كظل زائل حل فيه راكب ثم ارتحل (١)

وكان أحمد بن حنبل أبرز الفقهاء فى ذلك العهد ، وحفظت له وصية دينية يوصى فيها أهله وقرابته ويؤكد تمسكه بحبل الله ، ويوصى بقضاء دين عليه واعطاء أولاده أنصباهم بعد قضاء ماعليه ، يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أحمد بن محمد بن حنبل ، أوصى أنه يشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله فى العبادين ويحمدوه فى الحامدين ، وأن ينصحوها لجماعة المسلمين ، وأوصى أنى رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ، وأوصى أن لعبد الله بن محمد المعروف ببوران على نحو من خمسين دينارا ، وهو مصدق فيما قال ، فيقضى ماله على من غلة الدار ان شاء الله ، فاذا استوفى أعطى ولدائى : صالح وعبد الله ابنا أحمد ابن محمد بن حنبل كل ذكر وأثنى عشرة دراهم بعد وفاء ماعلى لابن محمد •

شهد أبو يوسف وصالح وعبد الله ابنا أحمد بن محمد بن حنبل « (٢) •

ومن أبرز المسائل التى ثارت حولها خلافات حادة فى عهد المأمون مسألة خلق القرآن ، وقد اعتنق المأمون مذهب المعتزلة وقال : بخلق القرآن ، وحمل العلماء على اتباع هذا المذهب ، وعارضه كثير من العلماء وفى مقدمتهم أحمد بن حنبل ، ولم يكتف المأمون بالجدل المنطقي بل تعداه الى الحاق الأذى بمعارضيه ، ولحق أحمد بن حنبل أذى كثير ، ولكنه وقف ثابتا لا يتزعزع عن رأيه ، وأوصى أصحابه بالتمسك بالقول بأن القرآن قديم غير مخلوق ، وورد فى ذلك :

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٥٠ •

(٢) حلية الأولياء ج ٩ ص ٢١٢ •

بعد الخليفة المأمون الى منتصف القرن الثالث

كانت وصايا الخلفاء تجمع بين السياسة والاجتماع والدين ، وكانوا يبدءون بالوصية الدينية غالبا ، وتشمل الوصية الدينية كل مبادئ الخير ، وحينما ولى الخليفة المعتصم ابنه الواثق على مكة أوصاه بقوله : « فعليك بتقوى الله تعالى والتوسعة على أهل بيته » (١) .

وفى وصية أحد العلماء للمتوكل يقول : « ان أخسر الناس صفقة يوم القيامة من أصلح دنيا غيره بفساد آخرته ، واذكر ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة ، وأول ليلة يخلو المرء فى قبره بعمله » (٢) .

ولما عقد الخليفة المتوكل البيعة لبننيه الثلاثة كتب العهد بذلك وجاء فيه :

« انه جعل الى محمد المنتصر بالله بن جعفر الامام المتوكل على الله أمير المؤمنين ولاية عهد المسلمين فى حياته ، والخلافة عليهم من بعده ، وأمره بتقوى الله التى هى عصمة من اعتصم بها ، ونجاة من لجأ اليها ، وعز من اقتصر عليها ، فان بطاعة الله تتم النعمة ، وتجب من الله الرحمة ، والله غفور رحيم » (٣) .

ومن الوصايا الطريفة ماكتبه الجاحظ الى أحد أصحابه ، وأوصاه بالحلم والأناة والعفو عن المصائب وفيها يقول : « عليك بالأناة فانك على ايقاع ما أنت موقعه أقدر منك على رد ماقد أوقعته » (٤) .

وفى موقف آخر يقول : « وليس يصارع الغضب أيام شبابه شيء

(١) زهر الآداب ج ٤ ص ١٠٩٧ .

(٢) أحكام أهل النمة ص ٢٢١ - ابن قيم الجوزية . مطبعة جامعة دمشق

(٣) تاريخ الطبري ج ٩ ص ١٧٧ .

(٤) رسائل الحافظ ج ١ ص ٢٤٢ - مطبعة السنة المحمدية .

الا صرعه ، ولا ينازعه قبل انتهائه وادباره شيء الا قهره ، وانما يحتال له قبل هيجه ، ويتقدم فى حسم أسبابه وفى قطع علله ، فأما اذا تمكن واستفحل ، وأذكى ناره وأشعل ، ثم لاقى ذلك من صاحبه قدرة ، ومن أعوانه سمعا وطاعة ، فلو أسعطته بالتوراة ووجرته بالانجيل ولددته بالزبور ، وأفردت على رأسه القرآن افراغا ، وأتيته بآدم عليه السلام شفيعا لما قصر دون أقصى قوته ، وقد جاء فى الأثر : ان أقرب ما يكون العبد من غضب الله اذا غضب .

فلا تقف - حفظك الله - بعد مضيك فى عتابى التماسا للعفو عني ، ولا تقصر عن افراطك من طريق الرحمة بى ، ولكن قف وقفة من يتهم الغضب على عقله ، والشيطان على دينه ، ويعلم أن للكرام أعداء ، ويمسك امساك من لا يبرىء نفسه من الهوى ، ولا تنكر لنفسك أن تزل ، ولعقلك أن يهفو ، فقد زل آدم صلى الله عليه وسلم ، ولست أسألك الا ريثما تسكن نفسك ، ويرتد اليك ذهنك ، وترى الحلم وما يجلب من السلامة وطيب الأحدوثة «(١)» .

وفى دار الكتب المصرية كتاب مطبوع عنوانه (الوصايا - أو - النصائح الدينية) . مؤلفه الحارث بن أسد المحاسبى المتوفى سنة ٢٤٢ هـ ، ويتحدث الأستاذ المحقق عن منهج الكتاب فيقول : « ينزع المؤلف الى بناء انسان متكامل ، وشعاره : ان الانسان يجب أن يكون ابن وقته أولا ، لا يأسى على الماضى ، ولا يقلق من المستقبل ، وهو يدعو الى عدم الانحراف مع الهوى ، وينهى عن الجرى وراء المال »(٢) .

والكتاب مقسم الى واحد وأربعين فصلا فى مائة وسبعين صفحة ، ويحوى وصايا عامة لا تخضع لمنهج منظم ، ونرى فيها تكرارا وتداخلا فى أبواب الكتاب ، وبعض هذه الوصايا لا يتقبلها عامة الناس ولا يقول بها الا المتصوفون كما فى حديثه عن السرور بمصائب الدنيا ، والرضا بالمذمة .

(١) المرجع نفسه ص ٢٦٠ بتصرف يشير - وجره الدواء جعله فى فيه - اللدود واللدديد ما انصب من الدواء فى الفم .
 (٢) الوصايا . مقدمة الكتاب . بتصرف . الحارث بن أسد المحاسبى .
 محمد على صبيح .

ونورد هنا بإيجاز شديد ما يوصى به المحاسبى فى هذا الكتاب :

- الباب الأول يدور حول حتمية الموت
- الباب الثانى عن تبدل شرائع الايمان
- الباب الثالث يقول : ان المال أصل البلاء
- الباب الرابع فى القناعة والتواضع
- الباب الخامس فى الحلال وندرته
- الباب السادس فى الاقتصاد فى الانفاق وعدم الاسراف
- الباب السابع فى ذم البخيل
- الباب الثامن فى تحبيب العزلة والتحذير من مخالطة الناس
- الباب التاسع فى السرور بمصائب الدنيا
- الباب العاشر فى مكائد الشيطان فى الطاعات
- الحادى عشر فى التحذير من الاعجاب بالأعمال
- الثانى عشر فى علاج الكبر
- الثالث عشر فى تفقد السرائر وتطهيرها من الغل والحسد
- الرابع عشر فى فرائض العقول والجوارح
- الخامس عشر فى رعاية الجوارح والقلوب
- السادس عشر فى النفس الأمارة بالسوء
- السابع عشر فى تفاوت العاملين بالبر
- الثامن عشر فى العلم النافع وأهمية النية
- التاسع عشر فى شرف العقل
- العشرون فى أصناف الناس فى محاب الله تعالى
- الحادى والعشرون فى أصناف الناس فى حب ما ييغضه الله
- الثانى والعشرون فى خشوع القلوب مع الأبدان
- الثالث والعشرون فى الصوم
- الرابع والعشرون فى وجوب نية النوافل لاتمام نقص الفرائض
- الخامس والعشرون فى وجوب نية العمل لمحو السيئات
- السادس والعشرون فى وجوب الانابة من الآثام
- السابع والعشرون فى وجوب الاسرار بالدعاء
- الثامن والعشرون فى وجوب الدعاء بالقلب واللسان

- التاسع والعشرون فى التدبر عند تلاوة القرآن
- والثلاثون فى وجوب التطهر من المال الحرام
- الحادى والثلاثون فى تجنب الشبهات
- الثانى والثلاثون فى النية الصحيحة لبذل المال
- الثالث والثلاثون فى طرق شكر النعم
- الرابع والثلاثون فى تصحيح السلوك العلمى
- الخامس والثلاثون فى وجوب الاسرار بأعمال البر
- السادس والثلاثون فى أخطار المدح
- السابع والثلاثون فى فضل الرضا بالمدمة
- الثامن والثلاثون فى وجوب تفقد القلوب
- التاسع والثلاثون فى التقرب بطاعات القلوب
- والأربعون فى آفات العلم
- والحادى والأربعون فى خمول الذكر وإخفاء أعمال البر

ويبدأ المؤلف كل فصل بقوله : اخوانى ، ويكرر نداء اخوانه فى ثنايا

حديثه •

فى النصف الثانى من القرن الثالث

ظلت الوصية بتقوى الله تتصدر الوصايا كما نرى فى وصية الموفق لأحد رجاله حين ولاه الصلاة والحرب والأحداث وأوصاه ، وقد قلنا : ان الوصية تجمع بين السياسة والاجتماع والدين ، وترد الوصايا الدينية فى المقدمة وفى ثنايا الوصية ، وقد بدأ الوصية بتقوى الله فى السر والعلانية ، واستشهد بأية قرآنية كريمة • يقول فى مطلع الوصية :

« أمره بتقوى الله وطاعته وخشيته ومراقبته فى سره وعلانيته وظاهر أمره وباطنه ، والعمل بما أمر الله به ، والانتهاى عما نهى عنه فيما وافقه وخالفه وأرضاه وأسخطه ، فانه من يتق الله يقه ، ومن يعتصم به يهده ، ومن يطعه يتوله ويكفه • ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » •

ويستمر فى الوصية بهذه المعانى المعروفة ، ويأمره بالتمسك بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام فيقول : « وأمره أن يشعر قلبه خيفة الله وهيبته والتفويض اليه والاعتماد عليه ، وأن يجعل كتاب الله عز وجل له اماما ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مثالا ، فان فيهما دلالة وتبياناً وضياء ونورا وشفاء لما فى الصدور » •

ويخص الصلاة لأنها عماد الدين فيقول : « وأمره أن يكون أول ما يعنى به ويؤثره اقامة الصلاة لمواقيتها باتمام ركوعها وسجودها ، وأداء فرض الله فيها ان كانت عماد الدين وأفضل ما تقرب به المؤمنون ، وكان من أضعافها وقصر فى واجبها أشد تضييعا لما سواها من حقوق الله عز وجل وفرائضه ودينه وشرائعه ، وانها لكبيرة الا على الخاشعين » •

ويوصيه كذلك بتحرى الصواب فى أحكامه ، واليقظة فى تطبيق الحدود باتباع الكتاب أو السنة أو الاجماع ، وهنا ينص على أن الاجماع مصدر من مصادر التشريع الاسلامى • يقول : « وأمره أن تكون أحكامه فيما ينفرد

بالنظر فيه واقامته من الحدود وما أشبهها بما يجب لله عليه فى ذلك من
اتباع محكم تنزيل أو مأثور سنة أو رأى يتفق عليه نبيل محسن ومن يليه
من الفقهاء وذوى المعرفة « (١) .

ونشطت الوصايا الصوفية فى القرن الثالث الهجرى ، وسنتحدث عن
وصايا الصوفيين فى القرنين الثالث والرابع معا ان شاء الله .

فى القرن الرابع الهجرى

لم يعد الخلفاء يفتحون صدورهم لوصايا العلماء والزاهدين ، وقلت الوصايا الموجهة الى كبار رجال الدولة ، ولكننا لا نعدم أمثال هذه الوصايا ، ومن أشهرها وصية أبى الحسن الماوردى لأحد الوزراء يوصيه بمراعاة الله فى معاملته للرعية ، وتمتزج الوصايا السياسية والاجتماعية بالوصايا الدينية لاتصال الدين بأمور الحياة جميعها .

بدأ الماوردى بوصية الوزير بمراقبة الله تعالى فى خلوته ، وبمراقبة السلطان أيضا وجعل فى هذا سعادة العاجلة والآجلة ، ولم ينس تقديم حق الله تعالى على حق السلطان اذا تعارضا فقال : « اجعل أيها الوزير لله تعالى على شرك رقيقا يلاحظك من زيغ فى حقه ، واجعل لسلطانك على خلوتك رقيقا يكفيك عن تقصير فى أمره ، ليسلم دينك فى حقوق الله تعالى ، وتسلم دنياك فى حقوق سلطانك فتسعد فىء اجلتك وأجلتك ، فان تنافى اجتماعهما لك فقدم حق الله تعالى على حق الملك ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أحب دنياه أضر بأخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا مايبقى على مايفنى . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : من التمس رضا الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى الناس » (١) .

وكانت معظم الوصايا الدينية ترد فى ثنايا العهود التى يكتبها الخلفاء للولاة والقواد وأرباب السيوف ، وجاءت هذه الوصايا متشابهة تدور حول تقوى الله والعمل بكتابه وسنة رسوله وأداء الفرائض والعدل بين الناس وما شابه ذلك ، وحفل كتاب صبح الأعشى للقلقشنذى بكثير من هذه العهود ، ونكتفى هنا بعرض عهدين صدر أحدهما عن الخليفة الطائع لله ، وصدر الثانى عن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى .

(١) نهاية الارب ج ٦ ص ١٣٢ بتصرف .

صدر العهد الأول عن الخليفة الطوائع لله بتقليد الشريف أبى الحسن محمد ابن الحسين بن موسى العلوى نقابة الطالبيين والاشراف على المساجد ، وبدأ العهد بالوصية بالتقوى فقال : « أمره بتقواه الله التى هى شعار المؤمنين وسيمما الصالحين وعصمة عباد الله أجمعين ، وأن يعتقدها سرا وجهرا ، ويعتمدها قولاً وفعلاً ، فيأخذ بها ويعطى ويريش ويبرى ويأتى ويذر ويورد ويصدر ، فانها السبب المتين والمعدل الحصين والزاد النافع يوم الحساب ، والمسلك المفضى الى دار الثواب ، وقد حض الله أوليائه عليها ، وهداهم فى محكم كتابه اليها فقال : (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » .

ثم أمره بتلاوة القرآن والتمسك بأحكامه وتنزيه نفسه عن الشبهات فقال : « وأمره بتلاوة كتاب الله مواظبا ، وتصفحه مداوما ملازما ، والرجوع الى أحكامه فيما أحل وحرم ونقض وأبرم وأثاب وعاقب وباعد وقارب ، وأمره بتنزيه نفسه عما تدعو اليه الشهوات وتنطلق اليه النزوات ، وأن يضبطها ضبط الحكيم ، ويكفها كف الحليم » .

ثم يأمره بتفقد أحوال الرعية ، وحياطة النسب الهاشمى من أن يدعيه أحد ، ويمراعاة الصالحين والنظر فى المظالم ، ويأمره بحماية الحجاج ورعاية المساجد ، وما الى ذلك من الأمور التى تمس الدين والمجتمع (١) .

وكاتب العهد أبو اسحاق الصابى ، وختم العهد بتاريخه حيث يقول : « وكتب فى مستهل شعبان سنة ثمانين وثلثمائة » . وواضح أن العهد يهتم بالافتنان وجمال الأسلوب فى المقام الأول ، وأن الوصية الدينية صارت تقليدا متشابهها فى كل عهد يصدر عن الخلفاء .

أما العهد الثانى الذى نعرضه هنا فعهد كتب عن الحاكم بأمر الله الفاطمى للحسين بن على بن النعمان ، بقضاء الديار المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب ، مضافا الى ذلك النظر فى دور الضرب وأمر المساجد . فى شهر ربيع الأول سنة ٣٨٩ هـ . ويبدو فى هذا العهد النظريات الشيوعية حيث

ينتسبون الى محمد صلى الله عليه وسلم ، والى على بن أبى طالب سيد الأوصياء كما يقولون ، ويتحدثون عن آبائهم الأئمة النجباء •

ويبدأ العهد ببيان المهام الموكولة الى الحسين بن على بن النعمان ، ثم يأمره بتقوى الله فيقول : « أمره أن يتقى الله عز وجل حق التقوى فى السر والجهر والنجوى ، ويعتصم بالثبات واليقين والنهى ، وينفصم عن الشبهات والشكوك والهوى ، فان تقوى الله موئل لمن وال إليها حصين ، ومعقل لمن اقتفاه أمين ، قال تبارك وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » •

وتبدو العقيدة الشيعية فى قوله : « وأن يجعل كتاب الله وسنة جدنا محمد خاتم الأنبياء ، والمأثور عن أبينا على سيد الأوصياء ، وآبائنا النجباء ، صلى الله على رسوله وعليهم قبله لوجهه إليها يتوجه ، وعليها يكون المتجه » •

ثم يأمره بالنظر فى المظالم وفى الشهود الذين بهم يقطع فى منافذ القضاء ، ويأمره برعاية اليتامى وأولى الخلل ، وأن يشارف أئمة المساجد ، ويرعى دار الضرب وعيار الذهب والفضة ، وما الى ذلك •

ويختتم الوصية بأهمية الوفاء بالعهد والاهتداء بهدى أمير المؤمنين فيقول :

« هذا ماعهد أمير المؤمنين فأوف بعهدك تهتد بهديه وترشد برشده ، وهذا أول امرة أمرها لك ، فاعمل بها وحاسب نفسك قبل حسابها ، ولا تدع من عاجل النظر لها أن تنظر لمآبها (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون) » •

وكتب فى يوم الأحد لسبع ليال بقين من صفر سنة ٢٨٩ هـ (١) •

ولا تخرج الوصايا الواردة فى العهود فى القرن الرابع الهجرى عن هذه المعانى التى رأيناها فى هذين العهدين •

وصايا الشيعة

وللشيعة وصاياهم الخاصة التي توافق معتقداتهم ، ومعروف أن الشيعة يقدسون خلفاءهم ، ويزعمون أن هؤلاء الخلفاء ملهمون من الله ومنزهون عن الخطأ ، بل ويزعمون أنهم يعلمون الغيب ، ويوافقهم الخلفاء أنفسهم في هذه الادعاءات ، ويدعو دعاة الشيعة الى اقتفاء آثار الخلفاء وكان أفعالهم تشريعات ملزمة •

واستطاع الفاطميون اقامة دولة شيعية في المغرب العربي ، ثم استولوا على مصر ونقلوا اليها عاصمتهم في منتصف القرن الرابع الهجري ، وكان لهم دعاة يذيعون بين الناس تقديس خلفائهم ، ومن كبار هؤلاء الدعاة القاضي النعمان بن محمد ت ٣٦٣ هـ ، له (كتاب المجالس والمسائرات) وفيه وصايا القاضي النعمان لعامة الشعب) وفيه وصايا الخليفة المنصور والخليفة المعز لدين الله الفاطمي •

ومن وصايا القاضي النعمان وصية للقضاة بأداء الامانة فيما قلده من أعمال ، وامثال ماعهد به أمير المؤمنين عليه السلام (كما يقول) ويسمى الخليفة ولي الله ، ويجعل مايصيبونه من فضله ، ويجعل ثواب الله أثرا لطاعته • ومن قوله للقضاة :

« ان أحق مانظرتم فيه وعملتم له الوفاء بالعهد وأداء الأمانة فيما قلدتموه ، وامثال ماعهد أمير المؤمنين عليه السلام اليكم فيه ، لما يجب لله وله عليكم في ذلك ، ولا أقل من أن تنظروا فيما تدوم لكم به النعمة ، وأن تقتدوا في ذلك بمن تشاهدونه من عوام الناس من ضراب وصائغ وخياط وأمثالهم من الصنائع ، فقد ترون أن أحدهم يسلم اليه العمل يساوى المال العظيم يعمل بالأجر التافه اليسير ، ولا يشهد به عليه ، ولا يتوثق فيه منه ، وقد يكون فقيرا أو غيره •

وأنتم تصيبون من فضل ولي الله ما ان استدمتموه بحفظ ما استحفظكم دام لكم مع حسن الأحداث فيكم ورجاء الزيادة لكم وما ترجون من ثواب ربكم ، فمن سمع من أولياء الله مثل ماقدمت ذكره فلينزل على مانزله ،

ولا يذهب به الى حيث ذهب من نطق الكتاب بذمه ، وبين الله عليه فساد ماتوهمه وذهب اليه ، والله يهدي من تمسك بحبل أوليائه الى طاعته وطاعتهم ، والعمل بما يرضيه ويرضيهم قولاً وعملاً ونية وموافقة للصواب ان شاء الله تعالى « (١) » .

ويردد الخلفاء أنفسهم هذه المعانى ، ويزعم المعز لدين الله الفاطمى أن الخير كله فى الاقتداء بخلفائهم ، وأن يفعلوا مايؤمنون به ويجتنبوا مايتهنون عنه ، ويقول :

« ان الخليفة المنصور أوصاه بذلك عند احتضاره . ومن قوله :

« يكفيكم من وصايانا اليكم أنا نأمركم أن تقتدوا بنا فى جميع الأمور كلها ، مارأيتمونا نحبه ونفعله ونأمر به فعلتموه وأمرتم به ، وما رأيتمونا نكرهه ونتجنبه كرهتموه وتجنبتموه ، ففينا والله لكم خير أسوة حسنة .

والله انها وصية المنصور عليه السلام وقد احتضر ، قال لى : اننى أجمع لك الوصايا كلها فى كلمة واحدة ، فانظر ، فما كنت رأيتنى أفعله فافعله ، وما كنت رأيتنى تركته فاتركه ، واصنع بعد وفاتى ماكنت رأيتنى أصنع فى حياتى ، فنعم السلف أنا لك « (٢) » .

وهناك وصايا دينية أخرى لا تدور حول تقديس الخلفاء ، وانما تدور حول أوامر ونواه تتصل بالدين ، ومن ذلك وصية المنصور للمعز لدين الله الفاطمى ينهاه عن زيارة قبره حيث يقول :

« دع عنك ملازمة قبرى والاختلاف اليه ، فان ذلك يبعث الحزن ولا يؤدى الى غاية من الحزم ، وانما يفعله الجاهل من الرجال ، فان لم يكن لك من ذلك بد فالوقفة بعد المدة للترحم ، ثم تنصرف بسرعة ، ومن عرف مصير الأرواح لم يلتفت الى محل الأبدان » (٣) .

(١) كتاب المجالس والمسائرات ص ٥٣ - القاضى النعمان بن محمد - المطبعة

الرسمية للجمهورية التونسية .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٤١ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٣١ .

وصايا الصوفيين

من المعروف أن اصطلاح التصوف لم يظهر الا فى أواخر القرن الثانى الهجرى أو بعد سنة مائة وثمانين ، أما قبل ذلك فكان هناك الزهد ، وكانت هناك وصايا الزاهدين ، ومن أشهر هؤلاء الزاهدين أبو العتاهية الذى برز فى عهد الرشيد ، وأيضا ابراهيم بن أدهم وقد اشتهر أمره فى عهد المنصور ثم المهدي ، وقد أوردنا لهما فيما مضى بعض الوصايا •

ونرى فى وصايا ابراهيم بن أدهم ملامح تشبه وصايا الصوفية ، ولا نستطيع أن نقول : ان التصوف عرف منذ منتصف القرن الثانى ، ولكننا نقول : ان المعانى التى ردها المتصوفون بدأت تجرى على بعض الألسن منذ منتصف القرن الثانى الهجرى ، وقد أورد القشيري اسم ابراهيم بن أدهم فى الرسالة القشيرية ضمن مشاهير المتصوفين ، ولكننا كما قلنا : لا نعدم ضمنهم ، وانما نرى فى أقواله ملامح من ملامح المتصوفين كما فى وصيته لرجل فى الطواف :

« اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات :

- أولاها : تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة •
- والثانية : تغلق باب العز وتفتح باب الذل •
- والثالثة : تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد •
- والرابعة : تغلق باب النوم وتفتح باب السهر •
- والخامسة : تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر •
- والسادسة : تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت « (١) •

فاغلاق باب العز وفتح باب الذل ، واغلاق باب النوم وفتح باب السهر شبيه بما رده الصوفيون بعد ذلك •

وفى القرن الثالث الهجرى ازدهر التصوف وظهر كبار المتصوفين واتسعت نظرياتهم التى اتسم بعضها بالاعتدال ، واتسم بعضها بالتطرف ، وسنعرض هنا بعض وصايا المتصوفة ، ونبدأ بعرض الوصايا التى صدرت عن متصوفة قضوا معظم حياتهم فى النصف الأول من القرن الثالث ، ثم نعرض وصايا المتصوفة الذين قضوا حياتهم فى النصف الثانى من القرن الثالث .

والحقيقة أننا لا نستطيع أن نجزم بالسنة التى قيلت فيها هذه الوصايا فكثير من هذه الوصايا وردت فى كتب التراث وفى كتب التصوف منسوبة الى أصحابها غير محددة للسنة التى قيلت فيها ، وكثير من هؤلاء المتصوفين عاشوا فى النصف الأول وفى النصف الثانى ، كما أن بعض هؤلاء المتصوفين عاشوا فى القرنين الثالث والرابع .

ونستطيع أن نقول : أن كتبنا الفت فى النصف الأول من القرن الثالث تدعو الى المبادئ التى يقرها الصوفيون ، وقد تحدثنا منذ قليل عن كتاب الوصايا الذى ألفه الحارث بن أسد المحاسبى أحد المتصوفين والمتوفى سنة ٢٤٣ هـ .

وخاض بعض المتصوفة مشكلات عصرهم ، ومن هؤلاء أبو السرى منصور بن عمارت سنة ٢٢٥ هـ وعاصر الخليفة المأمون المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، وكانت مسألة خلق القرآن أبرز المسائل العقائدية التى ثارت فى عصر المأمون ، فقد عذب العلماء الذين رفضوا القول بخلق القرآن ، وقد كتب منصور ابن عمار الى بشر المريسى يوصيه بعدم الخوض فى هذه المسألة . حيث يقول :

« أما بعد ، عافانا الله وإياك من كل فتنة ، فإن يفعل فأعظم بها من نعمة ، والا فهى الهلكة ، اعلم أن الكلام فى القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب ، فتعاطى السائل ما ليس له ، وتكلف المجيب ما ليس عليه ، والله تعالى الخالق ، وما دون الله مخلوق ، والقرآن كلام الله ، وافته الى أسمائه التى سماه الله بها تكن من المهتدين ولا تبتدع فى القرآن من قبلك اسما تكن من الضالين ، وذو الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » (١) .

ومفهوم هذه الوصية أنه يرفض الخوض فى هذه المسألة ، ولكن عبارة :
« والله تعالى الخالق وما دون الله مخلوق » هذه العبارة قد توهم القول بأن
القرآن مخلوق ، ولكنه يريد بها بقوله : « والقرآن كلام الله » • وقد يفهم منها
أن القرآن غير مخلوق ، لأن الكلام صفة من صفات الله ، والله قديم فصفاة
قديمة ، ولكننا لا نرى أنه يريد الخوض فى هذه المسألة ، وإنما يورد حقائق
مسلمة لا يمارى فيها مؤمن بالله ، ويهدف منصور بن عمار الى الاقتصار
على هذه الحقائق ، وتجنب ماسواها مما يثير خلافات لا طائل وراءها •

وكثير من وصايا المتصوفين فى هذه الفترة تتسم بالاعتدال وتدعو الى
التمسك بأهداب الدين فى وضوح واعتدال ، ومن أمثلة ذلك وصية أبى على
أحمد بن محمد بن عاصم الأنطاكى اذ يقول : « اذا طلبت صلاح قلبك فاستعن
عليه بحفظ لسانك » (١) •

ويوصى أبو محمد عبد الله بن خبيق بأن يكون هم الانسان فى الآخرة ،
والأ يشغل قلبه بأمر الدنيا فيقول : « لا تغتم الا من شئ يضرك غدا ، ولا تفرح
الا بشئ يترك غدا » (٢) •

ويؤكد بعض الصوفيين أنه لا تصوف الا فى حدود التمسك بأوامر الدين
وحدوده ، يقول أبو يزيد : « لو نظرتم الى رجل أعطى من الكرامات حتى
يرتفع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى
وحفظ الحدود » (٣) •

واستمرت وصايا الصوفيين بالزهد كما فى قول أبى زكريا يحيى بن معاذ
الرازى ، ت ٢٥٨ هـ • « تورع عما ليس لك ، ثم ازهد فيما لك » (٤) •

ومما أوصى به الصوفيون تجنب الناس ، وأسرفوا فى ذلك حتى أوصى

(١) الرسالة القشيرية ص ١٨ •

(٢) الصفحة نفسها •

(٣) تلبس ابليس ص ١٦٧ •

(٤) الرسالة القشيرية ، ص ١٦ •

السرى السقطى ت ٢٥٧ • بعدم مجالسة الأخيار حتى لا يشغلوا جليسهم عن الله ، ويقول الجنيد : « كنت أعود السرى السقطى ، فدخلت عليه وهو يجود بنفسه فبكيت ، وسقط من دموى على خده ، ففتح عينيه ونظر الى ، فقلت له : أوصنى ، فقال : لا تصحب الأشرار ، ولا تشغل عن الله بمجالسة الأخيار » (١) •

وأحيانا يلجئون الى المبالغات والعبارات غير الواضحة ، ويوصى أبو محمد عبد الله بن حنبل صديقه فتح بن شخرف ، فيوصيه بالنظر الى عينه ولسانه وقلبه وهواه فى عبارة واضحة ، ولكنه يختم وصيته بأن يجعل الرماد على رأسه حيث يقول : « ياخراسانى ، انما هى أربع لاغير : عينك ولسانك وقلبك وهواك • فانظر عينك ولا تنظر بها الى ما لا يحل •

- وانظر لسانك لا تقبل به شيئاً يعلم الله تعالى خلافه من قلبك •
- وانظر قلبك لا يكن فيه غل ولا حقد على أحد من المسلمين •
- وانظر هواك لا تهوى به شيئاً من الشر •

فاذا لم يكن فيك هذه الأربع من الخصال فاجعل الرماد على رأسك فقد شفيت » (٢) •

فجعل الرماد على الرأس مبالغة غير مستساغة ، وقد يقال : انها كناية ، ونقول : انها كناية غير مستساغة •

ومع تقدم الأيام زادت المبالغات وزاد الغموض والتعقيد ، فأبو سعيد الخراز أحمد بن عيسى يوصى من يدخل فى الصلاة بأن ينسى الدنيا والآخرة فيقول : « اذا رفعت يديك فى التكبير فلا يكن فى قلبك الا الكبرياء ، ولا يكن عندك فى وقت التكبير شيء أكبر من الله تعالى حتى تنسى الدنيا والآخرة فى كبريائه » (٣) •

(١) تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٩١ - أحمد بن على الخطيب البغدady - دار

الكتب العلمية •

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٨ •

(٣) اللمع ص ٢٠٥ - ٢٠٦ - السراج الطوس • دار الكتب الحديثة • بمصر •

ويوصى أبو سعيد الخراز مريدا فيوصيه بمخالفة الناس ، فإذا ضحكوا بكى ، وإذا شبعوا جاع ، وما الى ذلك من المبالغات . وفى ذلك يقول :

خالص أصحابك مخالصة ، وخالط أهل الدنيا مخالطة ، شاهدهم بظاهرك وخالفهم بفعلك ، ودينك لا تثلب ، ان ضحكوا فابك ، وان فرحوا فاحزن ، وان استراحوا فجد ، وان شبعوا فتجوع ، وان ذكروا الدنيا فاذكر الآخرة ، واصبر على قلة الكلام والنظر والحركة والطعام والشراب واللباس ، حتى يسكنك الله من الفردوس حيث يشاء برحمته (١) .

وكانت وصايا الصوفيين تهاجم الغنى وتشيد بالفقر ، ومن مبادئ الصوفية ترك العمل لأنه ضد التوكل ، يقول أبو عثمان سعيد بن اسماعيل الجبرى : « اصحب الأغنياء بالتعزز ، والفقراء بالتذلل ، فان التعزز على الأغنياء تواضع ، والتذلل للفقراء شرف » (٢) .

وفى منتصف القرن الثالث الهجرى ظهر مذهب الملامتية ، وتزعم هذا المذهب أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار المتوفى سنة ٢٧١ هـ . ويقول عنه أبو القاسم القشيري : « منه انتشر مذهب الملامتية » (٣) .

ويقول محققا الرسالة (د . عبد الحليم محمود ، د . محمود الشريف) : « الملامتية هم الذين يسترون صلاحهم بأمرور يتداولها العوام ليست بمخالفات ولا معاص مبالغة فى الخفاء عن الشهرة » (٤) .

ويفهم من هذا أنهم يأتون بأعمال يظنها عامة الناس معاصى ولكنها ليست بمعاص ، ويؤيد هذا وصية زعيمهم أبى صالح حمدون القصار اذ يقول : « اذا رأيت سكرنا فتمايل لئلا تبغى عليه فتبتلى بمثل ذلك » (٥) .

(١) اللمع ص ٣٣٤ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٢٢ مطبعة حسان .

(٣) المرجع نفسه ص ١٨ مطبعة محمد على صبيح .

(٤) المرجع نفسه ص ١٨ .

(٥) المرجع نفسه ص ١٨ .

ويقول محققا الرسالة : « المراد ترك الكبر على العصاة ورحمتهم ،
وأفهم من هذا العبارة الصحيحة « اذا رأيت سكرانا » •

وسواء أكانت العبارة : اذا رأيت سكرانا ، أو : اذا رأيت سكرنا .
فتمايل • فأننا لا نرى فى هذه العبارة الا شطحا وخروجا على حد الاعتدال ،
فالدين لا يحث على التظاهر بالمعاصى لتجنب الشهرة ، ولو كان المراد السكر
بحب الله لما كان هناك محل لقوله : « لئلا تبغى عليه فتبتلى بمثل ذلك » •
فمفهوم العبارة السكوت وعدم الاعتراض لأنه ابتلاء من الله فهم مسيرون
بأمر الله •

ويوافق هذه الوصية وصية أبى صالح لعبد الله بن منازل حين قال له :
أوصنى ، فقال أبو صالح : « لا تفش على أحد ماتحب أن يكون مستورا .
منك ، فمبدأ الستر وعدم الاعتراض هو مذهب الملامتية •

ويزعم رويم بن أحمد أحد كبار المتصوفة أن التصوف لا يكون الا ببذل
الروح ولا يطيقه جميع الناس ، ويشير الى أن عامة الناس يرون فى التصوف
ترهات وأباطيل ، وجاء فى الرسالة القشيرية : « سأل أبو عبد الله بن خفيف
أبا محمد رويم بن أحمد فقال : أوصنى ، فقال : ما هذا الأمر الا ببذل الروح ،
فان أمكنك الدخول فيه مع هذا ، والا فلا تشتغل بترهات الصوفية » (١) •

وفى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ظهر الحلاج وعرف
بشطحاته الصوفية ، وقال بمبدأ وحدة الوجود وبمبدأ الحلول ، وانتهى به
الأمر الى قتله وصلبه فى أوائل القرن الرابع الهجرى سنة ٣٠٩ هـ •

والحسين النورى يوصى بعدم الخروج عن حد علم الشرع فيقول : « من
رأيته يدعى مع الله عز وجل حالة تخرجه عن حد علم الشرع فلا تقربنه ،
ومن رأيته يدعى حالة لا يدل عليها دليل ولا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه
على دينه » (٢) •

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٠ •

(٢) تلييس إبليس ص ١٦٨ عبد الرحمن بن الجوزى مطبعة النهضة •

ومن وصايا الخلاج التى تضم معانى غامضة وشطحات متطرفة وصيته لأحد تلاميذه حيث يوصيه بصون قلبه عن التفكير فى الله ، وصون لسانه عن ذكر الله ، ويعلل لذلك تعليلا غامضا فيقول : « يا ولدى ، صن قلبك عن فكره ، ولسانك عن ذكره ، واستعملهما بادامة شكره ، فان الفكرة فى ذاته ، والخطرة فى صفاته ، والنطق فى اثباته • من الذنب العظيم والتكبر الكبير » (١) •

وجاءت بعض الوصايا الصوفية شعرا ، قال أبو بكر بن مسلم (من أصحاب الجنيد) :

ان كان حقا فاستعد خصالا	» يامن يريد بزعمه الاخمالا
واجعل خروجك للصلاة خيالا	ترك التذاكر والمجالس كلها
لا ترتجى عند القريب وصالا	بل كن بها حيا كأنك ميت
عون المرید يسد العمالا « (٢)	وأنس بربك واعلمن بأنه

واستمرت الدعاوى المتطرفة فى القرن الرابع الهجرى ، ووجدت الى جانبها وصايا معتدلة تحث على العمل للدنيا وعدم اغفال الآخرة •

ومن الوصايا التى تهتم بالألفاظ الغامضة التى لا تعطى معانى محددة ، ولا تتفق مع مفاهيم الاسلام الواضحة الصريحة قول أبى بكر محمد بن موسى الفرغانى الواسطى : « من ذكر افترى ، ومن صبر اجترا ، وإياك أن تلاحظ حبيبا أو كليما أو خليلا وأنت تجد الى ملاحظة الحق سبيلا ، فقيل له : أو لا أصلى عليهم ؟ • قال صل عليها بلا وقار ، ولا تجعل لها فى قلبك مقدار » (٣) •

وظلت الدعوة الى تجنب الناس كما فى قول أبى بكر الحسين بن على ابن يزدانيار :

(١) أخبار الحلاج ص ٢٩ - ٣٠ - على بن أنجب السلمى •

(٢) حلية الاولياء ج ١٠ ص ٣٠٩ •

(٣) تلبيس ابليس ص ١٦٩ عبد الرحمن بن الجوزى مطبعة النهضة بمصر •

وهكذا جاء : (ولا تجعل لها فى قلبك مقدار) والصحيح مقدارا •

« اياك أن تطمع فى الأنس بالله وأنت تحب الأنس بالناس »
• واياك أن تطمع فى حب الله وأنت تحب الفضول •
• واياك أن تطمع فى المنزلة عند الله وأنت تحب المنزلة عند الناس » (١) •

ودعوا الى عدم الاكتراث بالنفس ، وتسليمها الى الله يفعل بها مايشاء •
يقول أبو الحسين بندار بن الحسين الشيرازى : « لا تخاصم لنفسك فانها
ليست لك دعها لمالكها يفعل بها مايريد » (٢) •

وتحدثوا عن حالة المكاشفة ورؤية الله ، يقول أبو عثمان سعيد بن سلام
المغربى : « ليكون تدبرك فى الخلق ، تدبر عبدة ، وتدبرك فى نفسك تدبر
موعظة ، وتدبرك فى القرآن تدبر حقيقة ومكاشفة » (٣) •

ويقول أبو القاسم ابراهيم بن محمد النصر ابازى : « اذا بدا لك شيء
من بوادى الحق فلا تلتفت معها الى جنة ولا الى نار ، فاذا رجعت عن تلك
الحال فعظم ما عظمه الله » (٤) •

وهنا يزعم الموصى أن الانسان ينتقل الى حالة يرى فيها الحق ويتجرّد
من انسانيته ولا يجب عليه أن يعظم ما عظمه الله •

ولم تكن جميع الوصايا على هذا النمط الحافل بالشطحات الصوفية ،
فهناك وصايا صوفية تأمر بتقوى الله والاخلاص له فى حدود معقولة وأوامر
مفهومة ، وأبو بكر محمد بن على الكتانى يوصى بالعمل فيقول : « اذا سألت
الله تعالى التوفيق فابدأ العمل ، وكن فى الدنيا ببذلك ، وفى الآخرة
بقلبك » (٥) •

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٨ •

(٢) الرسالة القشيرية ص ٢٩ •

(٣) الرسالة القشيرية ص ١٩٢ مطبعة حسان •

(٤) الرسالة القشيرية ص ٣٠ •

(٥) الرسالة القشيرية ص ١٦٦ مطبعة حسان •

Notes

¹ The authors are grateful to the National Science Foundation for support of this work under Grant Number NSF-44409.

² The authors are grateful to the National Science Foundation for support of this work under Grant Number NSF-44409.

³ The authors are grateful to the National Science Foundation for support of this work under Grant Number NSF-44409.

⁴ The authors are grateful to the National Science Foundation for support of this work under Grant Number NSF-44409.

⁵ The authors are grateful to the National Science Foundation for support of this work under Grant Number NSF-44409.

⁶ The authors are grateful to the National Science Foundation for support of this work under Grant Number NSF-44409.

⁷ The authors are grateful to the National Science Foundation for support of this work under Grant Number NSF-44409.

⁸ The authors are grateful to the National Science Foundation for support of this work under Grant Number NSF-44409.

⁹ The authors are grateful to the National Science Foundation for support of this work under Grant Number NSF-44409.

¹⁰ The authors are grateful to the National Science Foundation for support of this work under Grant Number NSF-44409.

¹¹ The authors are grateful to the National Science Foundation for support of this work under Grant Number NSF-44409.

¹² The authors are grateful to the National Science Foundation for support of this work under Grant Number NSF-44409.

¹³ The authors are grateful to the National Science Foundation for support of this work under Grant Number NSF-44409.

¹⁴ The authors are grateful to the National Science Foundation for support of this work under Grant Number NSF-44409.

¹⁵ The authors are grateful to the National Science Foundation for support of this work under Grant Number NSF-44409.

الباب الثاني
الخصائص الفنية
لأدب الوصايا

الموضوعات والعوامل المؤثرة

جاءت الوصايا نابعة من ظروف الحياة السياسية والاجتماعية والدينية ، والناظر فى هذه الوصايا يستطيع أن يتعرف على كثير من جوانب الحياة فى تلك الفترة ، ويرى بعض هذه الجوانب امتدادا طبيعيا لظروف الحياة العربية والانسانية ، ويرى بعضا منها طارئا على الحياة العربية كالمزندقة التى طرأت على الحياة العباسية بعد أن سرت عدواها من الفرس الذين اندمجوا فى المجتمع العربى ودخلوا فى الاسلام حقيقة أو تظاهرا ، وحملوا معهم كثيرا من تقاليدهم .

ويلحظ الباحث تشابه الموضوعات التى طرقتها الوصايا طيلة الفترة التى بحثناها وذلك نظرا لتشابه ظروف الحياة فى الدولة العربية ، ويلحظ أن الشابه كان أكثر بين وصايا القرنين الثانى والثالث ، وفى القرن الرابع جدت بعض الظروف واختلفت طريقة العرض فى الوصايا .

تأثرت الوصايا بظروف قيام الدولة العباسية منذ الاعداد السرى لقيام هذه الدولة ، فقد بدأ محمد بن على بن عبد الله بن عباس الاعداد لقيام الحكم العباسى ، واختار رجال الدعوة وأوصاهم ، ودلت الوصية على تفكير وانعام نظر ، فقد أوصى رجاله بأن يبتثوا الدعوة فى خراسان حيث العدد الكثير والجلد الظاهر والقلرب الفارغة التى لم تنقسمها الأهواء ، وحيث السخط الذى يعم النفوس لاضطهاد الأمويين لهم ، ودرس القائد سائر البلدان وعلل لاستبعادها ، فالكوفة شيعية على ، والبصرة عثمانية ، وأهل الشام سفيانيون مروانيون ، ومكة والمدينة غلب عليها أبو بكر وعمر .

وأوصى أبو مسلم الخراسانى جنوده بذكر الضغائن واثارتها فى النفوس ، وعمل الخلفاء العباسيون على تثبيت دعائم الأسرة العباسية ، ومن المتوقع أن يعمل كل خليفة على تنصيب ابنه ولدا للعهد من بعده ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فأوصى المنصور للمهدى بولاية العهد واللبس وصيته ثوبا دينيا فحضر الناس على الرفاء بالعهد وعدم التفريق ، واتبع الخلفاء هذه

السنة غير أنهم وقعوا في خطأ عندما صار الخليفة يوصى لأبنائه من بعده واحدا فواحدا ، فالمهدى يوصى لموسى الهادى ثم للرشيد ، والرشيد يوصى للأمين ثم للمأمون ثم المعتصم ، وأوصى الخليفة المتوكل لأبنائه الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد ، وأدت هذه الخطوة الى إثارة النزاعات بل واشعال الحروب بين الاخوة حيث حاول الخليفة خلع أخيه واستبدال ابنه به .

ومن البيعى أن يوصى الخلفاء أبناءهم وصايا تتعلق بالسياسة والحرب ، وأخرى تتعلق بتقوى الله والتزام العدل بين الرعية ، ومجالسة العلماء ، وأخرى تتعلق بالمال ويكفى أن ننظر الى وصية المنصور للمهدى حين عزم على المسير الى مكة ، وكان ذلك فى السنة الأخيرة من حياته ، فقد أوصاه وصية (تتعلق بالخراج وأرزاق الجند ومصلحة الثغور ، وأوصاه بأهل بيته ومواليه وبأهل خراسان على وجه الخصوص ، كما أوصاه بعدم ادخال النساء فى مشورته) (١) .

وأوصى المنصور ابنه بتقوى الله ، وتجنب سفك الدم الحرام ، والايقاع بالمحدين والمارقين ، ثم الحكم بالعدل وصلة الرحم ، وأيضا شحن الثغور وتأمين السبل ، وعدم التبذير ، وحسن الظن بالله وسوء الظن بالناس (٢) .

واشتعلت الحروب والثورات فى عهد العباسيين ، وأرسل الخلفاء كبار الولاة وكبار القادة لاصلاح أمور الولايات ولاخمداد ثورات الثائرين ، وأوصى الخلفاء وأوصى الوزراء ، ورسموا قواعد السياسة وقواعد الحرب ، كما نرى فى وصية المهدي للربيع بن أبي الجهم حين ولاه فارس ، وكما نرى فى وصية الرشيد لهرثمة بن أعين ، وعندما خرج على بن ماهان لحرب المأمون لمخالفته أخاه الأمين أوصاه الخليفة الأمين ، وأوصته السيدة زبيدة ، وأوصى المأمون أخاه المعتصم بمحاربة الخرمية حتى يقضى عليهم ، وأوصى عبد الله بن طاهر جنوده حينما خرج لحرب الخوارج فى عهد المأمون ، ومن أبرز الوصايا فى هذا المجال وصية الموفق لأحد رجاله وقد ولاه الصلاة والحرب والأحداث ،

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٥ .

وكثير ظلم الخلفاء وكثير العزل والمصادرة ، ورأينا بعض الزرراء يوصى بالحذر من الملوك ، (وأوصى أبو عبيد كاتب المهدي بالحرص على السكوت) (١) .

وكانت هناك صراعات بين العناصر العربية ، وفى وصية ابراهيم ابن محمد يقول لأبى مسلم الخراسانى : « انظر هذا الحى من اليمن فالزمهم ، واتهم ربيعة فى أمرهم ، وأما مضر فهم العدو القريب الدار » (٢) .

وكان الخلفاء العباسيون يختصون الخراسانيين بالمودة حيث قامت الدولة العباسية على أكتافهم وكثرت وصايا الخلفاء بخراسان ، بل انهم كانوا يتجاوزون عن أخطائهم فى بعض الأحيان فمحمد بن على بن عبد الله ابن عباس يوصى رجال الدعوة بالتزام أهل خراسان ، وأوصى المنصور ابنه المهدي بأهل خراسان ، ووصفهم بأنهم أنصاره وشيعته ، وثار بعض الخراسانيين فى عهد الخليفة المهدي فاغتفر زلة أهل خراسان وأرسل ابنه موسى واليا على جرجان وأوصاه بأهل خراسان خيرا .

وكشفت وصايا الشيعة عن معتقداتهم ، وكان العلويون يطمعون أن تكون الخلافة لهم فهم الذين قاوموا الدولة الأموية منذ قيامها على يد معاوية ابن أبى سفيان ، ثم ان الدعاة فى خراسان كانوا يدعون لآل البيت بدون أن يحددوا شخصيات معينة ، والعلويون أبرز آل البيت فى تلك الفترة ، ولكنهم فوجئوا باستيلاء العباسيين على الخلافة ، وتوجس العباسيون من بنى عمومتهم شرا فعاملوهم معاملة سيئة ، وقبض أبو مسلم الخراسانى على عبد الله بن معاوية وزج به فى غياهب السجون ، وكتب عبد الله الى أبى مسلم يوصيه بتقوى الله والعدل ، وأن يعطى من نفسه مايجب أن يعطى ، وأوصاه بأن يرعى حرمة من كانوا وسيلته الى الوصول الى ماوصل اليه :

ولما ولى المأمون الخلافة أحسن الى العلويين أبناء عمومته ، واختار زعيمهم على بن موسى الرضا وأوصى له بالخلافة من بعده ، كما أوصى

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٧٢ .

(٢) تاريخ الكامل ج ٥ ص ٣٤٨ .

المامون أخاه المعتصم بأن يحسن معاملة أولاد على رضى الله عنه ، ويصلهم
ويتجاوز عن مسيئتهم .

وظهرت فى وصايا الشيعة نظرياتهم وآراؤهم العقائدية ، وكان الشيعة
يقدمون زعماءهم ويصفون عليهم صفات لا تتفق ومبادئ الاسلام ويرفعونهم
فوق مستوى البشر ، ولما قامت الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر فى القرن
الرابع بالغ الشيعة فى تقديس خلفاء هذه الدولة ، وادعى الخلفاء الفاطميون
أنهم يتمتعون بهذه المزايا التى ينسبها أتباعهم اليهم ، والناظر فى (كتاب
المجالس والمسايرات) للقاضى النعمان بن محمد يجد كثيرا من الوصايا التى
تفيض بهذه المعتقدات الشيعية .

وصورت الوصايا جوانب عديدة من النواحي الاجتماعية فى تلك الفترة ،
وكان لمجالس الخلفاء تقاليد يجب مراعاتها ، وكان للخلفاء أخلاقهم المرهوبة
وسيطرتهم المطلقة ، وطرقت الوصايا هذه المجالات ، فأوصى الحكماء بمراعاة
التقاليد وأوصوا بالحدز فى معاملة الخلفاء وعدم الركون اليهم ، ولابن المقفع
كثير من الوصايا فى هذا المجال . ومن قوله : « ينبغى لمن خدم السلطان
ألا يغتر به اذا رضى ، ولا يتغير له اذا سخط ، ولا يستثقل ما حمله ولا يلحف
فى مسألته » (١) .

واهتم الخلفاء وكبراء الدولة بتربية أبنائهم وأحضروا لهم كبار المؤدبين
وأوصوهم بحسن رعايتهم وتأديبهم وعدم التهاون معهم ، ومن أجمع الوصايا
وصية الرشيد للأحمر النحوى معلم ابنه الأمين حيث أوصاه وصية قدم لها
بأنه سلم اليه مهجة نفسه وثمره قلبه ، وأطلق يده فى تأديبه ، وأوصاه بأن
يعلمه آداب السلوك ومعاملة الناس والمحافظة على مظهره وعدم التهاون
فى تأديبه .

وكان كبار العلويين أيضا يهتمون بتأديب أبنائهم وتعليمهم ، وكانوا
يوصونهم لينشئوا جامعين بين العلم والأدب ، وأوصى عبد الله بن معاوية

ابنه بعفة اللسان وقلة الكلام وطول الفكر ومشورة العقلاء وعدم الاستبداد
بالرأى .

وهناك كثير من الوصايا التى تصور الآداب الاجتماعية ، وهى مستمدة
من الوصايا القرآنية أحيانا ، وأحيانا أخرى تستمد من الذوق السليم والعقل
الواعى ، وهى وصايا تسابير الأزمان وتلائم المجتمعات ، ومن اللون الأول
قليل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر : « لا تفسدن تالذ احسانك بطارف امتنانك
واقصر من وصف سالفك على ذكر مستأنفك » (١) . وهى مستمدة من قوله
تعالى : « يأيتها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » .

ومن اللون الثانى قول ابن المعتز : « لا تسرع الى أرفع موضع فى
المجلس ، فالموضع الذى ترفع اليه خير من الموضع الذى تحط منه ، لا تذكر
الميت بسوء فتكون الأرض أكتم عليه منك ، ينبغى للعاقل أن يدارى زماته
مدارة السابح للماء الجارى » (٢) .

ومن الموضوعات البارزة التى طرقتها الوصايا نظريات الزاهدين
والمتصوفين ، فقد أكثر الزهاد من الوصايا ، وبرز ابراهيم بن أدهم فى عهد
المهدى ، وبرز أبو العتاهية فى عهد الرشيد ، وجاءت وصايا هؤلاء حاشية
على التخلّى عن التهالك على الدنيا ، والحرص على نعيم الجنة ، وتبعه بعض
الشعراء حتى ان أبا نواس دعا الى الزهد فى أواخر حياته .

وجاءت بعض وصايا الزاهدين حاوية بذور التصوف كما رأينا فى
عرضنا السابق ، ثم ظهر التصوف فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وأكثر
هؤلاء المتصوفة من وصاياهم ، وجاءت بعض هذه الوصايا معتدلة مسابرة
للمبادئ الاسلامية الواضحة ، وجاءت بعض هذه الوصايا متطرفة تحمل
مبادئ غريبة كالبعد عن الناس حتى الأخيار منهم .

وعالجت الوصايا بعض المذاهب الطارئة على المجتمع العربى ، وأوصى

(١) زهر الآداب ج ٤ ص ٩٤٣ .

(٢) زهر الاداب ج ٤ ص ١٠٥٦ .

الخلفاء والكبراء بمقاومة الزنادقة وتتبعهم والقضاء عليهم ، وقرنوا الفعل بالقول فقتل ابن المقفع وصالح بن عبد القدوس وبشار بن برد ويعقوب ابن الفضل وغيرهم ، وأوصى المهدي ابنه الهادي بتتبع الزنادقة وقتلهم ، وأوضح لابنه بعض المبادئ الهدامة التي يدعون اليها في تستر وكيف يجتذبون الناس في بادئ الأمر ثم يفسدون دينهم وأخلاقهم ، وأوصى الصليفة المأمون أخاه المعتصم بمحاربة الخرمية وعدم التهاون في قتالهم .

وكنثرت الوصايا بالأشخاص ، والمتصفح لكتب التاريخ والأدب يجد كثيرا من هذه الوصايا يكتبها الوزراء وكبار رجال الدولة موصين ببعض أصدقائهم أو أتباعهم لقضاء مصلحة أو للاتحاق بوظيفة أو ماشابه ذلك ، وتدل هذه الوصايا على شيوع الوساطة وأن العدالة لم تكن مطلقة .

ودارت بعض الوصايا حول موضوعات ثقافية تتعلق بالشعر والبلاغة والفصاحة . فبشر بن المعتز يوصي الأديب بأن يختار ساعة نشاطه وفراغه ، ويوصيه بترك التوعر وتجنب الألفاظ العامية والسوقية ، ويوصيه أيضا بالاهتمام باللفظ والمعنى ، وبرعاية مقتضى الحال ، وأوصى أبو تمام تلميذه ألجحتري باختيار الوقت الذي تصفو فيه النفس وأنسب الأوقات وقت السحر ، وأوصاه بأن يختار لكل غرض مايناسبه ، ففي الغزل يختار اللفظ الرشيق والمعنى الرقيق ، وفي المديح يظهر أيادي الممدوح ومناقبه ، وعليه أن يتجنب الألفاظ الرديئة وأن يتجنب أوقات الضجر ، وكتب الجاحظ وصية عامة حث فيها الكاتب على اختيار عذب الكلام وصائب المعاني ورعاية مقتضى الحال .

وكتب إبراهيم بن المدبر وصية مطولة في موازين البلاغة وأدوات الكتابة فأوصى باتخاذ البرهان في الكتابة للاقناع ، واتباع الحق فيما يحاول الكاتب الاقناع به ، ودعا الى التعلم على العلماء وقراءة كتب الحكماء وتصفح رسائل المتقدمين ، ومراعاة مستوى العقول وأقدار المخاطبين ، والاهتمام باللفظ والمعنى معا ، وعرج ابن المدبر على القلم وحدد صفات العود وطريقة برى القلم واختيار السكين .

وهناك موضوعات خاصة طرقتها الوصايا لا نستطيع أن نعددها موضوعات انسانية ، ولا نستطيع أن نقول : انها وصايا صادرة عن عاطفة

صادقة وان الموصى يهدف الى تحقيقها وحث الناس على اتباعها ، وانما هي وصايا صدرت فى ظروف خاصة وفى موضوعات خاصة • تلك هى وصايا البخلاء •

كتب الجاحظ كتاب البخلاء فى القرن الثالث ، وحفل هذا الكتاب بوصايا يهديها البخيل لابنه أو يعبر بها عن رأيه ، وفيها يدعو الموصى الى الحرص على المال وجمعه بكل الطرق واستغلال الناس للاستحواذ على أموالهم ، ولم يكن الجاحظ يهدف الى دعوة الناس الى البخل ، وانما قصد من وراء ذلك - كما وضع فى مقدمة الكتاب - الى ادخال السرور والنشاط على قلوب الناس بقراءة هذه الطرائف ، وكانت هناك دوافع نفسية أخرى دفعت الجاحظ الى كتابة هذا الكتاب ، منها مهاجمة الشعوبية بنسبة معظم هذه الحكايات الى الفرس والى أهل مرو على وجه الخصوص ، وكان يهدف أيضا الى اظهار تفوقه وبراعته بابداع هذا اللون الأدبى الجديد الذى لم يسبق اليه •

وفى القرن الرابع ظهرت وصايا شاذة شبيهة بوصايا البخلاء التى كتبها الجاحظ ، تلك هى وصايا المكدين التى كتبها بديع الزمان الهمذانى فى مقاماته ، وكان هؤلاء المكدون يوصون بالتحايل وخداع الناس لاستغلالهم ، وكان بديع الزمان يهدف أيضا الى اظهار مقدرته الفنية وتفردته ، وجاءت هذه المقامات صورة فريدة فى الأدب العربى فى ذلك الوقت •

وفى القرن الرابع أيضا ظهرت وصايا المتطفلين ، وقد عرضنا نموذجا منها كتبه أبو اسحاق على لسان أحد المتطفلين يوصى أحد أتباعه ويوضح له الوسائل التى يجب أن يتبعها المتطفل للوصول الى مايريد ، وكتب الصابى هذه الوصية بايعاز من معز الدولة بن بويه •

ونحن لا ننكر أن هذه الوصايا صورت جانبا من جوانب المجتمع ، فلا يخلو مجتمع فى أى زمان من هذه النماذج الشاذة ، ولكننا نريد أن نقول : انها لم تقصد الى تقديم وصايا يصغى اليها الناس ويمتثلون ماجاء فيها •

وكثير من هذه الوصايا طرقت الجوانب الدينية التى تمس علاقة الانسان بربه أو بنفسه أو بمجتمعه ، وكان المجتمع العباسى قريب عهد بالبعثة

المحمدية ، وكان الخلفاء العباسيون يحكمون باسم الاسلام وبحكم قرابتهم من النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يعلنون أنهم حماة الدين حتى ان المنصور يقول فى الخطبة رادا على من أوصاه بالتقوى : « فان الحكمة علينا نزلت ، ومن عندنا فصلت ، فردوا الأمر الى أهله توروده موارده ، وتصدروه مصادره » (١) .

واتصف معظم الخلفاء العباسيين بالحلم أو تظاهروا بذلك ، فاتسعت صدورهم لقبول الوصايا الدينية ، وبرز علماء وفقهاء نالوا ثقة الخليفة ونالوا ثقة الناس ، ووثق كل خليفة ببعض العلماء فكانوا يدخلون على الخلفاء ويوصونهم بالتقوى ، بل ان الخلفاء كانوا يشتاقون الى هؤلاء العلماء ويرسلون اليهم اذا تأخر قدومهم عليهم ويطلبون وصيتهم ، وكان عمرو بن عبيد كثير الدخول على المنصور ، وكان صالح بن عبد الجليل كثير الدخول على المهدي ، وكان ابن السماك كثير الدخول على الرشيد ، وكذلك كان أبو العتاهية يدخل على الرشيد ويوصيه وصايا شعرية تحثه على الزهد وتذكره بأهوال القيامة ، وكان الرشيد يتأثر بهذه الوصايا ويبكى حتى تبطل لحيته .

وكانت وصايا هؤلاء العلماء والزهاد والشعراء تدور حول الحث على الطاعة واينثار الدار الباقية على الفانية ، وتصوير أهوال القبر والمحشر ، والحث على العدل بين الرعية ، وشكر الله الذى أعطاه هذه السلطة .

وكان بعض الأئمة يكتبون وصايا مطولة الى الخلفاء تدور حول المعانى السالفة كما فعل الامام مالك حين كتب وصية الى الرشيد ، وكذلك أوصى الأئمة بعضهم بعضا فأوصى الامام مالك صديقه الليث بن سعد باتباع فتيا علماء المدينة ، وأوصى الامام مالك الشافعى بتقوى الله حتى لا تطفئ المعصية نور قلبه ، وكان العلماء والزهاد والصوفية يتواصون بالتقوى والعلم والعمل ، وأوصى أبو حنيفة ابراهيم بن أدهم بالاهتمام بالعلم الى جانب العبادة ، وأوصى ابراهيم بن أدهم بالعبادة والعمل الى جانب اهتمامه بالعلم ،

وأورد الجنيد وصية الشافعى أخاله فى الله ، وأوصى رجل أحمد بن حنبل بالثبات وعدم الاستسلام للمؤمن فى القول بخلق القرآن ولو مات فى سبيل ذلك شهيدا .

وكان الخلفاء أنفسهم يوصون الشعب بالتقوى والاستقامة على طاعة الله وطاعة الخلفاء ، كما أوصوا الولاة بالاعتصام بحبل الله والعدل بين الرعية وطاعة الخليفة ، ولا تكاد تخلو وصية أو عهد من الوصايا الدينية .

وفى القرن الرابع صار كبار الكتاب يكتبون الرصاىا عن الخلفاء موصين الولاة والرعية بالتزام طاعة الله وطاعة الخليفة كما فى وصية ابن العميد لأبى عبد الله الطبرى(١) .

وقد يكتب الكاتب شامتا بشخص نكب كما فى وصية أبى بكر الخوارزمى لأبى اسحاق الحاجب(٢) ، وكانت العهود تكتب للولاة ولأرباب السيوف وتتضمن كثيرا من الوصايا الدينية كما فى العهد الذى كتبه أبى اسحاق الصابى عن الخليفة المطيع لله الى الحسين بن موسى العلوى بتقليده المظالم بمدينة السلام(٣) .

وهناك وصايا عامة كتبها الحكماء غير موجهة الى شخص معين ، يهدفون من ورائها الى زرع الفضائل فى النفوس واصلاح مافسد منها كما نرى فى الوصية التى كتبها الجاحظ وأوصى فيها بالأناة ومصارعة الغضب واتهام الشيطان والهوى(٤) .

(١) زهر الاداب ج ٤ ص ١٠٦٤ .

(٢) كتاب رسائل الخوارزمى ص ٧ .

(٣) صبح الاعشى ج ١٠ ص ٢٥٢ .

(٤) رسائل الجاحظ ج ١ ص ٢٦٠ .

الأفكار والمعاني

نستطيع أن نقول : ان الوصايا فى الفترة التى نتحدث عنها طبعت بطابع دينى ، فجميع الوصايا سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو دينية ترتبط بالوصايا الدينية من قريب أو بعيد وعندما يوصى الخليفة أو أحد كبار رجال الدولة واليا أو قائدا أو عاملا يبدأ بالوصية بتقوى الله ، ثم يوصى بما يريد ، وكثيرا ماتتناثر الأوامر الدينية فى ثنايا الوصايا على اختلاف أنواعها ، والحقيقة أنه ليس هناك فارق قاطع بين الوصايا السياسية والاجتماعية والدينية ، فمعظم التقاليد السياسية والاجتماعية مستمدة من وصايا الدين الاسلامى .

وكان الخلفاء العباسيون حريصين على الظهور بمظهر المحافظين على الدين الاسلامى فقد كان أولئك الخلفاء يحكمون باسم الاسلام ، وكانوا أبناء عم النبى صلى الله عليه وسلم وكانوا يسيطرون على الشعب العربى ويكتسبون أحقية للخلافة بهذه القرابة الوثيقة فلا عجب أن تكون وصاياهم عامرة بتقوى الله .

ولا يتبع«ارض مع هذه الفكرة اقبال الأمين على الله ، فقد كانت هناك عوامل اجتماعية ونفسية وجهت الأمين هذه الوجهة ، وقد أوصى الأمين قائده أحمد بن فريد فقال : « اياك والبغى فانه عقال النصر ، ولا تقدم رجلا الا باستخارة ولا تشهر سيفا الا بعد اعدار ، ومهما قدرت باللين فلا تتعده الى الخرق والشره الخ » (١) .

وهكذا كانت الأفكار الدينية مسيطرة على الوصايا طيلة هذه الفترة ، والخليفة المنصور يوصى ابنه المهدي فيقول : « واعلم أن الخليفة لا تصلحه الا التقوى » (٢) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٤٢٢ .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٤٠ .

وأوصى الرشيد قائده هرثمة بن أعين بالتقوى وأن يجعل كتاب الله اماماً في جميع ما هو بسبيله فيحل حلاله ويحرم حرامه ويقف عند مثابته ويسأل عنه أولى الفقه في دين الله ، وأولى العلم بكتاب الله ويرده الى امامه ليبريه الله عز وجل فيه رأيه ويعزم له على رشدده «(١)» .

وفي القرن الثالث الهجري نرى هذه المعاني الدينية مسيطرة على الوصايا ، وفي وصية الخليفة المتوكل لأبنائه الثلاثة بولاية العهد يقول المتوكل : « انه جعل الى محمد المنتصر بالله ابن جعفر الامام المتوكل على الله أمير المؤمنين ولاية عهد المسلمين في حياته ، والخلافة عليهم من بعده ، وأمره بتقوى الله التي هي عصمة من اعتصم بها ، ونجاة من لجأ اليها ، وعز من اقتصر عليها »(٢) .

وفي القرن الرابع نرى أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف يكتب عن الخليفة الطائع لله الى عضد الدولة : « استدم النعمة عليك بالتقوى لله تعالى ، وبحسن الطاعة لأمير المؤمنين ، فانهما جنتاك وعدتاك وذريعتاك المشفعتان عند الله تعالى في أولاك وأخراك ، وأحسن كما أحسن الله اليك »(٣) .

ولما كان الخلفاء العباسيون يحكمون باسم الدين ويرون لأنفسهم الأحقية بالخلافة كانوا يعلنون أن الخلافة أمر توقيفي من الله وأنها متوارثة عن النبي عليه السلام ، وأن العباس أولى الناس بوراثة الخلافة ، فهو عم النبي ووارثه الوحيد من الرجال عند موته ، ويقول ابراهيم الامام في وصيته لأبى مسلم الخراساني : « يا أبا عبد الرحمن انك رجل منا أهل البيت فاحفظ وصيتي »(٤) .

ويقول السفاح في أول خطبة له في الكوفة : « ان الله من عليكم بامام منحه العدالة وأعطاه حسن الابانة ، فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا

(١) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٣٢٧ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٩ ص ١٧٦ .

(٣) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٣١٣ .

(٤) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٣٧ لابن قتيبة .

طاعتنا ، وانه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم
الا أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وأمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد
(وأشار بيده الى أبى العباس) • فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج
منا حتى نسلّمه الى عيسى بن مريم عليه السلام (١) •

والخطيب هنا يجعل خلافته منة من الله تعالى ، ويجعل العدالة والابانة
عنده منحة من الله خصه بهما ، ويجعل الخلافة مقصورة على أقارب النبي
عليه السلام ، ثم يوهم الناس أن الخلافة ستظل فى بنى العباس حتى يعود
عيسى بن مريم •

وفى وصية المنصور لابنه المهدي يقّس الخلافة ويؤكد غضب الله
للسلطان فيقول : « واعلم أن من شدة غضب الله للسلطان أمر فى كتابه
بتضعيف العذاب على من سعى فى الأرض فسادا مع ما نذر له عنده من
العذاب العظيم فقال : (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى
الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا ٠٠) الآية • فالسلطان يا بنى حبل الله
المتين وعروته الوثقى ودين الله القيم » (٢) •

وفى وصية هارون الرشيد لهرثمة بن أعين يضيف الرشيد على نفسه
قدسية ويوهم أن الله يريه الحق ويرشده الى الرشيد فيقول لهرثمة : « أو يرده
الى امامه ليديه الله عز وجل فيه رأيه ويعزم له على رشده » (٣) •

وفى عهد المأمون لعلى بن موسى الرضا يضيف المأمون على الخلافة
قدسية ويجعلها قوام الدين فيقول : « فان الله عز وجل جعل العهد بالخلافة
من تمام أمر الاسلام وكماله وعزه وصالح أهله » (٤) •

وكتب عبد العزيز بن يوسف رئيس ديوان الخليفة الطائع لله رسالة الى

(١) تاريخ الطبرى ج ٧ ص ٤٢٨ •

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٥ •

(٣) المرجع نفسه ص ٣٢٧ •

(٤) صبح الاعشى ج ٩ ص ٣٦٢ •

عضد الدولة فقرن بين طاعة الله وطاعة أمير المؤمنين حيث يقول : « استدم النعمة عليك بالتقوى لله تعالى ، وبحسن الطاعة لأمر المؤمنين ، فانهما جنتاك وعدتاك وذريعتاك المشفعتان عند الله تعالى فى أولاك وأخراك » (١) .

ولذلك حذر العلماء الخلفاء من أن يغتروا بقرابتهم من رسول الله عليه السلام ، وأوصى الأوزاعى الخليفة المنصور بذلك فقال : « أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن ترى قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفكك مع المخالفة لأمره ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : يا صفية عمة محمد ، ويا فاطمة بنت محمد استوهبا أنفسكم امن الله فانى لا أغنى عنكما من الله شيئا » (٢) .

وعبر ابن خريم عن فكرة صائبة تثبت دعائم الحكم وتكبر السلطان فى عيون الناس حيث يقول للمهدى : « عليك بالعفو عن المذنب والتجاوز عن المسئء فلأنه بطيعك العرب طاعة محبة خير لك من أن تطيعك طاعة خوف » (٣) .

وعبر الرشيد عن مكانة العلماء وحفظة القرآن وأمر بتمييزهم فى العطاء وكذب الى الأمصار بذلك (٤) كما حرص الخلفاء على ابراز تعظيم أهل بيت رسول الله عليه السلام ، وتعظيم أهل الحرمين الشريفين ، وهذا نابع عن رغبة فى اكتساب أهل الحرمين بعد أن باعدت الأحداث بينهم وبين الخلفاء فى عهد بنى أمية ، وقد أوصى المهدي ابنه الرشيد بأهل بيت رسول الله (٥) . وأوصاه مرة أخرى بأهل الحرمين و تحدث عن مكانتهم ومكانة آبائهم (٦) .

وفى أحيان قليلة نجد فى الوصايا فكرة خاطئة تعبر عن رأى صاحبها

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٣١٣ .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١٦٢ .

(٣) العقد الفريد ج ٢ ص ١٨٨ .

(٤) تاريخ الخلفاء ج ٢ ص ١٣٧ - ابن قتيبة .

(٥) تاريخ الخلفاء ج ٢ ص ١٨٣ .

(٦) تاريخ الخلفاء ج ٢ ص ١٨٣ - لابن قتيبة .

ولكنها لا تمثل قضية مسلمة ، وفى رسالة الصحابة يوصى ابن المقفع الخليفة المنصور بأن يجمع الاقضية والحجج التى احتج بها القضاة من سنة أو قياسي ، ثم يصدر رأيه ، وينهى عن القضاء بخلافه . يقول : « فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الاقضية والسنن المختلفة فترفع اليه فى كتاب ، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياسي ، ثم نظر فى ذلك أمير المؤمنين وأمضى فى كل قضية برأيه الذى يلهمه الله ويعزم عليه عزما ، وينهى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتابا جامعا لمرجوننا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطا حكما واحدا صوابا » (١) .

وهذه وصية صادرة من ابن المقفع ، ولم يكن ابن المقفع عالما من علماء الاسلام ، ولم يكن الخليفة المنصور ممن يحتج برأيهم فى التشريع الاسلامى ، وهذا الرأى يقضى على الاجتهاد الذى يجب أن يظل مفتوحا أمام القضاة العالمين بأصول التشريع الاسلامى .

ودارت بعض الوصايا حول الزنادقة ، وفند الخليفة المهدي أفكار الزنادقة وكشف عن الأعييبهم فى وصية لابنه الهادى ان قال له : « يابنى ، ان صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة ، فانها فرقة تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا وتحوبا ، ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيع بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور » (٢) .

ومن الأفكار التى تدور حول أمور اجتماعية تسير النظم فيها على ضوء الأفكار الدينية فكرة انصاف أهل الذمة ونظم فرض الأموال عليهم ، وقد أوصى أبو يوسف الخليفة الرشيد بانصاف أهل الذمة فقال : « وقد ينبغى ياأمير المؤمنين أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى

(١) رسالة الصحابة ص ١٦٨ من رسائل الجاحظ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٢٠ .

الله عليه وسلم ، والتفقد لهم ، حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شيء من أموالهم الا بحق يجب عليهم ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فانا حجيجه » (١) .

وعلى العكس من ذلك تعبر احدى الوصايا عن جور اهل الذمة على المسلمين ، وكان المنصور قد أذن للنصارى فى أن يقبضوا ما وجدوه لبنى أمية ، ويبدو انهم تطرفوا فى الاستيلاء على الضياع ، وأورد ابن قيم الجوزية أن جماعة من المسلمين اجتمعوا الى شبيب بن شيبة والمنصور فى الحج فطلبوا الى شبيب مخاطبة المنصور فى ألا يمكن النصارى من ظلمهم فى ضياعهم لكونه أمرهم أن يقبضوا ما وجدوه لبنى أمية ، وكان مما قاله شبيب للمنصور : « يا أمين المؤمنين سلطت الذمة على المسلمين ، ظلموهم وعنفوهم ، ولن يقضوا عنك من الله شيئا يوم القيامة » (٢) .

وهناك أفكار الشيعة وتصور تقديس زعماء الشيعة ، وكأنهم أنبياء يوحى اليهم وكأنهم متصلون بالله اتصالا مباشرا وهم منزهون عن الخطأ ، وشبيه بتقديس زعماء الشيعة تقديس كبار الصوفية ، ونرى فى وصاياهم كثيرا من الأفكار الغريبة مثل تجنب الناس ومجافاة مشاعرهم بالحزن ان فرحوا ، ومثل مجارة الصوفيين وعدم الاعتراض على أفعالهم ، وهى افكار لا تتفق مع الافكار الاسلامية الصريحة .

وحوت الوصايا كثيرا من الافكار السياسية والاجتماعية التى تبرز السيطرة المطلقة للخليفة وتبذيره فى الانفاق وفى بناء القصور ، كما صورت لنا الآداب الاجتماعية المتبعة فى معاملة الخلفاء وفى مجالسهم ، وصور ابن المقفع فى كتابيه : (الأدب الصغير ، والأدب الكبير) كثيرا من الآداب الاجتماعية ، وفى وصايا الخلفاء لأبنائهم نرى كثيرا من الأفكار التى كانت مهيمنة على عقول الرؤساء والآباء ، والمبادئ التربوية السائدة آنذاك .

ونرى فى هذه الوصايا كثيرا من القوانين الأدبية والبلاغية المرعية ،

(١) كتاب الخراج ص ١٤٩ - أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم - المطبعة السلفية .

(٢) أحكام أهل الذمة ج ١ ص ٢١٤ - ابن قيم الجوزية - مطبعة جامع دمشق .

وبعض هذه القوانين جديد نادى به أدباء العصر العباسى ، وتأثروا فى دعوتهم هذه ببعض النظريات الأجنبية بسبب ازدهار حركة الترجمة ، ونقرأ مع هذه المبادئ مفهوم البلاغة عند الهنود والفرس وغيرهم .

ومن بواكير الآراء البلاغية ما نراه فى وصية بشر بن المعتمر باختيار الأوقات التى يحس فيها الأديب بالراحة وفراغ البال ، ووصيته أيضا بترك التورع والتعقيد ، والجمع بين الاهتمام باللفظ والمعنى معا ، ومراعاة مستوى السامعين ، ومراعاة مقتضى الحال ، والتفت بشر بن المعتمر الى أهمية الموهبة ، وأرى أن بشر بن المعتمر سبق عبد القاهر الجرجاني فى هذه الأفكار .

وفى القرن الثالث الهجرى برزت وصيتان أدبيتان ضمنا كثيرا من المبادئ الأدبية والبلاغية ، فرأينا أبا تمام يوصى البحتري بتخير الأوقات التى يخلو فيها قلبه من الهموم وحبذا وقت السحر ، كما أوصاه باختيار الألفاظ الملائمة للغرض ، والمعانى الملائمة للموضوع .

أما الوصية الثانية فهى وصية ابراهيم بن المدبر ، وهو يوصى باتخاذ البرهان فى الكتابة والاكتمساب بالاختلاف الى العلماء ، ودراسة كتب الحكماء ، والتفت الى أهمية اللفظ والمعنى معا .

وهناك وصايا مطولة حوت كثيرا من الافكار فى شتى المواقف ، ومن أبرز هذه الوصايا وصايا ابن المقفع فى كتابيه (الأدب الصغير ، والأدب الكبير) وربما كان ابن المقفع متأثرا بوصايا السابقين من العرب والساسانيين ، فقد كان ابن المقفع مطلعا واسع الاطلاع ، ثم انه يكبر علم السابقين ويرى أننا نفتقر من بحرهم وفى ذلك يقول فى كتاب (الأدب الكبير) : « منتهى علم عالمنا فى هذا الزمان أن يأخذ من علمهم ، وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر فى كتبهم » (١) .

وكذلك جاءت وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله حاوية لجوانب

عديدة فى السياسة والاجتماع والدين ، وأيضا جاءت وصية الامام مالك لهرون الرشيد شاملة لكثير من الجوانب وان غلب عليها الافكار الدينية ، وكذلك كتب الحارث بن أسد المحاسبى كتابا يشمل وصايا دينية لا ترتيب ولا ترابط بينها .

وجاءت معظم الوصايا فى القرنين الثانى والثالث موجزة تعرض الأفكار عرضا مباشرا وتهدف الى توصيل الافكار واستيعابها والاقتناع بها ، وقد تحوى الوصية فكرة واحدة وقد تحوى أكثر من فكرة ، وقد تكون الفكرة واحدة ولكن الموصى يفصلها ويوضح جوانبها كما فى وصية المأمون لابنه العباس اذ وضع له واجب المشاركة فى الحكم وفصل له ذلك بأن ينافس فى الخير وينشر العدل ويدفع الجور ويحى السنن الصالحة ويميت البدع ويعتقد المكرمات ويسدى الصنائع الخ (١) .

وبعض هذه الوصايا تعرض أفكارا مطروقة كما نرى فى الوصايا الدينية الصادرة من العلماء والخلفاء ، وكما نرى فى الوصايا السياسية والاجتماعية التى تنظم علاقة الحاكم بالمحكومين وتنظم علاقة الناس ببعضهم والى جانب ذلك نرى بعض الأفكار الجديدة فى الدين والسياسة والاجتماع ، وفى مجال الدين نرى وصايا الصوفيين وما تحويه من أفكار غريبة أحيانا ، وفى مجال السياسة نرى وصايا ترسم مراسم جديدة تضيف على الخلفاء هالة من التبجيل ، وترسم نظاما محددة يجب مراعاتها فى علاقاتهم مع الخلفاء .

وفى مجال الاجتماع نرى وصايا تحدد النظم المتبعة فى مجالس الخلفاء ، وأخرى تنظم آداب المناظرة ، وثالثة تتضمن وصايا بلاغية وأدبية تستمد أحيانا من الثقافات الاجنبية ، وظهرت بعض الأفكار الشاذة التى لا يرمى صاحبها الى نشرها والاقتناع بها ، وانما جاءت فى ظروف خاصة ولأهداف معينة ، ومن هذه وصايا البخلاء التى كتبها الجاحظ ، ووصايا المكدين التى كتبها بديع الزمان الهمذانى فى مقاماته ، ووصايا الطفيليين

التي عرضنا نموذجاً منها كتبها أبو اسحاق الصابى ، كما أوصى أبو نواس
وامثاله بالاقبال على الخمرة والتهتك وكانوا يهدفون الى نشر هذه المبادئ
الهدامة .

وقد يدعو الموصى الى فكرة خاطئة ولكنه يعتقد صوابها ، كما نرى فى
وصية ابن المقفع للخليفة المنصور بأن يجمع أحكام القضاة وينظر فيها
ويصدر أمراً يلزم القضاة باتباع مبدأ معين فى قضائهم ، وهذا رأى خاطئ
لأنه يقضى على مبدأ الاجتهاد .

وقد تحوى الوصايا مغالطات للواقع فى أحيان قليلة ، وهذا ناشئ من
الصراعات السياسية والمذهبية كما نرى فى قول داود بن على : « ألا وانه
ماصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أمير
المؤمنين على بن أبى طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد (وأشار بيده
الى أبى العباس السفاح » (١) .

وهناك مواقف يلجأ فيها الموصون الى المبالغة لبيان الخطورة أو
لتفخيم الآثار ، وفى بيان سطوة الغضب اذا سيطر على الانسان يقول
الجاحظ : فاما اذا تمكن واستفحل ، وأذكى ناره وأشعل ، فلو استبطنته
بالتوراة وأوجرته بالانجيل ولددته بالزبور وأفرغت على رأسه القرآن افراغا
وأثيته بأدم شفيعا لما قصر دون أقصى قوته » (٢) .

وقد يبالغ الموصى لأن الاقناع بما يوصى به يحتاج الى المبالغة لغرابته ،
وفى كتاب البخلاء يوصى الثورى عياله باتباع النوى ويبالغ فى بيان فوائده
فيقول : « ولا تلقوا نوى التمر والرطب ، وتعودوا ابتلاعه ، وخذوا حلوقكم
بتسويغه فان النوى تعقد الشحم فى البطن ، وتدفع الكليتين بذلك الشحم ،
واعتبروا فى ذلك ببطون الصفايا وجميع ما يعتلف النوى » (٣) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٧ ص ٤٢٨ .

(٢) رسائل الجاحظ ج ١ ص ٢٦٠ .

(٣) كتاب البخلاء ص ١١١ .

وقد يبلغ الموصى حين يصور مكانة الخليفة أو الوزير ، ويوصى أبوبكر الخوارزمي أبا اسحاق الحاجب لما تكبه صاحب ابن عباد فيبالغ الخوارزمي في تعظيم مكانة صاحب ويقول : « ولا تجلس على طريق السيل الرابع ، ولا تطعن في نحر القضاء الغالب ، ولا تحارب جيش السعد ، ولا تطاعن حد الجسد » (١) .

وتتضمن الوصايا كما أسلفنا فكرة واحدة موجزة أو مفصلة ، أو تتضمن أفكارا عديدة تتوالى في ترابط أو غير ترابط ، ويربط بينها في جميع الأحوال أنها وصايا ينصح الموصى باتباعها أو تجنب ما نهى عنه فيها ، ولذلك لا نستطيع أن نقول بوجود الاستطراد في الوصايا .

وقد تأتي الوصية مشتملة على أفكار مرتبة ترتيبا لا سبيل الى نقضه ، ولكن أمثال هذه الوصايا قليل ، ومن ذلك وصية المأمون قبيل وفاته إذ أوصى بتوجيهه الى القبلة ، واسباغ طهوره وتكفينه واضجاعه على السرير والصلاة عليه ودفنه ، الى آخر ما أوصى (٢) ، وهذه أمور لابد من الترتيب فيما بينها .

ويتمتع بعض الموصين بقدرة على الترتيب والتدرج حتى يصل الى الهدف المنشود ، ونرى هذا في قول الجاحظ على لسان الثوري يوصى عياله : « واعلم أن الشيع داعية البشم ، وأن البشم داعية السقم ، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة ، وهو قاتل نفسه ، وقاتل نفسه ألوم من قاتل غيره ، وقد قال جل ذكره : (ولا تقتلوا أنفسكم) وسواء قتلنا أنفسنا أو قتل بعضنا بعضا كان ذلك للآية تأويلا » (٣) .

وفي القرن الثاني والثالث كان الموصون يهدفون الى توصيل الأفكار الى السامع والقارئ ، وكان هدفهم الافهام ، ولم يكونوا يلجئون الى فلسفة

(١) رسائل الخوارزمي ص ٧ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٦٤٧ .

(٣) كتاب البخلاء ص ١١١ .

أفكارهم أو اظهار مقدرتهم وبراعتهم ، وقد تكشف الوصية عن ذكاء وتخطيط ولكنها تعرض الفكرة عرضا مباشرا بدون معالجة عقلية عميقة .

ومن ذلك قول المهدي في وصيته لموسى الهادي : « واجعل عمال القدر ، وولاة الحج مقدمة بين يدي عملك ، ونصفة منك لرعيك ، وذلك أن تأمر قاضي كل بلد وخيار أهل كل مصر أن يختاروا لأنفسهم رجلا توليه أمرهم ، وتجعل العدل حاكما بينه وبينهم ، فإن أحسن حمدت ، وإن أساء عذرت » (١) .

وفي القرن الرابع الهجري ساد أدب الوصايا اتجاه جديد ، حيث لجأ الكتاب الى التحليل والاطناب وفلسفة أفكارهم ومحاولة اظهار البراعة والمقدرة الفنية ، ولم يعودوا يعبرون عن أفكارهم تعبيرا تلقائيا ، وظهر هذا الاتجاه عند كبار الكتاب من أمثال ابن العميد وأبى بكر الخوارزمي وبيديع الزمان الهمداني . ومما يمثل هذا الاتجاه وصية ابن العميد التي بعث الى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة ، وفيها يوصيه بالرجوع الى الطاعة ، وفيها يذكره بما كان ينعم به من الأمن والسعادة فيقول : « ألم تكن من الأولى في ظل ظليل ونسيم عليل وريح بليل ، وهواء عدى وماء روى ومهاد وطى ، وكن كنين ومكان مكين وحصن حصين » ويستمر على هذا النمط .

ثم يصور حاله بعد العصيان فيقول : « ففيم الآن أنت من الأمر ؟ وما العوض عما عدت ، والخلف عما وصفت ؟ ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ونفضت منها كفك وغمست في خلافها يدك ؟ وما الذى أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ أظل ذو ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب ؟ قل نعم كذلك ، فهو والله أكثف ظللا لك فى العاجلة ، وأروحها فى الآجلة ، إن أقمتم على المحايدة والعنود ، ووقفت على المشاقة والجحود » (٢) .

وتجمع الوصايا بين الاستثارة العاطفية والاقناع بالنقل والعقل ، وتأتى الاستثارة العاطفية فى المواقف التى تحتاج الى جذب الشخص الذى يوصيه ، وفى وصية ابراهيم الامام لأبى مسلم الخراسانى يقول له :

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢١٠ - ٢١٢ بتصرف .

(٢) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٦٤ بتصرف .

« يا أبا عبد الرحمن ، انك رجل منا أهل البيت » (١) ، ولم يكن أبو مسلم من أهل بيت الرسول ، وإنما هدف الامام الى اكتساب أبى مسلم .

وقبض أبو مسلم الخراساني على عبد الله بن معاوية أحد زعماء العلويين البارزين والقاءه في غياهب السجون ، فكتب اليه عبد الله رسالة يستثير عاطفته ليطلق سراحه ، وفي مطلع الرسالة يقول : « من الأسير في يديه ، بلاذنب اليه ، ولا خلاف عليه ، أما بعد فأتاك الله حفظ الوصية ، ومنحك نصح الرعية ، والهكم عدل القضية ، فانك مستودع ودائع ومولى صنائع » (٢) .

والى جانب الاستثارة العاطفية نرى المناقشة المنطقية والاقناع العقلي والتعليل ، ونرى أيضا الاقناع بالأدلة النقلية ، وفي وصايا ابن المقفع الواردة في كتابيه (الأدب الصغير والأدب الكبير) نراه في كثير من الأحيان يورد الوصية ويعلل لها كما في قوله : « غير معاتب ولا مستبطن ولا مستزید ، فان المعاتبه مقطعة للود ، وان الاستزادة من الجشع » (٣) .

ويفرق ابن المقفع بين الأحوال المتشابهة فيفرق بين الحذر والخور فيقول : « فان استطعت أن يكون تجنبك من الأمر قبل مواقعتك اياه فافعل ، فان ذلك هو الحذر ، ولا تنغمس فيه ثم تنهييه فان ذلك هو الخور ، فان الحكيم لا يخوض نهرا حتى يعلم مقدار قعره » (٤) .

ومن المعاني الدقيقة المقتعة ما ورد في قول طاهر بن الحسين : « لا تستعن بأحد في خاص عملك الا من ترى أن نعمتك نعمته تزول عنه بزلواها عنك ، وتدوم عنده بدوامها لك » (٥) .

(١) تاريخ الخلفاء لابن قتيبة ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٥ .

(٣) الادب الكبير ص ١٣٤ .

(٤) الادب الكبير ص ١٤٤ .

(٥) كتاب بغداد ص ٧٠ لابن طيغور .

وقد يأتى الاقتناع فى تحليل منطقى صائب عن طريق افتراض الفروض والرد على كل منها حتى لا يبقى للموصى حجة فى مخالفة الوصية ، وفى وصية رجل للمنصور ينكر الرجل على المنصور انهماكه فى جمع المال ، ويفترض الرجل الفروض ويرد عليها ، فيفترض جمع المال من أجل الولد ، ويفترض جمع المال ليقوى به السلطان ، ويفترض جمع المال لغاية جسيمة يهدف اليها ، ويرد على كل ذلك فيقول :

« فان كنت انما تجمع المال لولدك فقد أراك الله عبدا فى الطفل يسقط من بطن أمه ماله على الأرض مال ، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس اليه ، فان قلت : انما تجمع المال لتشد به السلطان فقد أراك الله عبدا فى بنى أمية ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب ، وإن قلت : انما تجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها ، فوالله مافوق ما أنت فيه الا منزلة لا تدرك الا بخلاف ما أنت عليه » (١) •

وقد يأتى الاقتناع بالتفصيل والتعليل كما فى وصية محمد بن عبد الله ابن عباس لرجال دعوته يوصيهم بالاهتمام ببث الدعوة بين أهل خراسان ، حيث يذكر البلاد ويعلل لانصرافه عنها ، ثم يعلل لاهتمامه بخراسان ، ومن قوله : « أما الكوفة فهناك شيعة على بن أبى طالب ، وأما البصرة فعثمانية ، وأما الجزيرة فحرورية وأما أهل الشام فليس يعرفون الا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان ، وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وصدورا سليمة وقلوبا فارغة ٠٠٠ » (٢) •

وقد يكون الاقتناع بتجلية الأثر الواقعى ، كما نرى فى وصية المأمون لأخيه المعتصم بتقديم عبد الله بن طاهر ، وتجنب يحيى بن أكثم حيث يجلى أثر كل منهما فيقول : « عبد الله بن طاهر أقره على عمله ولا تتهمه ، فقد عرفت بلاءه وغناؤه عن أخيك ، ولا تتخذن بعدى وزيرا تلقى اليه شيئا فقد علمت بما

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١٥٩ • بتصرف •

(٢) عيون الاخبار ج ١ ص ٢٠٤ • بتصرف •

تكبني به يحيى بن أكنم فى معاملة الناس ، وخبث سيرته حتى أبان الله ذلك منه فى صحة منى «(١)» .

وقد يكون الاقناع عن طريق ضرب المثل بشخص يجله السامع كما فى قول المنصور يوصى ابنه المهدي : « ولا تنم فان أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ولا دخل عينه غمض الا وقلبه مستيقظ »(٢) .

وقد يكون الاقناع بافكرة عن طريق الاقناع الدينى كما نرى فى وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله حيث يقول : « ولا تسرعن الى سفك الدماء فان الدماء عند الله بمكان عظيم »(٣) .

وقد تتوالى الجمل بحيث تشمل الجملة الأمر أو النهى والتعليل له كما نرى فى قول عبد الملك بن صالح يوصى ابنا له : « أى بنى ، احلم فان من حلم ساد ، ومن تفهم ازداد ، والى أهل الخير فان لقاءهم عمارة للقلوب »(٤) .

وقد يكون الاقناع عن طريق النقل فيستدل بالقرآن الكريم أو بالحديث الشريف ، أو بأقوال الصحابة أو الأمثال أو الشعر ، ومن الاستدلال والاقناع بالقرآن الكريم قول الخليفة المنصور فى وصيته للمهدي : « واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أمر فى كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى فى الأرض فسادا ، مع ما نذر له عنده من العذاب العظيم فقال : (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا ... الآية »(٥) .

وقد يحتفظ ببعض ألفاظ النص ويغير فى بعضها ، ويبقى المعنى القرآنى واضحا فى العبارة كما فى قول المنصور فى الوصية السابقة :

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٦٤٩ بتصرف .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٦ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٥٨٨ .

(٤) البيان والتبيين ج ٤ ص ٩٣ .

(٥) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٦ .

« اتق الله فيما أعهد اليك من أمور المسلمين بعدى يجعل لك فيما كربك وحزنك مخرجاً ويرزقك السلامة وحسن العافية من حيث لا تحتسب » والآية القرآنية تقول : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

وقد يكون الاستدلال بالحديث الشريف كما فى قول الازاعى للمنصور: « أعينك بالله يا أمير المؤمنين أن ترى قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفك مع المخالفة لأمره ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « يا صفيّة عمّة محمد ، ويا فاطمة بنت محمد استوهبا أنفسكما من الله ، فاني لا أغنى عنكما من الله شيئاً » (١) .

وقد يكون الاستدلال بأقوال السابقين كما فى وصية المنصور لابنه المهدي حيث يقول : « لا تجلس مجلساً الا ومعك من أهل العلم من يحدثك ، فان محمد بن شهاب الزهري قال : الحديث ذكر ولا يحبه الا ذكور الرجال ، ولا يبغضه الا مؤنثوهم » (٢) .

وقد يأتى الموصى بمثل عربى مشهور كما نرى فى وصية أحمد بن أبى دؤاد لابراهيم ابن المهدي حين أغلظ القول لبختيشوع الطبيب ، يقول ابن أبى داؤد : « ولا تعجل ، فرب عجلة تهب ريثاً » (٣) .

وقد يستدل بأقوال السابقين بدون تحديد القائل ، كما فى قول أبى الحسن الماوردي يوصى أحد الوزراء : « لا تقصر بذى فضل ، ولا تعتمد على ذى جهل ، فقد قيل : « من الجهل صحبة ذوى الجهل ، ومن المحال مجادلة ذوى المحال » (٤) .

وفى كتاب البخلاء للجاحظ يوصى أحد البخلاء بعدم الأكل حتى الشبع ويستدل بأقوال الصحابة وبالشعر وبالقرآن الكريم وبالحديث فيقول : « ولا تدم

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١٦٢ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٧٢ .

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٨٥ .

(٤) نهاية الارب ج ٦ ص ١٣٢ .

الأكل ادامة النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال ، قال أبو ذر : ان الله قد فضلك فجعلك انسانا ، فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعا ، وقال الأعشى :

والبطنة يوما تسفه الأحلام

واعلم أن الشبع داعية البشم ، وأن البشم داعية السقم ، وأن السقم داعية الموت ، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لنيمة ، وهو قاتل نفسه ، وقاتل نفسه ألوم من قاتل غيره ، وقد قال الله جل ذكره : (ولا تقتلوا أنفسكم) • أى بنى ، ان القاتل والمقتول فى النار « (١) •

ويلجأ الموصى الى التوكيد فى كثير من المواقف حيث يحرص الموصى على الاستجابة لموصيته وقد يكون التوكيد بالحروف المؤكدة مثل ان وأن ، أو أساليب القصر أو القسم أو التكرار ، ونرى المنصور فى وصيته لابنه يؤكد بان وأن وبأسلوب القصر فيقول : « ان فكرة العاقل مرآته تريه حسناته وسيئاته ، واعلم أن الخليفة لا تصلحه الا التقوى » (٢) ، ويقول المنصور للمهدى فى حق عيسى بن موسى : « وبالله لو لم يكن الا أن يقول قولاً لما خفته عليك » (٣) •

وقد يعرض الفكرة الواحدة فى صور مختلفة كما فى قول ابن المقفع يحذر من الغضب : « واعلم أن من الناس ناسا كثيرا يبلغ من أحدهم الغضب اذا غضب أن يحمله ذلك على الكلوح والتقطيب فى غير من أغضبه ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له ، والعقوبة لمن لم يكن يهم بعقوبته ، وشدة المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به الا دون ذلك ، ثم يبلغ به الرضا اذا رضى أن يتبرع بالأمر ذى الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطى من لم يكن يريد اعطائه ، ويكرم من لا حق له ولا مودة » (٤) • فهنا بيان لأثر الغضب والرضا فى صور عديدة •

(١) كتاب البخلاء ص ١١٨ بتصرف •

(٢) نهاية الارب ج ٦ ص ٤١ •

(٣) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٦ •

(٤) الادب الكبير ص ٧٣ بتصرف •

وفى وصية المهدي لابنه موسى نرى الاجمال ثم التفصيل للتشويق ، ويورد المعنى ثم يورد المقابل له لابرار المعنى بأبرار الفارق بينه وبين ضده ، ومن ذلك قوله فى الزنادقة : « يدعون الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة » (١) . فهنا يذكر الظاهر الحسن ثم يفصله ، ويذكر عبادة الاثنين ثم يفصلهما ، ويذكر الظاهر الحسن ثم المقابل له .

ويوصى الشافعى أخا له فى الله فيورد المعنى مقرونا بضده مصورا الدنيا ومصيرها فيقول : « عمر انها الى الخراب صائر ، وساكنها الى القبور زائر ، شملها على الفرقة موقوف ، وغناها الى الفقر مصروف ، الاكثار منها اعسار ، والاعسار فيها يسار » (٢) .

وقد يعبر الموصى عن المعنى تعبيراً مجرداً ، وقد يبرزه فى صورة محسوسة مجسمة للهدف ، ومن التعبير عن المعنى تعبيراً مجرداً قول الرشيد لهرثمة بن أعين : « أمره بتقوى الله وطاعته ، ورعاية أمر الله ومراقبته ، وأن يجعل كتاب الله اماماً فى جميع ما هو بسبيله » (٣) .

ومن التعبير عن المعنى فى صورة كاشفة عن الأثر قول المنصور لابنه المهدي : « يابنى لا تبرم أمراً حتى تفكر فيه ، فان فكرة العاقل مرآته تريه حسناته وسيئاته » (٤) .

فَهِنا عبر عن أهمية التفكير وأثره فى استجلاء الأمور حيث أتى بالمرأة التى ترى الانسان حسناته وسيئاته ، هو تشبيه ملموس فى حياتنا .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٢٠ .

(٢) نهاية الارب ج ٥ ص ٢٤٩ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٣٢٧ .

(٤) نهاية الارب ج ٦ ص ٤١ .

العاطفة

السمة الغالبة على الوصايا أنها صادقة العاطفة ، فالوصية عهد من شخص الى آخر ، ويغلب أن يكون الموصى صادق العاطفة فيما يوصى به أمرا أو ناهيا ، ونرى هذه السمة غالبة فى وصايا القرنين الثانى والثالث ، أما فى القرن الرابع فاننا نرى كلاًثيراً من الوصايا السياسية والاجتماعية والدينية يكتبها الكتاب والوزراء والأدباء عن الخليفة أو عن الولاة ناصحين أو محذرين ، ويحاول أولئك الكتاب أن يفتنوا فى أسلوبهم ، وأن يظهروا البراعة وهم يتحدثون بلسان غيرهم أو بعاطفة غيرهم ، ولذلك نحس فى هذه الوصايا فتورا فى العاطفة ، وتكلفا فى القول كما سنوضح ذلك .

تصدر بعض هذه الوصايا من الأدباء والأمهات الأولادهم ، وفى هذه الوصايا قمة الصدق العاطفى ، فليس أحرص على مصالح الأولاد من آبائهم ، ويستوى فى ذلك أن تكون الوصية صادرة من خليفة أو وزير أو من شخص من عامة الناس ، وسواء أكانت الوصايا سياسية أم اجتماعية أم دينية .

عرضنا وصايا عديدة للمنصور والمهدى والرشيد والمأمون وغيرهم يوصون فيها أبناءهم وصايا تنم على حرصهم على تربية أبنائهم وتنشئتهم على كل ما يزينهم ويثبت ملكهم ، ويكفى أن نقرا وصية المنصور للمهدى قبل أن يتوجه المنصور الى مكة ، حيث أوصاه وصية رسم له فيها الأمة ، وضمنها الوصايا الدينية التى تقربه الى الله وتضمن رضاه وتأييده (١) .

وفى وصية الرشيد لعلى بن المبارك النحوى مؤدب ولده الأمين يوصيه بتحفيظه القرآن والسنن ، وتعليمه الآثار والاشعار وطريقة الحديث والوقار وانزال الناس منازلهم ، والاعتدال فى معاملته لحمد الأمين فلا يتهاون معه ، ولا يقسو عليه قسوة تنفره (٢) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٦ .

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥١ دار الاندلس .

ويقول أبان بن تغلب : شهدت أعرابية توصى ولدا لها ، ويورد وصية تجمع بين المبادئ الخلقية والحرص على الدين وعلى الكرامة ، وتجنب ما يزرى به ، وتوصيه بالنظر الى الناس وفعل ما يستحسنه منهم ، وترك ما يستقبحه (١) . وهذا قياس صحيح فى سلوك الانسان .

ونسمع فى هذه الوصايا النداء الأبوى ، ونسمع المنصور يقول لابنه المهدي : « احفظ يابنى محمدا صلى الله عليه وسلم فى أمته يحفظ الله عليك أمورك » (٢) .

ويقول عبد الله بن معاوية لابنه : « أى بنى ، انى مؤد حق الله فى تأديبك ، فأد الى حق الله فى الاستماع منى » (٣) . وهذا النداء الأبوى يضىء على الموقف قدسية ، ويربطه بحق الله ، وحق الله على الابن الاصغاء وقبول النصيحة .

ونرى الصدق العاطفى فى سائر الوصايا الصادرة فى القرنين الثانى والثالث ، وان لم تكن صادرة من الوالدين ، ذلك لأن هذين القرنين كانا على وجه العموم فترة يسودها الصدق وعدم التكلف ، ولم تكن الرغبة فى اظهار المقدرة الفنية واللغوية قد طغت على الأدباء .

وكان لحرية الرأى أثر فى صدق العاطفة ، فقد كان العلماء والزهاد يوصون الخلفاء ولا يخافون بطشهم ، وكان الخلفاء يصغون الى وصايا العلماء والزاهدين ، ويتأثرون بها ، بل ان الخلفاء كانوا يرسلون فى طلب هؤلاء الواعظين اذا تأخروا عنهم ، ويطلبون منهم الوصية ، فتنتطق السنة الموصين فى حرية وصدق .

ويتحقق الصدق العاطفى فى بعض وصايا القرن الرابع ، ومنها

(١) زهر الاداب ج ٢ ص ٤٣٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٥ .

(٣) زهر الاداب ج ١ ص ١٢٠ .

الوصايا الصادرة من الآباء الى ابنائهم كما فى وصية أبى الهيجاء ابن حمدان لابنه ناصر الدولة (١) .

وفى القرن الرابع كان كبار الكتاب يكتبون نيابة عن الرؤساء ، ولم يكونوا يكتبون عن عاطفة صادقة ، وانما كان هدفهم الأول اظهار البراعة الفنية ، وقراءة نموذج من هذه الوصايا يوضح لنا ذلك ، يقول ابن العميد لأبى عبدالله الطبرى : « واركب فى الخدمة طريقة تبعك من الملل ، وتوسطك فى الحضور بين الاكثار والاقلال ، ولا تسترسل الى حسن القبول كل الاسترسال ، فلأن تدعى من بعيد خير من أن تقضى من قريب » (٢) . وواضح أنه يظهر الافتتان وأن السجع هدف من أهدافه الأصلية .

والناظر فى وصايا القرن الرابع يجد تشابها فى مضمونها ، فهى توصى بتقوى الله ، واتباع الكتاب والسنة ، والعدل بين الناس ، ورعاية المساجد ، وما مائل ذلك .

ويحكم قارئ هذه الوصايا بأنها توجيهات محفوظة يضمنها كل موص وصيته ، حتى اننا نقرأ عهدا كتبه أبو اسحاق الصابى (وهو مسيحى) بتقليد أبى الحسن العلوى نقابة الطالبين والاشراف على المساجد فنراه يوصيه بتقوى الله التى هى شعار المؤمنين ، ويأمره بتلاوة كتاب الله سبحانه وتعالى وتصفحه مداوما ملازما (٣) .

وهو عهد مطول يقع فى ثمانى صفحات ، ويسير على هذا النمط ، والكاتب وان كان يكتب عن الخليفة الطائع لله ولكن هذا الاطناب فى الجانب الدينى انما هو اتباع لتقليد شاع فى ذلك الوقت ، وتتكرر هذه المعانى فى كثير من الوصايا كما نرى فى العهد الذى كتبه أبو اسحاق الصابى بتقليد حماية الكوفة لأبى طريف بن عليا (٤) . وفى عهد آخر كتبه أبو اسحاق

(١) نشوار المحاضرة ج ٢ ص ١٤٥ - المحسن التنوخى .

(٢) زهر الآداب ج ٤ ص ١٠٦٤ .

(٣) صبح الأعشى ج ١٠ ص ٢٥٦ الى ص ٢٦٣ .

(٤) صبح الأعشى ج ١٠ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

الضابى أيضا عن المطيع لله بتقليد الحسن بن موسى العلوى المظالم بمدينة السلام (١) .

وكانت الوصايا تجمع بين الاستثارة العاطفية والاقناع العقلى والنقلى ، ولا يقلل ورود الأدلة النقلية والعقلية من صدق العاطفة ، بل ان هذا الاستدلال قد يكشف عن حرص الموصى على الاقناع بالموصية والعمل بها ، وانما نريد أن ننص على أن بعض الوصايا قد تعتمد فى بعض المواقف على الاستثارة العاطفية ، وان لجأت الى المغالطة فى أحيان قليلة ، كما فى قول ابراهيم الامام لأبى مسلم الخراسانى « يا أبا عبد الرحمن ، انك رجل منا أهل البيت » (٢) ولم يكن أبو مسلم من أهل بيت الرسول ، وانما يهدف الامام الى الاستثارة العاطفية واكتساب أبى مسلم واكتساب مناصريه .

وتحفل الوصايا بمختلف المشاعر وتسودها المشاعر الدينية سواء فى ذلك وصايا الحاكمين والمحكومين ، ونرى عاطفة السخط فى بعض وصايا الحكام لقادة جيوشهم وبعض ولااتهم حين ينقمون على بعض الولايات تمردهم على السلطة ، كما نراها عند المعتقلين والمستضعفين حين يوصون الحاكمين بالعدل والانصاف .

وتظهر عاطفة الشفقة والحرص على المصلحة فى الوصايا الصادرة الى القضاة والولاة ، والمتعلقة برعاية العلماء ورجال القرآن والحديث ومن ماثلهم ، وفى الوصايا المتضمنة نصحا للثائرين بالعودة الى حظيرة الطاعة ، وفى وصايا الكبار باتباعهم لقضاء مصالحهم وتحقيق آمالهم .

كما تبدو العواطف الاجتماعية فى الوصايا الخاصة بمعاملة الحكام .
والتمسك بالتقاليد الاجتماعية السائدة .

ونرى العواطف الشاذة فى وصايا البخلاء والمكدين والمتطفلين ، حيث نرى حب المال حبا جارفا ، ونرى كراهية الناس والدعوة الى استغلالهم

والتحايل للحصول على ما معهم ، والدعوة الى الشرة والاقبال على المآذب بدون دعوة اليها •

وقد أوضحنا الظروف المحيطة بهذه الوصايا ، وأن مؤلفيها لا يدعون الى هذه المبادئ دعوة جادة •

وبعض الوصايا كانت موجهة الى أشخاص معينين ، أى أنها وصايا خاصة ، وبعضها وصايا عامة موجهة الى جميع الناس ، ومنها معظم وصايا ابن المقفع ومعظم وصايا المتصوفة والشيعة وبعض وصايا الزاهدين والعلماء ، ولا يقلل تعميم الوصية من صدق العاطفة ، فأمثال الامام مالك وأمثال الاوزاعي وعمرو بن عبيد كانوا صادقى العاطفة فى توجيه الوصايا لجميع الناس ، وكانوا يرجون فى أعماقهم صلاح الانسانية ، كما أن وصايا الخلفاء لرعيته كانت صادقة العاطفة حيث كان الخلفاء يرغبون رغبة صادقة فى صلاح الرعية واستقامتها •

الأسلوب

(١) الألفاظ والعبارات

امتاز أسلوب الوصايا على وجه العموم بالسهولة والوضوح ، ذلك لأن الموصى انما يهدف - قبل كل شيء - الى الوعظ والتأثير وتوصيل ما فى نفسه الى من يقدم اليه الوصية واقناعه به ، والوضوح يحقق هذا الهدف .

يوصى الخليفة المهدي ابنه الرشيد فيقول : « عليك يابنى بتقوى الله العظيم وطاعته فاتخذها بضاعة يأتيك الربح من غير تجارة » (١) . أسلوب سهل خال من التعقيد ومن الغموض ومن التكلف ، ثم انه يتمتع بالتأثير العاطفى : يابنى ، الله العظيم ، الربح ، وهو أسلوب مناسب للوصية .
يضمن لها التأثير .

ونرى الايجاز الوافى بالغرض والذى يجمع بين البراعة وحلاوة الأسلوب فى قول عمرو بن مسعدة موصيا بشخص : « كتابى اليك كتاب واثق بمن كتب اليه ، معنى بمن كتب له ، ولن يضيع من كان محله بين الثقة والعناية » (٢) . فالثقة تناسب من كتب اليه ، والعناية تناسب من كتب له ، ولن لتأكيد عدم الضياع .

وفى بيان اثر أهل خراسان فى نصرة العباسيين يقول المهدي لابنه موسى الهادى : « وان أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا ، وسيوف دعوتنا ، الذين نستدفع المكاره بطاعتهم ، ونصرف نزول العظام بمناصحتهم ، وندافع ريب الزمان بعزائهم ، ونزاحم ركن الدهر ببصائرهم ، فهم عماد الأرض اذا أرجفت كنفها » (٣) . وهنا الألفاظ الموحية المصورة ، فهم أيدي

(١) تاريخ الخلفاء ج ٢ ص ١٨٣ - ابن قتيبة .

(٢) تحفة الوزراء ص ١٢٨ .

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٢١٠ .

الدولة ، واليد وسيلة القدرة ، وهم السيوف ، وهنا المضاء والقطع والحماية ، ونزول العظام وما يوحى به من الكوارث الفاجعة ، وهم العماد ، فهم الأساس الذى تقوم عليه الدولة •

وإذا كان أدباء القرن الرابع قد اهتموا بتنميق الأسلوب ، وأثر هذا الاهتمام على صدق العاطفة ، فإن أسلوبهم فى الوصايا يتمتع بالسلاسة والايحاء ، ويخلو من التعقيد والتنافر ، يقول ابن العميد لابن بلكا بعد استعصائه على ركن الدولة :

« ألم تكن من الاولى فى ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء عدى ، وماء روى ، ومهاد وطى ، وكن كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، يقيق المتالف ، ويؤمنك المخاوف ، ويكنفك من نوائب الزمان ، ويحفظك من طوارق الحدثان » (١) •

وتكثر فى أسلوب الوصايا الألفاظ الدينية والاصطلاحية ، وترد ألفاظ: أهل البيت ، وأهل بيت رسول الله ، وتعمر الرصية بتقوى الله ، ويتبعها ذكر الجنة والنار ، ويوصى الرشيد بمن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه فى العلم والتزم الأذان ، ويتحدث طاهر بن الحسين عن الله وعن الصلوات والجماعة واسباغ الوضوء وترتيل القرآن والركوع والسجود والتشهد وغير ذلك من الألفاظ الاصطلاحية الدينية •

وفى وصايا المتصوفة نرى بعض الألفاظ التى تجرى على السنتهم ، يقول سعيد بن سلام المغربى : « ليكن تدبرك فى الخلق تدبر عبدة ، وتدبرك فى نفسك تدبر موعظة ، وتدبرك فى القرآن تدبر حقيقة ومكاشفة » (٢) • وهذا من كلام المتصوفة •

وتتأثر الافكار والتعابير فى الوصايا بالقرآن الكريم ، ومن ذلك قول الرشيد لهرثمة بن أعين فى شأن القضاة : « أن يصب عليهم سوط

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٦٤ •

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٩٢ مطبعة حسان •

عذاب الله وأليم نقمته » (١) • وهو متأثر بقوله : « فصب عليهم ربك سوط عذاب » •

ووردت فى الوصايا مصطلحات أدبية وبلاغية ، وفى وصية بشر بن المعتمر تود الألفاظ الاصطلاحية ، ومن ذلك قوله : « وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراد معنى كريما فليلتبس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف » (٢) •

وقد أسلفنا أن أسلوب الوصايا يغلب عليه الوضوح ، وقليل ما نرى ألفاظا غامضة وقد كانوا يوصون بتجنب الغريب كما رأينا عند بشر بن المعتمر وابن المقفع والجاحظ ، ومن الألفاظ الغريبة التى وردت قول محمد بن الليث يوصى جعفر بن يحيى البرمكى باختيار قلمه : « أما بعد ، فليكن قلمك بحريا لا سمينا ولا رقيقا ضيق النقب » (٣) ويريد بالنقب الفراغ الذى فى وسط القلم •

ويقول بشر بن المعتمر فى وصيته : « ومن أراغ معنى كريما فليلتبس له لفظا كريما » (٤) أراغ أراد وطلب •

وللجاحظ وصية مليئة بالألفاظ الغامضة ، ويبدو أنه يهدف من ورائها الى اظهار قدرته اللغوية ، وفيها يقول : « لا ينبغى للفتى أن يكون مكحلا ولا مقببا ولا مكوكبا ولا شكامدا ولا حرامدا ولا نقامدا » (٥) • ثم فسر الكلمات فقال : أما المكحل فالذى يتعرق العظم حتى يدعه كأنه مكحلة عاج ، والمقرب الذى يركب اللحم بين يديه حتى يجعله كأنه قبة ، والمكوكب الذى ييصق فى الطست ويتنخم فيها حتى يصير بصاقه وكأنه الكواكب فى

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٢٧ •

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٥ •

(٣) العقد الفريد ج ٤ ص ١٩٥ •

(٤) العمدة ج ١ ص ١٤٢ - ابن رشيق القيروانى • مطبعة السعادة •

(٥) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٥٨ •

الطست ، والحرامد الذى يأتى فى وقت الغداء والعشاء فيقول : « ما تأكلون ؟ » فيقولون من بغضه : سما ، فيدخل يده ويقول : فى حر ام العيش بعدكم ، والشكامد الذى يتبع اللقمة بأخرى قبل أن يسيغها فيختنق كأنه ديك قد ابتلع فأرة ، والنقامد الذى يضع الطعام بين يديه ويأكل من بين يدي غيره .

والفاظ الوصايا عربية فصيحة ، وتندر فيها الألفاظ الأجنبية ، وورد فى وصية الموفق لأحد رجاله : « وأمره أن يتفقد طرف عمله ومسالحه بالضبط لها وبذرقة السابلة المختلفة فيها » (١) . والمسالح جمع مسلحة وهى الثغر ، والبذرقة الخفارة ، فارسية معربة .

وتلزم الفاظ الوصايا حدود الأدب واللياقة ، ولا نجد ألفاظا نابية الا قليلا فى وصايا المقامات ، وهى وصايا مخترعة جاءت على لسان المكدين ، وتحث على الخداع والاحتيال للاستيلاء على الأموال ، وتحوى بعض الألفاظ النابية ، ومن ذلك ما جاء فى المقامة الوصية ، وفيها يوصى أبو الفتح الاسكندرى ابنه فيقول :

« ولست آمن عليك النفس وسلطانها ، والشهوة وشيطانها ، فاستعن عليهما نهارك بالصوم وليلك بالنوم ، انه لبوس ظهارته الجوع وبطانته الهجوع ، ومالبسهما أسد الا لانت سورته ، أفهمتها يا ابن الخبيثة ؟ » . ثم يقول : « فأما كرم لا يزيدك حتى ينقصنى ، ولا يريشك حتى يبرينى فخذلان ، لا أقول : عبقرى ، ولكن بقرى ، أفهمتها يا ابن المشئومة ؟ » (٢) .

أما الأخطاء النحوية واللغوية فلا نكاد نجد لها ، ووجدت أخطاء تعد على أصابع اليد الواحدة ، وبعضها خطأ مطبعى على ما يبدو ، وهو قول أبى بكر محمد بن موسى الفرغانى أحد كبار الصوفية فى القرنين الثالث والرابع : « صل عليهم بلا وقار ، ولا تجعل لها فى قلبك مقدار » (٣) . والخطأ فى

(١) اختيار المنظوم والمنثور ٣٤٦/١٣

(٢) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ١٤٤

(٣) تلبيس إبليس ص ١٦٩ عبد الرحمن بن الجوزى . دار القلم .

لفظ (مقدار) والصحيح مقداراً) لأن الكلمة مفعول به منصوب ، وربما كان خطأ مطبعياً ، وربما سكن الموصى الكلمة لتنسجم موسيقياً مع (وقار) .

وجاء فى وصية المأمون قبيل وفاته قوله : « أشهدهم جميعاً على نفسه أنه يشهد ومن حضره أن الله عز وجل وحده لا شريك له فى ملكه » (١) .
والأفصح أن يقول : « يشهد هو ومن حضره » لأن لفظ (من) معطوف على الضمير المستتر فى (يشهد) . والفصح أنه لا يجوز العطف على ضمير الرفع المستتر إلا مع وجود فاصل ، فنقول : « يشهد هو ومن حضره » .

وذكر الأستاذ عباس حسن : أنه يجوز العطف على الضمير المرفوع المستتر إذا كان المعطوف صالحاً لمباشرة العامل المذكور ، (٢) ويطبق هذه القاعدة نجد أنه يجوز أن يقول : يشهد ويشهد من معه .

وفى كتاب البخلاء للجاحظ أوصى الثورى عياله فقال : « لا تلقوا نوى التمر والرطب ، وتعودوا ابتلاعه . وأخذوا حلوقكم بتسويغه » (٣) .
والصحيح « وخذوا » .

ويكثر فى أسلوب الوصايا الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، وأقوال الصحابة وأقوال السابقين ، والحكم والأمثال ، وفى الاقتباس من القرآن الكريم قد يأتى بالآية الكريمة كاملة كما فى وصية صالح بن عبد الجليل للمهدى : « وأما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم » .

وقد يأتى الموصى بجزء من الآية ، كما فى قول الشافعى لهرون الرشيد : « واعلم أن الله تعالى يفتش سرك فان وجده بخلاف علانيتك شغلك بهم الدنيا ، وفتق لك ما يزلق عليك ، واستغنى الله والله غنى حميد » (٤) .

(١) تاريخ الطبرى ج ١٠ ص ٢٩٣ .

(٢) النحو الوافى ج ٣ ص ٦٥٥ - عباس حسن . دار المعارف .

(٣) كتاب البخلاء ص ١١١ .

(٤) حلية الادبياء ج ٩ ص ٨٩ .

وقد يصل بالآية حرفا أو جملة كما فى الوصية السابقة اذ يقول الشافعى للرشيد : « فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » • ويقول فى الوصية نفسها : « فعليك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تكن على طريقة الذين هداهم الله فبهداهم اقتده » • والآية : « أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده » •

وقد يأتى بمعنى الآية مدمجا فى حديثه بحيث يدرك القارئ الاقتباس كما فى قول المنصور لابنه المهدي : « واتق الله فيما عهد اليك من أمور المسلمين بعدى يجعل لك فيما كربك وحزنك مخرجا ويرزقك السلامة وحسن العافية من حيث لا تحتسب » (١) • وهو يأخذ من الآية الكريمة : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » •

وقد يورد الموصى حديثا نبويا كاملا فى وصيته كما فى وصية الازاعى للمنصور اذ يقول : « فأعينك بالله يا أمير المؤمنين أن ترى قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفك مع المخالفة لأمره ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : يا صافية عمه محمد ، ويا فاطمة بنت محمد ، استوها أنفسكما من الله فانى لا أغنى عنكما من الله شيئا » (٢) •

وقد يقتبس الموصى جزءا من الحديث الشريف كما فى قول الثورى لعياله : « وسواء قتلنا أنفسنا أو قتل بعضنا بعضا كان ذلك للآية تأويلا ، أى بنى ، ان القاتل والمقتول فى النار » والجملة الاخيرة جزء من حديث شريف •

وقد يدخل حرفا على الحديث كما فى قول الثورى فى الوصية السابقة : « فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » •

ويستشهد الموصى بأقوال الصحابة رضى الله عنهم ، ومن ذلك ما جاء فى كتاب البخلاء على لسان الثورى يوصى ابنه : « ولا تنهش نهش الافاعى ،

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٥ •

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١٦٢ •

ولا تخضم خضم البراذين ، ولا تدم الأكل ادامة النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال ، قال أبو ذر : ان الله قد فضلك فجعلك انسانا فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعا « (١) .

وقد يستشهد بأقوال العلماء السابقين ، يقول صالح بن عبد الجليل للمهدي : « جاء فى الأثر : من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل وأشد منه عذابا من أقبل اليه العلم فأدبر عنه » (٢) .

وقد يقتبس مثلاً كما فى قول أحمد بن أبى دؤاد لابراهيم بن المهدي : « ولا تعجل ، قرب عجلة تهب ريثا » (٣) . وفى وصية المنصور لأبى مسلم الخراسانى يحذره من الخروج على الطاعة : « لليدين والقم » (٤) . وهو مثل يقال فى الدعاء بالمهلك .

وقد يستشهد الموصى بحكم أجنبية كما جاء فى وصية أبى الحسن الماوردى ان يقول : « وقد قيل فى حكم الهند : ذو المروة يرتفع بها ، وتاركها يهبط ، والارتقاء صعب ، والانحطاط هين ، كالحجر الثقيل الذى رفعه عسير وحطه يسير » (٥) .

وقد يأتى الاستشهاد بالشعر كما فى وصية أبى عبيد الله كاتب المهدي : « كن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام .

ان البلاء موكل بالمنطق (٦)

ونرى فى أسلوب الوصايا مختلف وسائل التوكيد ، ويستخدم الموصى

-
- (١) كتاب البخل ص ١١٨ .
 - (٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١٥٨ .
 - (٣) العقد الفريد ج ١ ص ٨٥ .
 - (٤) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٦٨ .
 - (٥) نهاية الأرب ج ٦ ص ١٣٢ .
 - (٦) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٧٢ .

أدوات التأكيد مثل ان وأن وقد ، ويلجأ الى القسم وأساليب القصر ، كما يستخدم عطف الألفاظ أو الجمل لتأكيد ما يهدف اليه .

والجاذب ممن يكثر من اللجوء الى التوكيد ، وحين نلقى نظرة على كتاب البخلاء نجد الجمل التالية فى صفحة واحدة فى وصية واحدة : « ان الله قد فضلك ، واعلم أن الشيع داعية البشم ، وأن البشم داعية السقم ، وأن السقم داعية الموت ، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة ، . . ان عامة أهل القبور انما أتوا بالتخم ، والله ما أدى حق الركوع ولا وظيفة السجود ذو كظة » (١) . وهنا يستعمل الجاذب ان وأن ، ويورد ان ثلاث مرات فى ثلاث جمل متوالية ، ويستعمل قد وأسلوب القصر بانما والتأكيد بالقسم بلفظ والله .

ويؤكد الحسين النورى فى وصيته الصوفية بنون التوكيد فيقول : « من رأيتَه يدعى مع الله عز وجل حالة تخرجه عن حد علم الشرع فلا تقرِّبه » (٢) .

ويؤكد بديع الزمان بالسين فيقول فى وصية لوارث : « وسيعجم الشيطان الآن عودك » (٣) .

ومن الوسائل التى يلجأ اليها الموصون للتأكيد توالى المعطوفات مفردات وجملا بمعنى واحد أو متقارب ، يقول المنصور لابنه المهدي : « فالسلطان يابنى حبل الله المتين ، وعروته الوثقى ، ودين الله القيم ، فاحفظه وحطه وحصنه وذبح عنه وأوقع بالملاحدين فيه واقمع المارقين منه واقتل الشيطان الآن عودك » (٣) .

ويقول أبو بكر الخوارزمي موصيا بمسيرة الزمان : « امش مع الدهر

(١) كتاب البخلاء ص ١١١ - بتصرف .

(٢) تلبيس إبليس ص ١٦٨ .

(٣) اليتيمة ج ٤ ص ٢٨٩ .

(٤) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٥ .

كما يمشى ، واجر مع الفلك كما يجرى ، وارفق بمن رفقت الأيام به ، وارع
لمن رعت السعادة له ، ولا تراحم الفلك الدوار ، ولا تناطح الأقسام والأقدار ،
ولا تصغر الكبار « (١) » .

ولا نرى فى الوصايا محاولات لاطهار الثقافات والمعارف الا نادرا ،
ومن ذلك ما نراه عند الجاحظ حيث يورد وصية خالد بن يزيد لابنه ، ويحاول
فى تلك الوصية اظهار علمه ومعرفته وخبرته بالحياة وباللغة ، ونقتبس من
الوصية جملا تكشف عن ذلك . يقول :

« قد بلغت فى البر منقطع التراب ، وفى البحر أقصى مبلغ السفن ،
ولو رآنى تميم الدارى لأخذ عنى صفة الروم ، ولأنا أهدى من القطا ومن
دعيميص ، أنا لو ذهب مالى لجلست قاصا ، أو طفت فى الآفاق كما كنت
مكديا ، وصرت محتالا بالنهار ، واستعملت صناعة الليل ، أو خرجت قاطع
طريق ، أو صرت للقوم عينا ، ولهم مجهرا ، سل عنى صعاليك الجبل ،
وزواقيل الشام ، وزط الآجام ، ورءوس الأكراد ومردة الأعراب ، وفتاك
نهر بظ ، ولصوص القفص ، فكم من ديماس قد نقبته ، وكم من مطبق قد
أفضيته ، وكم من سجن قد كابدته » (٢) .

وأحسب أن هذه الوصية كانت من العوامل التى أوجت لبديع الزمان
الهمدانى بمقاماته الشهيرة ، وكان الجاحظ ملء سمع العالم العربى وبصره ،
وقد تحدث عنه بديع الزمان فى مقاماته ، وكان بديع الزمان ذا مخيلة لاقطة ،
وقرأ عن القاص والجوال فى الآفاق والمكدى والمحتال والزواقيل وما الى
ذلك ، فاتخذ من هذا الاحتيال ومن الكدية موضوعات شائقة دارت حولها
مقاماته .

ويتراوح أسلوب الوصايا بين اللين والشدة ، ويغلب اللين على
على أسلوب الوصايا لأن الموصى حريص على اجتذاب من يوصيه ، وغالبا

(١) كتاب رسائل الخوارزمى ص ٧ .

(٢) كتاب البخل ص ١٣١ .

ما تكون الوصية صادرة من حريص على مصلحة من يوصيه وشفيق عليه ، وأحيانا تكون الوصية مصحوبة بالتهديد أو التوبيخ اذا كان فى مواقف السخط والزجر .

ومن أوائل الوصايا التى يسود أسلوبها العنف والتهديد وصية الخليفة المنصور لأبى مسلم الخراسانى اذ يقول له : فع أيها الطائش ، وأفق أيها السكران ، وانتبه أيها النائم ، فانك مغرور بأضغاث أحلام كاذبة فى برزخ دنيا قد غرت من كان قبلك ، فلا تغتر بمن معك من شيعة وأهل دعوتى ، فكأنهم قد صالوا عليك بعد أن صالوا معك ، احذر البغى أبا مسلم ، فانه من بغى واعتدى تخلى الله عنه : ونصر عليه من يصرعه لليدين والفم « (١) » .

وتبدو الشدة والعنف فى وصايا الخلفاء للقادة الذين يرسلونهم لتأديب العصاة والمفسدين ، وفى وصية الرشيد لهرثمة بن أعين حينما أرسله لعزل على بن عيسى واعتقاله وإرساله الى الخليفة يقول الرشيد : « فان ثبتت قبلهم حقوق لأمر المؤمنين وحقوق للمسلمين فدفعوا بها وجحدوها أن يصب عليهم سوط عذاب الله ، وأليم نقمته ، فاذا خرجوا من حق كل نق حق أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطاء ، وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملابس الى باب أمير المؤمنين » (٢) .

وتكثر الاساليب الانشائية فى أسلوب الوصايا وخصوصا الأمر والنهى ، لأن الوصية أوامر ونواه يريد الموصى أن يبلغها لمن يوصيه ، وقد تأتى الوصية فى صور أخرى كما سنبين فى حديثنا القادم .

ويأتى الأمر اما بصيغة فعل الأمر كما نرى فى وصية الرشيد لمؤدب ابنه الأمين حيث تتوالى أفعال الأمر : « كن له بحيث يضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره مواقع الكلام ، وامنع الضحك الا فى أوقاته » (٣) .

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٦٨ - بتصرف .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٣٢٨ بتصرف .

(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥١ - بتصرف .

وقد تتوالى الأوامر فى الشعر ، ومما جاء فى وصايا المقامات :

زوق ومخرق وكل وأطبق واسرق وطلبق لمن يزور (١)

وقد تأتى الاوامر بصيغة المضارع المقرون بلام الأمر . يقول محمد بن الليث لجعفر بن يحيى البرمكى : « فليكن قلمك بحريا ، وليكن مدادك صافيا ، وليكن قرطاسك رقيقا » (٢) .

ويأتى الأمر بصيغة اسم الفعل كما فى قول الشافعى لهارون الرشيد : « وعليك بكتاب الله الذى لا يضل المسترشد به ، وعليك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٣) .

ويأتى النهى فى صيغة الفعل المضارع المقرون بلا الناهية ، كما نرى فى قول الأمين يوصى قائده أحمد بن مزيد حين وجهه لحرب المأمون : «ولا تقدم رجلا الا باستخارة ، ولا تشهر سيفا الا بعد اعدار ، ومهما قدرت باللين فلا تتعده الى الخرق والشره ، ولا تخاطر بنفسك طلب الزلفى عندى ، ولا تستبقها فيما تتخوف رجوعه على ، ولا تخذله ان استنصرك ، ولا تبطئ عنه اذا استصرحك » (٤) .

وقد يقترن الفعل بنون التوكيد كما فى قول الرشيد لمؤدب الأمين : «ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها » (٥) .

وقد يستعمل الموصى أسلوب التحذير ، يقول الحسين بن على بن يزدانيار أحد متصوفة القرن الرابع :

« اياك أن تطمع فى الانس بالله وأنت تحب الانس بالناس » .

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٦ - المطبعة الحفنية .

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ١٩٥ .

(٣) حلية الاولياء ج ٩ ص ٨٩ .

(٤) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٤٢٢ .

(٥) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥١ .

• واياك أن تطمع فى حب الله وأنت تحب الفضول

• واياك أن تطمع فى المنزلة عند الله وأنت تحب المنزلة عند الناس» (١) •

وقد يتوالى الأمر والنهى كما فى قول عبد الله بن خبيق أحد متصوفة القرن الثالث : « انظر عينك ولا تنظر بها مالا يحل ، وانظر لسانك لا تقل به شيئاً يعلم الله تعالى خلافه من قبلك، وانظر قلبك لا يكن فيه غل ولا حقد » (٢) •

وترد الأساليب الانشائية فى الوصايا بدرجة أقل من الأمر والنهى ، ويأتى النداء فى حالتى الرضا والغضب ، ويكثر النداء فى وصايا الآباء لأبنائهم للتودد اليهم ، والمهدى يوصى ابنه الهادى فيناديه ويكرر النداء فيقول:

« أى بنى ، انك قد أصبحت لسمت عيون الناس نصبا ، ولثنى أعطاف الرعية غاية ، أى بنى ، ثم عليك العامة فاستدع رضاها بالعدل عليها » (٣) •

ويوصى الحلاج أحد تلاميذه فيقول : « يا ولدى » (٤) ، ويوصى الرشيد مؤدب الأمين فيبدأ الوصية بقوله : « يا أحمر » (٥) ، ويوصى أبو تمام البحتري فيبدأ الوصية بقوله : « يا أبا عبادة » (٦) •

ويرد النداء فى مواقف الغضب ، وحدث أن المنصور كان يخطب ، وذكر الناس بالله ، فاعترض معترض فقال : « أيها الانسان ، أذكرك من ذكرت به » ، ورد المنصور : « وأنت أيها القائل ، فوالله ما أردت بها وجه الله ، ولكنك حاولت أن يقال : قام فقال فعوقب فصبر » (٧) •

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٨ •

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٨ •

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٢١٠ - بتصرف •

(٤) أخبار الحلاج ص ٢٩ •

(٥) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥١ •

(٦) زهر الآداب ج ١ ص ١٥٢ •

(٧) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٩٠ •

وفى وصية أبى الفتاح الاسكندرى لابنه يناديه : « يا ابن الخبيثة » ، ثم يناديه « يا ابن المشئومة » (١) .

ويتوالى الاستفهام فى وصية ابن العميد لابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة ، ومن ذلك : « كيف وجدت مازلت عنه ؟ ، وكيف تجد ما صرت اليه ؟ ، ألم تكن من الأولى فى ظل ظليل ؟ ٠٠ فقيم الآن أنت من الأمر ؟ ، وما العوض عما عدت ؟ والخلف مما وصفت ؟ ، وما استقدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ونقضت منها كفك ، وما الذى أظلك بعد أنحسار ظلها عنك ؟ » (٢) .

وقد يأتى الأسلوب خبريا لفظا انشائيا معنى كما فى قول المنصور فى وصيته لابنه المهدي : « هذه وصيتى اليك ، والله خليفتى عليك » (٣) . وهو فى المعنى دعاء أى « اللهم اخلفنى عليه » .

ويقول أحمد بن مزيد للخليفة المأمون : « أوصنى - أكرم الله أمير المؤمنين - » (١) وهم ، جملة دعائية فى المعنى ، أى : اللهم أكرمه .

ويأتى أسلوب القسم أيضا كما فى قول الثورى : « والله لو حملتم أنفسكم على البزر والنوى ، وعلى قضم الشعير واعتلاف القت لموجدتموها سريعة القبول » (٢) ، ويقول المنصور لابنه المهدي متحدثا عن عيسى بن موسى : « وبالله لو لم يكن الا أن يقول قولاً لما خفته عليك » (٣) .

وقد يأتى بالفاظ أخرى ، وفى وصية الرشيد للأمين والمأمون بولاية العهد يقول :

« وعهد الله وذهمة وذهمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذهم المسلمين

(١) مقامات بدع الزمان ص ١٤٤ .

(٢) بتيمة الدهر ج ٣ ص ١٦٤ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٦ .

(٤) تزيخ الطبرى ج ٨ ص ٤٢٢ .

(٥) المرجع نفسه .

(٦) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٦ .

والعهود والمواثيق التى أخذ الله على الملائكة المقربين والنبیین والمرسلین» (١) .

وترد الصلاة على النبى عندما يرد ذكره فى كثير من الاحيان ، ومن ذلك ما ورد فى وصية المنصور لابنه المهدي : « احفظ يا بنى محمدا صلى الله عليه وسلم فى أمته يحفظ الله عليك أمورك » (٢) ، ويوصى الازواعى الخليفة المنصور فتد الصلاة على النبى فى وصيته أربع مرات كما فى قوله : « وقال صلى الله عليه وسلم : ما من راع يبيت غاشا لمرعيته الا حرم الله عليه رائحة الجنة » (٣) ، ويقول طاهر بن الحسن فى وصيته لابنه عبد الله : « ثم اتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٤) .

وفى مقامات بديع الزمان الهمذانى يقول : « لما جهز أبو الفتح الاسكندرى ولده للتجارة أقعده يوصيه فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم » (٥) .

وتقل الجمل الاعتراضية فى الوصايا ، ذلك لأن الوصايا تهدف الى النصح والتوجيه ، والناصح فى معظم الأحوال لا يناقق ولا يتملق ، وانما تكثر الجمل الاعتراضية فى مواقف التعظيم حيث تأتى الجمل الدعائية معترضة فى الحديث ، ولذلك زادت الجمل الاعتراضية فى القرن الرابع حين سادها التأنيق ، وحين صدرت عن كبار الكتاب الذين يكتبون فى الدواوين ، أو يكتبون الخلفاء ، أو يكتبون باسمهم .

ونرى هذه الجمل الاعتراضية الدعائية أحيانا كما فى وصية أعرابية لابنها ، حيث تقول : « أى بنى أجلس أمنحك وصيتى - وبالله توفيقك » (٦) وهذه جملة دعائية صادرة من أم لابنها . ومن الجمل الاعتراضية الدعائية

-
- (١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٧٨ .
 - (٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٦ .
 - (٣) العقد الفريد ج ٣ ص ١٦٢ .
 - (٤) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٥٨٣ .
 - (٥) مقامات بديع الزمان ص ١٤٤ .
 - (٦) زهر الآداب ج ٢ ص ٤٣٨ .

ما جاء فى قول أحمد بن مزيد قائد الأمين حين دخل على الخليفة فقال :
« أوصنى - أكرم الله أكرم الله الأمير - » (١) .

ومن الجمل الاعتراضية الدعائية ما كتب به صاحب بن عباد موصيا
بالمقاضى الجرجانى : « قد تقدم وصفى للمقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز
الجرجانى - أدام الله عزه - الى حضرة الأمير الجليل صاحب الجيش -
أدام الله تعالى علوه - ليستعجل انكفاؤه الى بما يرسم - أدام الله تعالى
أيامه - » (٢) . وهنا ثلاث جمل اعتراضية توضح ما أشرنا اليه من كثرة
الجمل الدعائية فى وصايا القرن الرابع .

وقد يأتى الاعتراض بالنداء كما فى قول المنصور فى وصيته لابنه
المهدى : « فالسلطان - يابنى - حبل الله المتن » (٣) والنداء هنا للتودد
والتعاطف .

وتراوح الوصايا بين الإيجاز والمساواة والاطناب ، وكان الإيجاز هو
الغالب على الوصايا فى القرن الثانى ، وكانوا يعدون الإيجاز مظهرا من
مظاهر البلاغة ، وأوصى جعفر بن يحيى البرمكى بالإيجاز فقال : « ان
استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا » (٤) .

على أننا نجد قليلا من الوصايا المطولة فى تلك الفترة ، وعلى رأسها
وصية الامام مالك للخليفة هارون الرشيد .

واستمرت الوصايا الموجزة فى القرن الثالث ولكن المساواة غلبت فى
هذا القرن ، ومن الوصايا الموجزة ما كتبه المأمون الى عمرو بن مسعدة :
« يا عمرو ، امر نعمتك بالمعدل فان الجور يهدمها » (٥) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٤٢٢ - بتصرف .

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٦ .

(٤) زهر الآداب ج ١ ص ١٩٩ .

(٥) العقد الفريد ج ٤ ص ٢١٥ .

ومن الوصايا المطولة وصية الموفق لأحد رجاله حين ولاه الصلاة والحرب والأحداث وتقع فى ست صفحات كبيرة ، وتجمع بين السياسة والاجتماع والدين ، وكذلك وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله ، وتقع فى تسع صفحات ، وقد تدارسها الناس وحفظوها •

وفى القرن الرابع قلت الوصايا الموجزة ، ومالت الوصايا الى الطول حيث كان كبار الكتاب يكتبون الوصايا نيابة عن الخلفاء والوزراء ويحاولون اظهار مقدرتهم الفنية ، ومن الوصايا الموجزة وصية الصاحب ابن عباد : « اذا ولاك سلطانك فزده من التعظيم واحذره وراقب •

فما السلطان الا البحر عظما وقرب البحر محذور العواقب» (١)

وجاءت بعض وصايا الصوفية موجزة كما فى قول أبى سعيد بندار ابن الحسين الشيرازى : « لا تخاصم لنفسك فانها ليست لك ، دعها للملكها يفعل بها ما يريد » (٢) •

أما الوصايا المطولة فنجدها كثيرا عند كبار الكتاب من أمثال ابن العميد وأبى بكر الخوارزمى وبيديع الزمان الهمذانى وأبى اسحاق الصابى ، وقد قدمنا نماذج منها •

وفى القرنين الثانى والثالث نرى الجمل تميل الى القصر أى التوسط ، ومن الجمل القصيرة قول الرشيد لمؤدب ولده الأمين : « أقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن » (٣) • ويقول المأمون لبعض ولده : « ما على أحدكم أن يتعلم العربية ، فيقيم بها أوده ، ويزين بها مشهده ، ويفل حجج خصمه ، بمسكتات حكمه » (٤) •

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ٧٣٠ •

(٢) الرسالة القشيرية ص ٢٩ •

(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥١ •

(٤) زهر الآداب ج ٣ ص ٧٧٥ •

ومن الجمل المتوسطة قول الرشيد : « أما بعد ، فانظروا من التزم الأذان
عندكم فاكتبوه فى ألف من العطاء » (١) .

أما الجمل الطويلة فلا ترد فى الوصايا لأنها إنما ترد فى مواقف الجدل
والمناقشة ، والموقف هنا لا يحتمل الجدل والمناقشة لأنه من جانب واحد .

وفى القرن الرابع ظل الحال هنا كما كان عليه ، وقد عنى الكتاب
بأسلوبهم ، وظهرت هذه العناية فى أدب الوصايا ، وهذه العناية لا تتطلب
طول الجمل ، بل إنها تتطلب قصر الجمل ليزيد إيقاعها قوة وتزيد موسيقاها
وضوحا ، كما فى قول ابن العميد : « ألم تكن من الأولى فى ظل ظليل ، ونسيم
عليل ، وريح بليل (٢) » .

وقد تميل الجمل الى التوسط كما فى قول بديع الزمان : « العزاء من
الأعزة رشد كأنه الغى ، وقد مات الميت فليحى الحى ، واشدد على حالك
بالخمسة ، فأنت اليوم غيرك بالأمس » (٣) .

وتأتى معظم الوصايا نثرا ، وتأتى أيضا شعرا كما فى وصايا
أبى العتاهية والمتنبى ، وقد يمتزج فيها الشعر بالنثر ، كما فى قول يحيى
ابن خالد لابنه : « عليك بكل نوع من العلم نخذ منه ، فان المرء عدو ما جهل ،
وأنا أكره أن تكون عدو شئ من العلم ، وأنشد :

تفنن وخذ من كل علم فانما يفوق امرؤ فى كل فن له علم
فأنت عدو للذى أنت جاهل به ولعلم أنت تتقنه سلم » (٤)

وترد الوصايا بضمير المفرد للمتكلم وللمخاطب أيضا ، الا اذا خاطب
جماعة ، أى أن الموصى لا يلجأ الى تعظيم من يوصيه باستعمال الضمير (نا) .

(١) تاريخ الخلفاء ج ٢ ص ١٨٨ .

(٢) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٦٤ .

(٣) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٨٩ .

(٤) أدب الدنيا والدين ص ٤١ .

يقول أبو جعفر المنصور : « هذا كتاب وصيتي مختوما » (١) ولم يقل : « كتاب وصيتنا » . ويقول لأبى مسلم الخراسانى : « فلا تغتر بمن معك من شيعتي وأهل دعوتي » (٢) . ولم يقل : « شيعتنا وأهل دعوتنا » ، ولما حضرت الوفاة ابن عباد أوصى فخر الدولة ابن بويه فقال له : « قد خدمتك خدمة استفرغت فيها وسعى ، فان أجريت الأمور على ماكانت عليه نسب ذلك الجميل اليك وتركت أنا » (٣) ، ولم يقل : « قد خدمناك » ، ولم يقل : « قد خدمتكم » ، أو : « فان أجريتكم » .

أما قول المنصور : « فان الحكمة علينا نزلت » (٤) فهو لا يتحدث هنا عن نفسه ، وانما يتحدث عن آل الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقول منصور ابن عمار موصيا بشرا المريسى بعدم الخوض فى خلق القرآن : « أما بعد - عافانا الله واياك - » (٥) ولا أظن أنه يدعو لنفسه ، وانما يدعو لنفسه ولن عنده ، وكذلك يقول حمدون بن احمد أحد المتصوفين فى القرن الثالث : « اذا رأيت سكرنا فتمايل » (٦) والضمير يعود على المتصوفة ، لا على المتحدث .

وترد فى الوصايا أحيانا عبارات تدل على ذوق رفيع ، ومن ذلك قول ابن المقفع للمنصور : « فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسنن المختلفة فترفع اليه فى كتاب ، ثم نظر فى ذلك أمير المؤمنين ، أمضى فى كل قضية رأيه » (٧) ويقول صاحب بن عباد فى وصيته بالقاضى الجرجانى مخاطبا تاش الحاجب : « فان رأى الأمير أن يجعل من حظوظى الجسيمة عنده تعهد القاضى أبى الحسن بما يعجل رده » (٨) .

-
- (١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٤ .
 - (٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٦٨ .
 - (٣) تاريخ الكامل لابن الاثير ج ٩ ص ١١٠ .
 - (٤) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٩٠ .
 - (٥) الرسالة القشيرية ج ١ ص ١١٢ مطبعة حسان
 - (٦) الرسالة القشيرية ص ١٨ .
 - (٧) رسالة الصحابة ص ١٦٨ .
 - (٨) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣ .

(ب) التصوير

أسلوب الوصايا من أكثر الأساليب ترسلا وبعدا عن التكلف ، وواضح أن ذلك راجع الى اهتمام الموصين بالمعنى وتوصيله الى الموصى ، ولذلك كان الاهتمام بالمعنى فى المقام الأول . وقد يضمنون الى ذلك الاهتمام بالأسلوب ولكن بدون أن يظهر التكلف .

لا نجد فى أسلوب الوصايا تكلفا فى التصوير ، ولا نجد اهتماما بحشو الأسلوب بالصور البيانية ، ولا نجد تكلفا فى تكوين الصور وتركيبها ، وحتى فى وصايا القرن الرابع نجد كبار الكتاب يهتمون بالتكرار وتأكيد المعنى ، وترد الصور فى عباراتهم لابرار المعنى وتوضيحه أو تجسيمه ، ولكن بدون تكلف أو اغراب فى تكوين الصورة .

نقرأ الوصايا فى القرن الثانى الهجرى فنرى قليلا من الصور البيانية ، ونحس أنها جاءت عفواً الخاطر لتوضيح المعنى المراد وابراره محسوسا ، ونحس أنها مألوفة قريبة الى النفوس ليس فيها جزء غريب نحس أنه دخيل على الصورة .

وفى وصية المنصور لابنه المهدي يقول له : « وانظر هذه المدينة فاياك أن تستبدل بها فانها بيتك وعزك » (١) . فتشبيه مدينة بغداد ببيته تشبيه يشعره بأهمية المدينة له ، ويجعله يطمئن اليها ويستريح لها ، وكأننا نقرأ تعبيراً حقيقياً .

ويقول الخليفة المنصور لأبى مسلم الخراسانى : « أفق أيها السكران ، وانتبه أيها النائم » (٢) . والسكران والنائم استعارتان تصريحيتان يجريان على الألسنة ، وكأنهما حقيقتان ، وتجسم الاستعارتان غفلة أبى مسلم وجهله بحقائق الأمور .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١٠٢ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٦٨ .

ويقول الرشيد فى وصيته لهرثمة بن أيمن : « أمره بتقوى الله وطاعته ، وأن يجعل كتاب الله اماما » (١) ، فتشبيهه كتاب الله بالامام تشبيهه مألوف محقق للهدف ، ونحن نقف وراء الامام كل يوم ونتبعه فى كل خطواته ، وهذا التشبيه يحدث على اتباع أوامر الكتاب اتباعا كاملا .

ويقول الامام مالك للشافعى : « انى أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية » (٢) ، يشبه الهداية بالنور ، والنور يهدينا فى سيرنا ، والظلمة شئ محسوس بالنظر لا يستطيع الانسان الابصار والهداية فيها ، فتشبيه المعصية بالظلمة يبغض المعصية الى الانسان وينفره منها .

وقد يرسم التشبيه بالمحسوس صورة واضحة للمشبه كما فى قول محمد بن الليث لجعفر بن يحيى فى وصية بشأن القلم : « فابره برياً مستويا كمنقار الحمامة » (٣) وبذلك يرسم صورة واضحة للقلم كما يريد أن يكون .

وفى القرن الثالث ظل الكتاب يجرون على سجيتهم ، وكانت الصور ترد فى وصاياهم عفو الخاطر ، ولم يحاولوا حشدها فى أسئوبهم ، وجاءت الصور محسوسة مألوفة لا تكشف عن تعمق فى الخيال أو تكلف فى تكوين الصورة .

وكان الخليفة المأمون كثير التوصية ، وكان أسلوبه جميلا ، وقد كتب الى عمرو بن مسعدة يقول : « اعمر نعمك بالعدل فان الجور يهدمها » (٤) . وهى وصية فى غاية الايجاز ، وتضم صورتين رائعتين ، فقد شبه النعمة ببناء يعمره ، وشبه الجور بمعمل أو بشخص يهدم ، وهما استعارتان مكنتان ، والنعمة والجور أمور معنوية وهذا التجسيم أو التشخيص يؤدى الى إبراز الأثر ويدفع الى الحرص على الوصية .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٣٢٧ .

(٢) أعلام الموقعين ج ٤ ص ٢٥٨ - ابن القيم الجوزية . مكتبة الكليات

الازهرية .

(٣) العقد الفريد ج ٤ ص ١٩٥ .

(٤) العقد الفريد ج ٤ ص ٢١٥ .

ويقول أبو تمام للبحترى فى وصيته الأدبية : « ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد » (١) . وتشبيه الأديب بالخياط يجسم مهمة الأديب فى اختيار الألفاظ الملائمة للمعانى ، وأثر الخياط ملحوظ أمام أعيننا .

ومن النصوص التمثيلية مانراه فى قول المأمون لولده موصيا : « استشيروا ذوى الرأى والتجربة والحيلة ، وتحملوا ما يغلطون من قول ، أو يكشفون من عيب ، فإن من جرعكم الماراة لشفائكم أشفق من أطعمكم الحلاوة لاسقامكم » (٢) .

وفى الجملة الأخيرة استعارتان تمثيليتان ، فقد شبه الشخص الذى يقدم النصيحة المؤلة بشخص يسقى آخر جرعة مرة ، وشبه الشخص الذى يقدم الكلام اللين الذى يوافق هوى النفس بقصد التضليل بشخص يقدم حلاوة مسمومة ، وربط الموصى بين الاستعارتين التمثيليتين .

هكذا رأينا شيئا من العناية بالتصوير فى أسلوب الرصايا فى القرن الثالث الهجرى ، وفى القرن الرابع زاد الاهتمام بجمال الأسلوب ، ولم يعد الأدباء يجرون على سجيتهم ، وإنما لجئوا الى العناية بالألفاظ والعناية بالتصوير أيضا والعناية بالسجع والحسنات البديعية .

ونرى كثيرا من الأدباء يحشدون الصور فى وصاياهم ويفتنون فى تكوينها ، ومن الافتنان فى تكوين الصورة قول ابن العميد لأبى عبد الله الطبرى : « واركب فى الخدمة طريقة تبعك من الملل » (٣) . شبه الطريقة التى يتبعها فى معاملة الرؤساء بدابة يركبها على سبيل الاستعارة المكنية ، والصورة والتعبير هنا غير مطروقين .

وشبيه بها قول أبى بكر الخوارزمى : « ومن قاتل عساكر الاقبال فى

(١) زهر الآداب ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) تحفة الوزراء ص ٨٧ - الثعالبى .

(٣) زهر الآداب ج ٤ ص ١٠٦٤ .

أيام كرها هزمته» (١) . شبه الاقبال بالعساكر ، أو شبه الاقبال بقائد له عساكر ، ونهى عن مقاتلتها ، وهدف الموصى هنا عدم التصدى للرؤساء الذين تقبل عليهم الأيام ويسانداهم الحظ .

وقد يفتن الموصى ويأتى بصور متتابعة لشيء واحد ، وكلها تندرج تحت جو نفسى واحد يوائم الهدف الذى يهدف اليه الموصى ، كما فى وصية ابن العميد لابن بلكا يوصيه بالرجوع الى الطاعة ، ويوازن بين حالتي الطاعة والمعصية فيقول :

« ألم تكن من الأولى فى ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء عدى ، وماء روى ، ومهاد وطى ، وكن كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين » (٢) ، وكلها صور توحى بالسعادة والطمأنينة وتلائم الحالة النفسية التى يريد ابرازها وكلها تكشف عن افتنان وتائق فى تكوين الصور .

ونرى جميع ألوان الصور البيانية المعهودة فى الأدب العربى ، وفى وصايا القرن الثانى الهجرى نرى الصور المطروقة التى يحسبها القارىء حقيقة لا مجازا لكثرة دورانها على الألسنة ، وفى وصية عبد الله بن معاوية لأبى مسلم الخراسانى بالرفق والعدل يقول :

« وايرادهم علينا الغموم » (٣) . فايراد الغموم استعارة مكنية متداولة على الألسنة ، ويقول عبد الملك بن صالح فى وصيته لابنه : « المزاح يورث الضغائن ، وشر ما صاحب المرء الحسد » (٤) . وكلها استعارات مكنية مطروقة ، ويقول المهدي للربيع بن أبى الجهم : « وابسط العدل وارفق بالرعية » (٥) . فبسط العدل استعارة مكنية وهى صورة قديمة ، ويقول ابن المقفع : « فان المعاتبة مقطعة للود » (٦) ، وهى استعارة شبه الود بحبل .

(١) كتاب رسائل الخوارزمى ص ٩٨ .

(٢) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٦٤ .

(٣) البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٥ .

(٤) البيان والتبيين ج ٤ ص ٩٣ .

(٥) العقد الفريد ج ١ ص ٣١ .

(٦) الأدب الكبير ص ١٣٤ .

ومن الكنايات المطروقة قول عبد الله بن معاوية لأبى مسلم الخراسانى :
« فان الناس من حوزك رواء ونحن منه ظماء » (١) ، كناية عن تمتع عامة
الناس بالخير فى هذا العهد ، وحرمان العلويين منه ، والرى من الحياض
والظما معهودان منذ الجاهلية ، ويقول الرشيد للأحمر النحرى مؤدب ولده :
« قصير يدك عليه مبسوطة » (٢) ، كناية عن السيطرة عليه .

ونرى كثيرا من الصور متأثرا بالاسلام ، ومن ذلك قول أبى حنيفة
لابراهيم بن أدهم : « فليكن العلم من بالك فانه رأس العبادة وقوام الدين » (٣)
وهنا استعارتان مكنيتان ، شبه العبادة بانسان ، وشبه الدين بخيمة ، وفى
وصية المهدي لابنه موسى يقول : « لتنقذهم من ضلال الظلمة الى هداية
النور » (٤) يشبه الضلال بالظلمة ، ويشبه الهداية بالنور .

ونلمح فى بعض الصور اقتباسا من القرآن الكريم ومن الحديث
الشريف ، ومن ذلك قول المهدي لابنه موسى : « يجدد حبلى الاسلام » (٥) متأثر
بقول الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا » . ويقول ابراهيم بن أدهم
أحد الزاهدين : « فروا من الناس كفراركم من الناس » (٦) ، متأثر فى
أستلويه بقول النبى عليه السلام : « وفر من المجذوم فرارك من الأسد » .

والى جانب ذلك نرى - على قلة - بعض الصور غير المطروقة ، ومن
ذلك قول المنصور لابنه : « يابنى ، لا تبرم أمرا حتى تفكر فيه ، فان فكرة
العاقل مرأته تريه حسناته وسيئاته » (٧) ، وهنا يشبه التفكير العميق بالمرأة
حيث يكتشف حسناته وسيئاته .

ويقول عبد الملك بن صالح موصيا ابنه : « ولقاح المعرفة دراسة .

(٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٥ .

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥١ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٣٧ .

(٤) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٢٠ .

(٥) العقد الفريد ج ١ ص ٢١٠ .

(٦) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٣٩ .

(٧) نهاية الأدب ج ٦ ص ٤١ .

العلم» (١) ، لما كان العلم ينمى المعرفة ويزيدها شبه المعرفة بشيء يلحق ويتكاثر ، وجعل العلم هو الملحق لأن العلم يؤدي الى تكاثر المعرفة ونموها ، ويكشف هذا عن خيال دقيق يربط بين دقائق الأمور ، ويقول ابن المقفع : « ان من استصغر الصغير أو شك أن يجمع اليه صغيرا وصغيرا فاذا الصغير كبير ، وانما هي ثلم يثلّمها العجز والتضييع » (٢) . يشبه استصغار الانسان للامور حتى تتعاضم عليه بالثلمة التي تحدث فى البناء أو مايشبهه ، وهذا خيال دقيق .

وقد يضيف الموصى الى الصورة جزئية مؤثرة فى تحقيق الهدف ، ولو حذفت هذه الجزئية لاختل الهدف من الصورة ، ومن ذلك قول عبد الملك ابن صالح لأمير سرية : « أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس الذى ان وجد ربحا تجر ، والا احتفظ برأس المال » (٣) . فقد شبه القائد بالتاجر المضارب ، وأضاف (الكيس) لأن المضارب قد يكون أحمق أو عديم الخبرة فيضيع المال .

ومن الاضافات المؤثرة فى الصورة قول يحيى بن خالد البرمكى : « اذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحمق » (٤) . وهنا اضافتان حيث أضاف (العاقلة) الى المرأة ، فليست كل امرأة تدارى زوجها ، وأضاف (الأحمق) الى الزوج ، ليبين مدى خطورة مصاحبة السلطان ، والى أى حد يجب مداراته .

ونرى فى هذه الصور تشبيه المحسوسات بالمحسوسات ، وتشبيه المعنويات بالمحسوسات ، أما تشبيه المحسوسات بالمعنويات فلا نجده فى أدب الرصايا فى هذه الفترة ، وهو قليل فى الأدب العربى ، ومن تشبيه المحسوس بمحسوس قول محمد بن الليث لجعفر بن يحيى فى القلم : « فأبره برياً

(١) البيان والتبيين ج ٤ ص ٩٣ .

(٢) الادب الصغير ص ٥ من رسائل البلغاء .

(٣) عيون الاخبار ج ١ ص ١٠٩ .

(٤) المستطرف ج ١ ص ٢٠٣ .

مستوريا كمنقار الحمامة» (١) . ومن تشبيهه المعنوى بمحسوس قول المهدي لابنه موسى : « لتنقذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور » (٢) .

ونرى الصور الكلية والخيال التمثيلي - على قلة - ، ومن أمثلة ذلك قول ابن المقفع فى كتابه (الأدب الصغير) : « لا يمنعك صغر شأن امرئ من احتباء مارأيت من رأيه صوابا ، فان اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذى استخرجها ٠٠٠ لا يتم حسن الكلام الا بحسن العمل ، كالمريض الذى قد علم دواء نفسه ، فاذا هو لم يتداوى به لم يغنه علمه ، والرجل ذى المروءة قد يكرم على غير مال كالأسد الذى يهاب وان كان عقيرا ، والرجل الذى لا مروءة له يهان وان كثر ماله كالكلب الذى يهون على الناس وان ضوق وخلخل » (٣) .

هنا أربعة تشبيهات تمثيلية ، شبه الرأى الصائب يصدر من الرجل الصغير الشأن باللؤلؤة الفائقة يستخرجها غواص صغير الشأن ، وشبه الرجل يتكلم ولا يعمل بالمريض يعرف الدواء ولا يتداوى به ، وشبه الرجل يتكلم ولا يعمل بالمريض يعرف الدواء ولا يتداوى به ، وشبه الرجل ذا المروءة يكرم على غير مال بالأسد يهاب (وهو جريح) وشبه الرجل عديم المروءة يهان وان كثر ماله بالكلب يهون على الناس وان طوق وخلخل .

ومن التشبيهات التمثيلية التى وردت فى الوصايا الشعرية قول أبى العتاهية للرشيد :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجرى على اليبس (٤)

شبه الانسان الذى يرجو النجاة من عذاب الله ولا يأتى بالأعمال الصالحة بالسفينة يراد تسييرها على الأرض بدون ماء .

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ١٩٥ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٢٠ .

(٣) الادب الصغير ص ٩ رسائل البلغاء .

(٤) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢١٨ .

وفى هذه الصور يكثر التشخيص والتجسيم ، والتجسيم إبراز المعنوى على صورة حسية ، تدرك بأحدى الحواس ، أما التشخيص فتشبيه المعسوم الحياة بالانسان الذى يحس ويدرك ، ومن التجسيم قول عبد الملك بن صالح لابنه : « المزاح يورث الضغائن » (١) . والضغائن شئ معنوى شبيهه بالمال الذى يورث ، وجاء فى الوصية نفسها : « وشر ما صاحب المرء الحسد » وهذا تشخيص حيث شبه الحسد وهو معنوى بشخص يصاحبه ، وهذا هو التشخيص .

والخيال فى هذه الصورة خيال استحضارى يستحضر الصور الموجودة ويربط بينها وبين المشبهات ، وقد يكون الربط قريبا ملحوظا بدون تعمق فى التفكير والتخيل ، كما رأينا من تشبيه كتاب الله بالامام ، وقد يكون الربط بعيدا لا يدركه ولا يستطيع الربط بين المشبه والمشبّه به الا صاحب الخيال اللاقط ، كما رأينا من تشبيه الرأى الصائب يصدر من الرجل الصغير الشأن بالزللوة الفائقة يستخرجها غواص حقيق الشأن .

ولا يحاول الموصون أن يبرزوا المشبه فى صور عديدة ، ولذلك لا نرى الصور تتوالى فى الموقف الواحد ، ونادرا ما تتوالى صورتان على معنى واحد . كما فى قول المنصور لأبى مسلم : « أفق أيها السكران ، وانتبه أيها النائم » (٢) .

ويتحقق الصدق الفنى فى هذه الصور فيقبلها الخيال والذوق لأنهم لا يتكلفون فى تكوين الصورة ولا يبالغون مبالغة منفرة ، وحقا أن التصوير الفنى لا يخلو من المبالغة ولكن المبالغة التى نراها هنا يسيرة مقبولة فى الذوق والخيال ، فابراهيم بن ادهم يقول فى التنفير من الناس :

« قلب الناس كيف شئت تجدهم عقاربا » (٣)

فتشبيه الناس بالعقارب فيه مبالغة ، ولكنها مبالغة مقبولة لما يلقى

(١) البيان والتبيين ج ٤ ص ٩٣ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٦٨ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٤٢ .

الناس من بعضهم من أذى ، ويقول إبراهيم بن أدهم أيضا فى المعنى نفسه :
« فروا من الناس كفراركم من الأسد الضارى » (١) .

ويوصى العباس بن محمد ابن أخيه الرشيد فيقول : « انما هو درهمك
وسيفك ، فازرع بهذا من شكرك ، واحصد بهذا من كفرك » (٢) وحصد الناس
صورة توحى بكثرة القتلى ، وهذا يتناسب مع انتقام الخليفة من قوم كفروا
نعمته وحاولوا هدم ملكه وسلطانه .

ونرى كل هذه الملامح فى التصوير فى القرن الثالث الهجرى ، ومن
الصور القديمة التى تجرى على الألسنة قول طاهر بن الحسين لابنه : « وتفرد
بتقويم نفسك ٠٠٠ وأشدد لسانك » (٣) . والجملة الأولى استعارة مكنية شبه
نفسه بعود أو رمح يقوم ، والثانية كناية عن عدم الكلام .

ومن الصور المتأثرة بالاسلام قول طاهر بن الحسين لابنه : « ثم اعتصم
فى أحوالك كلها بأمر الله ٠٠٠ واعلم أن القضاء بالمكان الذى ليس به شئ
من الأمور لأنه ميزان الله » (٤) . والجملة الأولى استعارة شبه أمر الله بالحبل
الذى يتمسك به ، والجملة الثانية تشبيهه شبه القضاء بميزان الله .

ومن التشخيص قول طاهر بن الحسين لابنه : « ولا تجيين باطلا » (٥)
شبه الباطل بشخص يناديه .

ومن الصور الجديدة قول أبى تمام للبحتري يوصيه باختيار ألفاظه على
قدر المعانى :

« ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقابر الأجساد » (٦) .

(١) المرجع نفسه ص ١٣٩ .

(٢) نهضة الأرب ج ٦ ص ٨ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٥٨٢ .

(٤) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٥٨٦ .

(٥) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٥٨٦ .

(٦) زهر الآداب ج ١ ص ١٥٢ .

ومن الاضافات المهمة فى الصورة قول على بن موسى الرضا :

« لا تغرنك أباطيل المنى والزم القصد ودع عنك العلل
انما الدنيا كظل زائل حل فيه راكب ثم ارتحل » (١).

فوصف الظل بأنه زائل مهم لبيان عدم دوام الدنيا ونعيمها ، وبدون هذا اللفظ توحى كلمة (الظل) بالراحة النفسية والطمأنينة .

ومن الخيال التمثيلى قول أحد البخلاء يوصى ابنه بمقاومة رغبته فى الفاكهة : « فلست تلقى على هذا الحساب من معالجة الشهوة عندك الا مثل ما لقيت منها فى نومك » (٢) ، وهو يشبه ما يلقى من العنت فى مقاومة رغبته فى الفاكهة بما يلقاه النائم فى نومه فى الحلم الذى لا يلبث أن يزول .

وقد ذكرنا أن الموصين لا يكثرُونَ من المبالغة فى التصوير ، ومن المبالغات القليلة قول أبى سعيد الخراز : « أن ترجع الى نفسك فتذيبها بالطاعة ، وتفارقها وتميتها بالمخالفة ، وتذبحها بالاياس فيما سوى الله » (٣) . وكلها استعارات فيها مبالغة .

وفى القرن الرابع الهجرى بقيت الملامح العامة التى لاحظناها فى القرنين الثانى والثالث ، وزاد عليها أننا رأينا زيادة فى الاهتمام بالتصوير ، ورأينا الصور تتوالى فى وصايا كبار الكتاب الذين عنوا بالتنميق فى أسلوبهم ، ورأينا افتنانا فى تكوين الجسور الكلية ، وقليلًا من التشبيه بالمعنويات .

نرى الصور القديمة فى قول أبى بكر الخوارزمى : « فانى أرى للشيوخ أن يلبس ثوبا من الصبر » (٤) شبه الصبر بثوب ، ويقول صاحب بن عباد :

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٥٠ .

(٢) كتاب البخلاء ص ٩٨ .

(٣) اللمع ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٤) كتاب رسائل الخوارزمى ص ٩٨ .

إذا ولاك سلطان فزده من التعظيم واحذره وراقب
فما السلطان الا البحر عظما وقرب البحر محذور العواقب» (١)

وتشبيهه السلطان بالبحر قديم .

ومن الكنايات المتأثرة بالاسلام قول رويم بن أحمد أحد المتصوفة يوصي
أبا عبد عبد الله بن خفيف بشأن التصوف : « ما هذا الأمر الا ببذل الروح » (٢)
وبذل الروح كناية عن الانصراف التام عن الدنيا والتفانى فى العمل للأخرة .

ويبرز الموصون بعض الصور القديمة فى ثوب جديد ، كما يبتكرون
صورا جديدة يربط فيها خيالهم بين أجزاء متباعدة فى الواقع ، ومن ابراز
الصور القديمة فى ثوب جديد قول أبى بكر الخوارزمى : « لا تزاحم الفلك
الدوار ، ولا تناطح الأقسام والأقدار ، ولا تجلس على طريق السيل الرابع ،
ولا تطعن فى نحر القضاء الغالب » (٣) ، والتناطح قديم ولكن الكاتب هنا
يتخيل الرجل والقدر يتناطحان ، وكذلك يوصى الموصون بعدم معاندة القدر ،
والخوارزمى هنا يشخص القدر ويجعل له نحرا يطعن فيه الانسان وهذا عرض
للصور القديمة فى ثوب جديد .

ومن الكنايات الجديدة قول مسكويه : « حتى لا يفوته شئ من العلوم
والمعارف الصالحة لتصلح أولاد نفسه » (٤) ، وأولاد نفسه كناية عن الأمانى
والآمال .

ومن التجسيم قول ابن العميد : « واركب فى الخدمة طريقة تبعذك من
الملال » (٥) وقد جسم الطريقة التى يسلكها وجعلها دابة يركبها .

ومن الربط بين أشياء متباعدة تشبيه أبى الحسن الماوردى للرجل الذى

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ٧٣٠ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ٢٠ .

(٣) كتاب رسائل الخوارزمى ص ٧ .

(٤) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٧ .

(٥) زهر الآداب ج ٤ ص ١٠٦٤ .

يتخلى عن المروءة بالحجر الثقيل حيث يهبط كل منهما الى القاع بسهولة ،
ويصعب رفعه الى أعلى ، يقول : « ذو المروءة يرتفع بها ، وتاركها يهبط ،
والارتقاء صعب ، والانحطاط هين ، كالحجر الثقيل الذى رفعه عسير ،
وحطه يسير » (١) .

وفيلسوف بديع الزمان الموقف فيقول فى وصيته لو ارث : « العزاء من
الأعزة رشد كآنه الغى وقد مات الميت فليحى الحى » (٢) ، فالعزاء رشد لأنه
مشاركة للناس فى آلامهم ، ولكنه يشبه الغى لأن الميت مات ولن يحيا مرة
أخرى فيجب الانصراف عن التفكير فيه ، وليحى الحى ، وهكذا كان العزاء
رشدا كآنه الغى .

وتتوالى الصور الجديدة فى المقامة الوصية لبديع الزمان الهمذانى ،
ومن قول أبى الفتح الاسكندرى : « لا آمن لصين ، أحدهما الكرم ، واسم
الآخر القرم ، وإياك وإياهما ، ان الكرم أسرع فى المال من السوس ، وان
القرم أشأم من البسوس ، ودعنى من قولهم : ان الله كريم ، انها خدعة الصبى
عن اللبن » (٣) .

وهنا يشبه الكرم والقرم (وهو الشهوة للحم) بلصين ، لأنهما يأخذان
المال ، ثم يشبه الكرم بالسوس ، والقرم بالبسوس ، والبسوس رمز الشؤم ،
وهى صاحبة الناقة التى تسببت فى حرب دامت أربعين عاما بين بكر وتغلب ،
ثم يأتى بتشبيه تمثيلى فيقول : « انها خدعة الصبى عن اللبن » ، فيشبه خداع
الناس للرجل لصرفه عن ماله بخداع الأم للطفل لصرفه عن الرضاع ، ثم يأتى
بتشبيه طريف فيقول لابنه : « ثم كن مع الناس كلاعب الشطرنج ، خذ كل
مامعهم ، واحفظ كل مامعك » .

ويوصى المتنبى بعدم الاغترار باكلام المعسول لأن الأفئدة تنطوى على
الغل والحق ، ولا بد أن يتفجر العداء يوما ما ، ويأتى بتشبيه تمثيلى رائع

(١) نهاية الأرب ج ٦ ص ١٣٢ .

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٨٩ .

(٣) مقامات بديع الزمان الهمذانى ص ١٤٤ .

فيشبهه حالة الشخص الذي ينطوى قلبه على الغل بالجرح الذي يندمل على فساد ثم يتفجر بعد ذلك ، يقول المتنبي :

تقلبهن أفئدة أعادي	« فلا تغررك السنة موال
بكى منه ويروى وهو صادى	وكن كالموت لا يرثى لباك
إذا كان البناء على فساد « (١)	فان الجرح ينغر بعد حين

وقد تتوالى الصور الموحية بجو نفسى واحد كما فى قول أبى بكر الخوارزمى يوصى وزير خوارزمشاه لما نكب : « فانى رأى للشيخ أن يلبس للدهر ثوبا من الصبر ثخينا ، ويولى حوادثه ركنا من التماسك ركيئا ، وأن تجده الأيام حرا ، وأن تصيبه الحوادث اذا ذاقته مرا » (٢) .

(١) زهر الآداب ج ١ ص ١١٠ .

(٢) كتاب رسائل أبى بكر الخوارزمى ص ٩٨ .

السجع والمحسنات البديعية

خضع أسلوب الوصايا لما خضعت له سائر الفنون الأدبية ، ففي القرنين الثانى والثالث ساد الأسلوب المرسل الذى لا يتقيد بالسجع ولا يتكلف المحسنات البديعية وإن تمتع أسلوبهم بانتقاء الألفاظ الملائمة وتسلسل العبارات وتجنب الابتذال .

يقول يحيى بن خالد : « مساءلة الملوك عن حالها من تحية النوكى ، فإذا أردت أن تقول : كيف أصبح الأمير ؟ فقل : صبح الله الأمير بالنعمة والكرامة ، وإن كان عليلاً فأردت أن تسأله عن حاله فقل : « أنزل الله على الأمير الشقاء والرحمة » (١) ، ولا نرى فى هذا الأسلوب تكلفاً ، وهكذا كانت معظم الوصايا فى القرن الثانى .

وكانت المحسنات تأتى فى الوصايا عفو الخاطر حين يتطلبها المعنى ، كما نرى فى قول الرشيد يوصى هرثمة بن أعين : « وأن يجعل كتاب الله اماماً فى جميع ما هو بسبيله فيحل حلاله ويحرم حرامه » (٢) . وهنا مقابلة بين الجملتين : « يحل حلاله ويحرم حرامه » وهى مقابلة يتطلبها المعنى الذى يعبر عنه .

وكان الموصون يعنون أحياناً بأسلوبهم بدون أن يلتزموا فيه السجع ، ونقرأ الوصية فنحس أن الموصى لا يسترسل على سجيته وإنما ينتقى الجمل فى كثير من الأحيان ، ويبدو أن الموصى كان يهدف فى أمثال هذه المواقف الى أن يكون لأسلوبه وقع مؤثر فى نفس من يوصيه ، ونقتطف هنا عبارات من وصية المنصور لأبى مسلم الخراسانى إذ يقول له : « أفق أيها السكران ، وانتبه أيها النائم . . . إن الله لا يعجزه من هرب ، ولا يفوته من طلب ،

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٦٠ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٣٢٧ .

فلا تغتر بمن معك من شيعتى وأهل دعوتى ، فكانهم قد صالوا عليك بعد أن صالوا معك ان أنت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة « (١) . وفى هذا الأسلوب شئ من الازدواج والسجع .

ونقرأ بعض الوصايا فنحس أن الموصى يقصد الى تجميل أسلوبه بالسجع والمحسنات ، ولكنه لا يلتزم ذلك ، ولا عجب ، فالسجع معروف منذ الجاهلية ، وقد ورد كثيرا فى القرآن الكريم ، ولكنه لم يكن يلتزم حتى هذه الفترة الا فى القليل النادر ، ونقتبس جزءا من وصية عبد الملك بن صالح لابنه ، وسنرى أنه يقصد الى السجع والمقابلة ، ولكنه لا يلتزم ذلك . يقول : « المزاح يورث الضغائن ، وحسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الاسراف ، والاقتصاد يثمر القليل ، والاسراف يتبر الكثير ، ونعم الحظ القناعة ، وشر ما صاحب المرء الحسد ، وما كل عورة تصاب ، وربما أبصر العمى رشده وأخطأ البصير قصده » (٢) ، وهنا يأتى بجملة لا يتبعها بالسجع ، ثم يراعى السجع ، ويعود فيتخلى عنه ، ثم يقصد اليه .

وتطالعنا فى صدر الدولة العباسية وصية تلتزم السجع تماما وتهتم بالمحسنات البديعية وهى حالات نادرة لا يمكن الحكم بمقتضاها بأن الموصين كانوا يلتزمون السجع والمحسنات فى القرن الثانى الهجرى ، ولكنها تدل على أن قليلين كانوا يهتمون بالسجع والمحسنات البديعية بدليل هذه الوصية ، وبدليل الرسالة التى أوردها الجاحظ لابراهيم بن سيابة ، والتى بعث بها الى يحيى بن خالد البرمكى ، وهى تلتزم السجع من أولها الى آخرها (٣) ، وهذه الرسالة لا تدخل فى الوصايا .

والوصية التى نشير اليها والتى تلتزم السجع وتكثر من المحسنات وصية بعث بها عبد الله بن معاوية من سجنه الى أبى مسلم الخراسانى يوصيه فيها باتباع العدل ومخافة الله وانصاف أهل بيت الرسول . ومطلع

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٦٨ - بتصرف .

(٢) البيان والتبيين ج ٤ ص ٩٣ .

(٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢١٥ .

الوصية : « من الأسيرى يديه بلا ذنب اليه ، ولا خلاف عليه ، أما بعد ، فأتاك الله حفظ الوصية ، ومنحك نصيحة الرعية ، وألهمك عدل القضية ، فانك مستودع ودائع ، ومولى صنائع ، فاحفظ ودائعك ، بحسن صنانعك » (١) .

وفى القرن الثالث الهجرى ظل الحال كما كان عليه بالنسبة لموقفهم من السجع والمحسنات البديعية ، فمعظم الموصين ينطلقون على سجيتهم فى أسلوب مرسل لا يتكلف السجع ولا يحشد المحسنات ، وفى وصية أحمد ابن أبى داود لإبراهيم بن المهدي يقول : « يا إبراهيم ، اذا نازعت أحدا فى مجلس الحكم فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتا ولا أشرت اليه بيد ، وليكن قصدك أمما ، وطريقك نهجا ، وريحك ساكنة » (٢) ويستمر على هذا النهج المرسل .

وأوصى طاهر بن الحسين ابنه عبد الله ، وجاءت وصيته مطولة (قدمننا نماذج منها) ونقرأ هذه الوصية فنجد الأسلوب المرسل الخالى من التكلف (٣) .

وفى وصايا القرن الثالث أيضا نرى اهتماما بجمال الأسلوب وعناية بالسجع والازدواج أحيانا ، يقول المأمون لبعض ولده : « ماعلى أحذكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده ، ويزين بها مشهده ، ويفل حجج خصمه ، بمسكتات حكمه ، ويملك مجلس سلطانه ، بظاهر بيانه ، ليس لأحذكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته ، فلا يزال الدهر أسير كلمته » (٤) .

وكان بعض الصوفيين يهتمون بالسجع فى وصاياهم طلبا لقوة التأثير على من يخاطبونهم ، وكانوا يكثررون من الطباق للمقابلة بين حالى الدنيا والآخرة وما يتعلق بهما ، ومن وصايا الحلّاج لبعض تلاميذه : « يا ولدى

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٥ .

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٨٥ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٥٨٢ .

(٤) زهر الآداب ج ٣ ص ٧٧٥ .

صن قلبك عن فكره ، ولسانك عن ذكره ، واستعملهما بادامة شكره » (١) .
وقد تحدثنا فيما سبق عن غموض المعانى ، والذي يعيننا هنا انما هو
الاهتمام بالسجع .

ومن وصايا الكتاب البارزين فى القرن الثالث والذين لم يولوا السجع
والمحسنات اهتماما وصية أبى الحسن على بن محمد بن الفرات للوزير
العباس بن الحسن حيث يقول له : « فليثق الله الوزير ولا ينصب الا من قد
عرفه واطلع على جميع أحواله ، ولا ينصب بخيلا فيضيق على الناس ويقطع
أرزاقهم ، ولا طماعا فيشره فى أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملأهم ،
ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام » (٢) .

وكان أبو زيد أحمد بن سهل البلخى ممن يغلب على أسلوبهم الترسل ،
وقد عاش معظم حياته فى القرن الثالث الهجرى (٢٣٥ - ٢٢٢) ومع ذلك
نقرأ له وصية موجزة تلتزم السجع اذ يقول : « شاور فى أمرك من جرب
الأمر وخبرها ، وتقلبت عليه الحوادث وباررها ، لم يوهنه ضعف الهرم ،
ولم يغيره حادث السقم » (٣) .

وكتب أبو على البصير الى عبيد الله بن يحيى بن خاقان يوصيه ، ولم
يلتزم السجع ولكن وصيته شملت السجع واهتمت اهتماما كبيرا بالطباق
والمقابلة والازدواج ، ومن قوله : « لا يخرجك فرط النصح لأمر المؤمنين
عن النظر لرعيته ، ولا ايثار حقه عن الأخذ بحقها عنده ، ولا القيام بما هو
له عن تضمن ما هو عليه » (٤) .

وهو لا يلتزم السجع هنا ، ولكنا نرى المقابلة بين (ايثار حقه والأخذ
بحقها عنده) وبين (القيام بما هو له وتضمن ما هو عليه) ، ونرى السجع

(١) أخبار الحلاج ص ٢٩ .

(٢) الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ٩ .

(٣) تحفة الوزراء للشعالبي ص ٨٩ مطبعة العانى بغداد .

(٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٤٣٦ .

والمقابلة والازدواج فى مثل قوله : (تمضى ماكان الرشيد فى امضاءه ،
وترجىء ماكان الحزم فى ارجائه) .

وفى القرن الرابع الهجرى سيطر الأسلوب المسجوع ، وظهر هذا
الاهتمام بالسجع والمحسنات البديعية فى أدب الوصايا ، ومع ذلك فاننا
نجد بعض الوصايا مرسلة الأسلوب لا تولى السجع والمحسنات اهتماما ،
وفى وصية أبى الهيجاء لابنه ناصر الدولة يقول : « اذا رأيت السلطان
قد رفع من أهلك رجلا ، أو الزمان قد نوه به ورأسه ، فاياك أن تحسده
وتشغل نفسك بعداوته ، فانك تتعب ولا تصل الى فائدة ، وتسقط أنت
ولا يضره هو » (١) . وتمضى الوصية كلها على هذا النمط المتحرر
من القيود .

وظل بعض الصوفية يلجئون الى الأسلوب المسجوع طلبا لقوة التأثير
كما قلنا ، ومن ذلك قول أبى بكر محمد بن موسى الفرغانى : « من ذكر
افترى ، ومن صبر اجترا ، واياك أن تلاحظ جبيبا أو كليما أو خليلا . وأنت
تجد الى ملاحظة الحق سبيلا » (٢) .

وكان كبار الكتاب يلتزمون السجع ويكثر من المحسنات كالتطابق
والجناس .

وكان أبو بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمداني يلتزمان هذا النهج
فى أسلوبهما ، ووضحت هذه الظاهرة فى وصاياهما ، ونقرأ وصية
الخوارزمى لموزير خوارزمشاه لما نكب ، فنقرأ فيها : « وأن يدارى مع ذلك
سلطان ، ويصغر بلسانه اساعته ويكثر احسانه ، ويروض لسانه فى الخلوة
على شكره ، لئلا يجمع به فى الجلوة الى غيره » (٣) .

ويبدو هنا السجع والازدواج ، ومن المقابلة : (يصغر اساعته ويكثر
احسانه) ومن الجناس (الخلوة والجلوة) .

(١) نشوار المحاضرة ج ٢ ص ١٤٥ .

(٢) تلييس ابليس ص ١٦٩ .

(٣) كتاب رسائل الخوارزمى ص ٩٨ .

وكتب بديع الزمان الهمذاني يوصى وارثا ، وجاء فى مطلع الوصية :
« العزاء من الأعزة رشد كئنه الغى ، وقد مات الميت فليحى الحى ، واشدد
على مالك بالخمسة ، فأنت اليوم غيرك بالأمس » (١) وفى هذه العبارة
القصيرة التى تلتزم السجع نرى الطباق والمقابلة بين الرشد والغى ، وبين
الميت والحى ، أو بين (مات الميت ، ويحيا الحى) ، وبين اليوم والامس ،
ونرى الجناس الناقص بين العزاء والأعزاء ، وبين خمس وأمس .

وهكذا نرى أن أدب الوصايا كان موقفه من السجع والمحسنات شبيها
بموقف سائر الفنون الأدبية ، ولكنه كان أقل تقيدا بالسجع والمحسنات ،
حيث كان أدب الوصايا يصدر أحيانا من أناس غير كبار الكتاب الذين
التزموا بالسجع والمحسنات .

ونرى فى أدب الوصايا سائر ألوان المحسنات البديعية الأخرى ، ومنها
الاعتراض وقد تحدثنا عنه فى حديثنا السابق عن الأسلوب ، ومنها المناسب
أو مراعاة النظر كما فى قول المهدي يوصى ابنه الرشيد : « عليك يابنى
بتقوى الله وطاعته فاتخذها بضاعة يأتيك الربح من غير تجارة » (٢) .
لما ذكر التجارة ذكر الربح .

ومنها التوشيع وهو أن يؤتى بمثنى مفسر باسمين أو بجمع مفسر
بأسماء ، ومنه قول بديع الزمان الهمذاني على لسان أبى الفتح الاسكندري
يوصى ولده : « لا آمن عليك لصين : أحدهما الكرم ، واسم الآخر القرم » (٣) .
ومنها التذييل وهو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها توكيدا
لها ، مثل قول أعرابية توصى ابنها : « واذا هـزرت فاهرز كريما يلين
لمهزتك » (٤) . فجملة يلين لمهزتك تذييل . ومنها الاحتراس وهو أن يؤتى فى
كلام يوهم خلاف المراد بما يدفعه مثل قول الرشيد لمؤدب ابنه الأمين :
« ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتم فيها فائدة تفيده اياها من غير أن تخرق .

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٨٩ .

(٢) الامامة والسياسة لابن قتيبة ص ١٨٣ مؤسسة الوفاء .

(٣) مقامات بديع الزمان ص ١٤٤ .

(٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٤٣٨ .

به فتميت ذهنه «(١) . فجملته (من غير أن تحرق به فتميت ذهنه) احتباس من أن يلغنه المعلومات حتى يرهقه .

ومنها الايغال وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها مثل قول المهدي لابنه الهادي يوصيه بأهل خراسان : « فهم عماد الأرض اذا أرجفت كنفها ، وحتوف الأعداء اذا برزت صفحتها ، وحصون الرعية اذا تضايقت الحال بها »(٢) وهنا ثلاث جمل تعد من الايغال .

ومنها التفريق وهو أن يفرق المتكلم بين أمرين مندرجين تحت جنس واحد ، مثل قول الرشيد : « ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلم فاكتبوه فى ألفى دينار من العطاء »(٣) . وقد عطف جملة (من عمر مجالس العلم) على جملة (من طلب العلم) ، وهما متحدان .

ومنها الايضاح بعد الايهام ، مثل قول صاحب بن عباد يرمى تاش الحاجب بالمقاضى الجرجانى : « من مظاهرتة على ما يقدم الرحيل ويفتح السبيل من بدرقة ان احتاج اليها ، والى الاستظهار بها ، ومخاطبة لبعض من فى الطريق بتصرف النجح فيها »(٤) . فقد أبهم أولا مايقدم الرحيل ويفتح السبيل ، ثم أوضحه فى الجمل التالية .

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٥١ .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢١٠ .

(٣) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٨٨ .

(٤) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣ .

المطالع والخواتيم

نستطيع أن نقول : ان الموصين لم يلتزموا بصيغة محددة يبدعون بها وصاياهم ، ذلك لأن الموصين كانوا من طبقات متعددة ، فهناك الخلفاء والوزراء ، وهناك الآباء من عامة الشعب ، وهناك رجال الدين والزاهدون والمتصوفون ، فالمستويات الاجتماعية والثقافية مختلفة ، فلم يلتزم الموصون بصيغة معينة فى مطالع وصاياهم .

ومع ذلك نستطيع أن نحدد مجموعة من المطالع غلبت على وصايا تلك الفترة ، ونستطيع أن نقول - ونحن مطمئنون - : ان الوصايا كانت تبدأ بالبسملة ، وقد وردت البسملة فى بعض الوصايا كما فى وصية المنصور لابنه بالخلافة (١) . وكما فى وصية أحمد بن حنبل قبل وفاته (٢) . ولكنها حذفت من بعض الوصايا وذلك من باب الاختصار ، وكانوا حريصين على البسملة فى افتتاح كل كلام .

ونورد الآن المطالع الغالبة فى الوصايا ، ونلاحظ أنها كانت تبدأ كثيرا بالنداء ، اما بالكنية كقول ابراهيم الامام لأبى مسلم الخراسانى : « يا أبا عبد الرحمن » ، ويقول المنصور لابنه المهدي : « يا أبا عبد الله » ، وأبو تمام ينادى البحترى : « يا أبا عبادة » ، وقد ينادى الآباء أبناءهم بيا بنى ، أو : أى بنى ، كما فى وصية عبد الملك بن صالح لابنه ، ويفتح المهدي وصيته للرشيد بقوله : « عليك يا بنى » ويقول الحلاج فى وصيته لأحد تلاميذه : (يا ولدى) ، والجنيد يقول لصاحبه (يا أخى) ويوصى عمرو بن عبيد أبا جعفر المنصور فيقول : (يا أمير المؤمنين) ، وأبو محمد عبد الله بن خبيق أحد متصوفة القرن الثالث يوصى صديقه فينسبه الى بلده فيقول : (يا خراسانى) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ١١١ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٤٠ .

وقد يكون النداء باللقب ، والرشيـد يقول لمؤدب ولده : (يا أحمد) ،
وقد يكون النداء بالاسم ، والمهدى يوصى الربيع بن أبى الجهم فيناديه :
(ياربـيع) وأحمد بن أبى داؤد يوصى ابراهيم بن المهدى فيقول :
(يا ابراهيم) .

وقد تبدأ الوصية بعبارة (أما بعد) كما فى وصية الرشيد بأهل العلم
والدين ، وقد تبدأ بعبارة (من فلان) كما فى قول المنصور : « بسم الله
الرحمن الرحيم ، من عبد الله المنصور أمير المؤمنين » ، وفى الوصية التى
كتبها عبد الله بن معاوية من سجنه الى أبى جعفر المنصور بدأها بقوله :
« من الأسير فى يديه » .

وقد يبدأ الموصى بذكر من يوصيه اذا كان شخصية مسيطرة ، وقد
كتب عبيد الله بن عمر الى أبى جعفر المنصور فبدأ الوصية بقوله : « لعبد الله
أبى جعفر أمير المؤمنين من عبيد الله بن عمر » .

وبدأ أحمد بن حنبل وصيته بقوله : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا
ما أوصى به أحمد بن محمد بن حنبل » ، وبدأ المؤمنون بقوله : « هذا ما أشهد
عليه عبد الله بن هارون أمير المؤمنين » ، وعند رحيل المنصور الى مكة
قال للمهدى : « هذا كتاب وصيتى مختوما » ، وبدأ الرشيد وصيته لهرثمة
بن أعين بقوله : « هذا ما عهد به هارون الرشيد أمير المؤمنين » .

وقد تبدأ الوصية بالأمر كما فى قول المنصور لابنه المهدى : « اتق الله
فيما أعهد اليك . وبدأ طاهر بن الحسين وصيته لابنه بقوله : « بسم الله
الرحمن الرحيم ، عليك بتقوى الله » ، وقال يحيى بن خالد لابنه : « عليك
بكل نوع من العلم فخذ به » ، ويقول ابراهيم بن أدهم لرجل فى الطواف :
« اعلم أنك ... » ، ويقول أبو سعيد الخراز : « احفظ وصيتى » .

وقد تبدأ الوصية بالتحذير كما فى وصية أحمد بن هارون الرشيد
لأبيه اذ يقول : « اياك أن تموت فى سكرتك » ، وفى الوصايا بالأشخاص
كثيرا ماتبدأ الرسالة بعبارة (كتابى اليك) كما فى وصية الحسن بن وهب
بأبن أبى الشيص اذ كتب الى مالك بن طوق : « كتابى اليك خططه بيمينى » .

وكذلك تتنوع خواتيم الوصايا ، وقد تخدم الوصية بعبارة (والسلام) ، كما فى وصية عبيد الله بن عمر لأبى جعفر المنصور ، وختم عبيد الله بن معاوية وصيته لأبى مسلم بقوله : « والسلام ورحمة الله » ، أو يخدم بالمشيئة كما فى وصية أبى تمام للبحترى : « فما استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ترشد ان شاء الله » .

وقد تخدم الوصية بأية كريمة كما فى وصية الرشيد بأهل العلم والدين حيث ختم بالآية الكريمة : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

وقد يختمون بالدعاء ، وختم عبد الملك بن صالح وصيته لابنه بقوله : « والله يوفقك » وختم الامام مالك وصيته للشافعى بقوله : « وبالله التوفيق » ، وختم المهدي وصيته لإبنه الهادي بقوله : « أصحابك الله من عونه وتوفيقه دليلا يهدى الى الصواب قلبك ، وهاديا ينطق بالحق لسانك » ، وختم المنصور وصيته للمهدي بقوله : « هذه وصيتى اليك ، والله خليفتى عليك » .

وقد يختم الموصى بالنصيحة كما فى قول المنصور للمهدي : « اتق الله فيما خولك وفيما خلفتك عليه » ، وقد يختم الموصى بالالتجاء الى الله والتفويض اليه ، يقول أبو سعيد الخراز فى ختام وصيته : « والله يفعل مايشاء ويحكم مايريد » .

وقد يختم بالصلاة على النبى عليه السلام كما فى قول المأمون فى ختام وصيته : « حسبى الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على محمد نبى الهدى والرحمة » ، وقد تنتهى الوصية بالنصائح التى يوجهونها ولا يأتون بخاتمة منفصلة كما فى قول الفضل بن الربيع يوصى بالحذر فى مخاطبة الملوك : « لأنهم ان أجابوكم اشتد عليهم ، وان لم يجيبوكم اشتد عليكم » .

ويبدو أنهم كانوا يوردون فى ختام الوصية التى تتضمنها رسالة اسم كاتب الوصية وتاريخ كتابتها ، وقد ورد ذلك فى عديد من الوصايا ، وفى

ختام وصية الرشيد لهرثمة : « وكتب أمير المؤمنين بخط يده ولم يحضره
الا الله وملائكته » ، وجاء فى ختام وصية المهدي للهادي : « وكتب فى
شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد » ، وجاء فى ختام وصية محمد
ابن عبد الله بن طاهر باستخلاف أخيه : « وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة
خلت من ذى القعدة سنة ثلاث وخمسين ومائتين » .

شخصيات الوصايا

لم تكن الوصايا مقصورة على الحكماء ، فقد صدرت من أشخاص من عامة الناس ولكنها على أى حال تصدر ممن يدعون المعرفة بحكم علمهم أو مكانتهم أو سنهم أو خبرتهم أو بدافع الشفقة أو العاطفة الانسانية .

صدرت الوصايا من الخلفاء الى أبنائهم أو اخوتهم ، والى عمالهم وقادتهم ووزرائهم والى شعوبهم ناصحين أو محذرين ، وأوصى الرشيد الأحمر النحوى مؤدب ابنه الأمين ، وصدرت الوصايا من الوزراء أيضا مثل يحيى بن خالد البرمكى والفضل بن الربيع وغيرهما ، وكانت الوصايا من القادة لجنودهم ولرعاياهم .

وصدرت الوصايا الى الخلفاء من رعاياهم ، فقد كان العلماء والزاهدون والمتصوفون يدخلون على الخلفاء ويوصونهم ، وقد يطلب الخلفاء أولئك العلماء ويطلبون وصاياهم ، وكتب بعض العلماء وصايا مطولة مثل وصية الامام مالك لهرون الرشيد .

وقد يوصى بعض الزعماء الروحيين القادة والولاة كما فى وصية عبد الله بن معاوية لأبى مسلم الخراسانى ، وكما فى وصية على عبد الله ابن معاوية لأبى مسلم الخراسانى ، وكما فى وصية على بن موسى الرضا لعامة الشعب ، وكتب بعض الأدباء وصايا موجهة الى الناس عامة ، ومن هؤلاء الأدباء ابن المقفع والجاحظ ، وأوصى العلماء بعضهم بعضا كما فى وصية الامام مالك للامام الشافعى ، وكما فى وصية أبى حنيفة لابراهيم ابن أدهم أحد كبار الزاهدين ، وكان المتصوفون يوصون الناس ويوصى بعضهم بعضا ، وأورد ابراهيم بن أدهم وصية شعرية سمعها من أحد الرهبان .

وهناك وصايا لشعراء وعلى رأسهم أبو العتاهية والمتنبى ، وكتب بشر بن المعتمر وصية فى البلاغة ، وأوصى أبو تمام صديقه وتلميذه البحتري

وصية أدبية ، وأوصى بختيشوع الطبيب باختيار ما قدم من الشراب وما حدث من الطعام ، وأوصى أبو بكر الخوارزمي مريضاً بالجرب ولم يكن أبو بكر طبيباً متخصصاً .

وأوصى عامة الناس أبناءهم بدافع الشفقة والحرص على المصلحة ، ومن الوصايا النادرة وصية أحمد بن الرشيد لوالده الخليفة ، وكان أحمد زاهداً يعيش من كسب يده ، وأوصى بعض العلماء أنفسهم ، ومنهم شريك القاضي ، وكان يحمل في جيبه وصية لنفسه بالعدل والتقوى ، وكان يقرؤها قبل الجلوس للقضاء ، وكتب ابن مسكويه وصية لنفسه وإن كان يقصد بها عامة الناس .

وهناك وصايا بالبخل صدرت على ألسنة أبطال حكايات الجاحظ في كتاب البخلاء ، وقريب منها وصايا المكدين بالاحتتيال لكسب المال من كل الوجوه وخداع الناس واحتقارهم ، ووردت هذه الوصايا في مقامات بديع الرمان الهمداني ، ووردت وصية على لسان أحد المتطفلين وكتب الوصية أبو اسحاق الصابي .

وفي القرن الرابع صارت الوصايا معرضاً لظهور المقدرة الفنية ، وكتب كبار الأدباء كابن العميد وأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني وأبي اسحق الصابي وصايا إلى الولاة والقادة يوصونهم بالتزام الطاعة ويبرزون آثارها ، أو يوصونهم بالعودة إلى الطاعة إذا خرجوا عليها ، وكتبوا في موضوعات أخرى كوصية وارث مال ووصية مريض بالجرب ووصايا المكدين والمتطفلين كما أسلفنا .

ولم يكن للمرأة مكانة كبيرة في الوصايا ، ولم تكن المرأة تتولى مناصب هامة تتيح لها أن تقدم وصاياها لرعاياها ، ولذلك لا نجد للمرأة وصايا إلا قليلاً ، وصدرت هذه الوصايا من أم لابنها ، ووردت وصية من زبيدة أم الأمين توصي أحمد بن مزيد قائد جيش الأمين حين وجهه للقبض على أخيه المأمون ، وفي هذه الوصية توصي زبيدة قائد الجيش بمعاملة المأمون معاملة حسنة .

القوالب التى تصب فيها الوصايا

وردت الوصايا فى صور مختلفة ، فقد وردت فى صورة مشافهة ، ووردت فى صورة خطبة موجهة الى عامة الناس ، ووردت فى صورة توقيع موجه الى شخص معين ، ووردت الوصية فى صورة رسالة موجهة الى شخص بالنصيحة ، أو متضمنة وصية بشخص آخر .

وهناك وصايا مطولة مثل وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله ، وتقع فى تسع صفحات ، وطالت رسالة الامام مالك الى هارون الرشيد حتى تجاوزت الثلاثين صفحة ، وتشمل وصايا دينية واجتماعية ، وقبلها كتب ابن المقفع كتابيه (الأدب الصغير ، والأدب الكبير) ويشتملان على وصايا متعددة يدور معظمها حول الأخلاق والآداب الاجتماعية ، وألف المحاسبى أحد المتصوفين فى القرن الثالث كتابا عنوانه (الوصايا) ، ويضم وصايا دينية يغلب عليها الطابع الصوفى وكان بعض كبار الرجال يكتبون وصايا قبل موتهم كما فعل المنصور حين كتب وصيته للمهدى ، وكما فعل أحمد ابن حنبل ، وكما فعل الخليفة المأمون .

وجاءت بعض الرصايا فى عهد يكتبها الخليفة بولاية العهد ويوصى ولى عهده ، أو يكتبها الخليفة لقاض أو أحد أرباب السيوف ، أو يكتبها لأحد الأشراف بتقليد نقابة أو مامثل ذلك ، وكانوا يوصون كل شخصية بما يلائمها .

وجاءت بعض الوصايا فى صورة عهد يكتبه الموصى على نفسه ، أو فى صورة وصية صريحة يوجهها الى نفسه ، وقد تأتى الوصية فى صورة مناظرة يحاول فيها الموصى اثبات وجهة نظره كما فى وصية الامام مالك لليث بن سعد بعدم الاجتهاد برأيه ، وضرورة اتباع فتيا أهل المدينة ، وسلم بشر بن المعتمر ابراهيم بن جبلة وتلاميذه وصية بلاغية مكتوبة كان يحملها ، وكان مدونا فيها آراؤه البلاغية .

وجاءت بعض الوصايا فى أبيات شعرية تحمل رأى الشاعر وفلسفته
فى الحياة ، وجاءت بعض الوصايا فى حكايات أو فى مقامات ، وذلك حين
كتب الجاحظ حكايات البخلاء وضمنها كثيرا من وصايا البخلاء ، ثم كتب
بديع الزمان مقاماته ، وضمنها كثيرا من وصايا المكدين .

المدارس الفنية

نتحدث فى هذا الكتاب عن أدب الوصايا منذ قيام الدولة العباسية الى نهاية القرن الرابع ، ونلاحظ تشابها كبيرا بين الوصايا فى القرنين الثانى والثالث الهجريين نستطيع معه أن ندرج أدب الوصايا فى هذين القرنين تحت أدب مدرسة الطبع .

أما فى القرن الرابع فأننا نلاحظ اختلافا كبيرا بين وصايا هذا القرن ووصايا القرنين السابقين ، وعلى ضوء هذا الاختلاف ، وعلى ضوء السمات الفنية لوصايا القرن الرابع نضع أدب الوصايا فى هذا القرن ضمن أدب مدرسة الصنعة .

وهكذا نستطيع أن نقول : ان أدب الوصايا ساير سائر الفنون الأدبية الأخرى من حيث السمات الفنية ، فمن المعروف أن مدرسة الطبع سادت فى القرنين الثانى والثالث ، وأن مدرسة الصنعة سادت فى القرن الرابع الهجرى .

ونورد هنا ماتحقق من سمات مدرسة الطبع فى وصايا القرنين الثانى والثالث :-

١ - وضوح الأفكار وسلامتها ، والبعد عن فلسفة المعانى وتعقيدها ، حيث ان هدف الموصى توصيل الأفكار الى من يوصيه لاقناعه باتباعها ، وهذا يتطلب وضوح الأفكار وسلامتها ، ولم يكن الموصون يهتمون بترتيب الأفكار وترابطها فى الوصايا التى تشتمل على أفكار متعددة ، ونظرة فى وصايا ابن المقفع ، ووصية طاهر ابن الحسين لاپنه تؤكد ذلك ، ونستثنى من ذلك الوصايا التى تتطلب الترتيب مثل وصية المأمون قبيل موته بغسله وتكفينه ودفنه وما الى ذلك .

٢ - الميل الى الايجاز ، وكان الايجاز مظهرا من مظاهر البلاغة فى القرن الثانى الهجرى وقد أوردنا بعض الوصايا التى توصى بالايجاز ، ونلاحظ أن هذه الوصايا مالت الى الطول بعض الشيء فى القرن الثالث

الهجري ، ولم يكونوا يلجئون الى هذا الاطناب بهدف اظهار الثقافة والمقدرة الفنية ، ولكنهم كانوا يطنبون حين يتطلب الموقف ذلك ، كما رأينا فى وصية المأمون قبيل وفاته ، وكما رأينا فى وصية الموفق لأحد رجاله حين ولاه الصلاة والحرب والأحداث ، وظهرت فى هذا القرن بعض الوصايا المطولة مثل وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله .

٣ - التأثير بالتعاليم الاسلامية وبالتقاليد العربية ، وقد كانت التعاليم الاسلامية مهيمنة على الوصايا السياسية والاجتماعية والدينية ، فالعدل بين الناس وتفقد الأحوال والجهاد فى سبيل الله وما الى ذلك من الأمور السياسية والاجتماعية كلها مستمدة من تعاليم الاسلام ، وتحدثوا عن الكتاب والسنة والاجماع ، ولا تكاد تخلو وصية سياسية أو اجتماعية من التعاليم الدينية المباشرة كالتقوى والاخلاص لله ، كما أن الوصية بتعظيم المشايخ وتقديم الكبير يسائر التقاليد العربية المتوارثة ، وكانوا يستشهدون فى وصاياهم بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، والحكم والأمثال العربية والاقوال المأثورة عن العرب .

٤ - السلامة اللغوية والصحة النحوية وفصاحة الألفاظ وبعدها عن الركاقة اوالبتذال ، وعدم القصد الى التلاعب بالألفاظ أو الاغراب . ونادرا ما نرى القصد الى الاغراب كما رأينا فى بعض وصايا الجاحظ .

٥ - استمداد الصور من الماضى العربى ومن حاضرمهم ، ولم يكونوا يتجهون الى الاغراب فى التصوير أو القصد الى رسم الصور الكلية ، ولم تكن الصور تتزاحم فى وصاياهم لأنهم كانوا يهدفون الى توضيح ما يهدفون اليه والاقنناع به ، وغلب على هذه الصور الخيال الاستحضارى الذى يستحضر الصور المخزونة فى الذهن ويربط بينها وبين المشبهات ، ولم يكونوا يحاولون الاتيان بالمجديد أو تكوين الصور من أجزاء متباعدة .

٦ - الترسل والانطلاق على سجيتهم وعدم تكلف السجع والمحسنات البديعية ، وما يرد من السجع والمحسنات انما يجيء عفواً الخاطر أو لابرار موقف معين ، وردت - على قلة - رسائل التزمت السجع ولكنها نادرة ، والنادر لا حكم له :

وهذه السمات التى أوضحنها تتوافر فى أدب مدرسة الطبع ، وهذا ما يجعلنا نحكم بأن أدب الوصايا فى القرنين الثانى والثالث يندرج تحت مدرسة الطبع .

★ ★ ★

أما فى القرن الرابع فأننا نلاحظ تغيرا وتجديدا فى وصايا هذا القرن ، فقد غلب التألق والتكلف على أدب القرن الرابع بوجه عام ، واتخذ الخلفاء والولاة كتابا بارزين يكتبون لهم ما يريدون إصداره ، وكان هؤلاء الكتاب يكتبون عن الخلفاء أو الولاة موصين بالمتزام الطاعة أو العودة إليها لمن فارقها ، كما كانوا يكتبون العهود للقضاة ولأرباب السيوف ولنقباء الاشراف ومن على شاكلة هؤلاء ، وكانت العهود التى يكتبونها تغص بالوصايا ، ولم يكونوا يهدفون الى مجرد الاقناع بهذه الوصايا ، وإنما كانوا يهدفون أيضا الى اظهار الثقافة والبراعة الفنية والمهارة اللغوية ، ولذلك فإننا نحكم بأن أدب الوصايا فى القرن الرابع يندرج تحت مدرسة الصنعة .

وأهم السمات الفنية التى تتوافر فى وصايا القرن الرابع :

١ - الغوص على المعانى وتوليدها ، وصارت الوصايا معرضا لاطهار البراعة الفنية ، وجمعت الوصايا بين سلامة المعانى وترباطها ، وجمعت بين الاقناع والتأثير العاطفى وتقليب المعنى على مختلف وجوهه ، وتوليد المعانى الدقيقة بحيث تبرز الفكرة فى معارض عديدة .

٢ - التأثر بالثقافة الاسلامية ، وبثقافات عصرهم ، وأحداث الحياة الجارية ، وظلت الوصية بالتقوى غالبية على الوصايا ، وظلت النظرة الاسلامية مهيمنة على الوصايا السياسية والاجتماعية ، كما تأثروا بأحداث عصرهم ، وطرقت الوصايا موضوعات جديدة ، فأبو بكر الخوارزمى يوصى مريضا بالجرب ، والمكدون يوصون باستغلال الناس وجمع المال بشتى الطرق ، ويكتب أبو اسحاق الصابى وصية بالتطفل على لسان أحد المتطفلين .

٣ - مالت الوصايا الى الاطناب وقل الايجاز ، وقد تحتوى الوصية

على أفكار محدودة ، ولكنهم كانوا يقلبون المعنى على كل وجه ويبرزونه فى مواضع شتى وصور مختلفة مما أدى الى غلبة الاطناب ، وجاء هذا الاطناب كاشفا عن براعة ودقة نظر ، وكثرت المترادفات التى تتوارد على معنى واحد .

٤ - ظل الموصون يحافظون على السلامة اللغوية والصحة النحوية ، ورصانة التعبير ، وتجنبوا الركاقة و الابتذال ، وقلت الألفاظ المعجمية .

٥ - اهتموا بالتصوير وحشدوا كثيرا من الصور فى بعض وصاياهم ، وجمعت هذه الصور بين الخيال القديم المطروق والخيال المتأثر بالحياة العصرية ، وظل الخيال الاستحضارى غالبا وان لم تعدم الخيال الابتكارى ، وجمعوا فى صورهم بين المحسوسات والمعنويات ، وتجنبوا التكلف فى هذه الصور والجمع بين أجزاء متباعدة لا يستسيغها الذوق والخيال .

٦ - الاكثار من المحسنات البديعية والتزام السجع فى كثير من وصايا هذا القرن ، وكان هذا مماثلا لما ظهر فى سائر الفنون الأدبية ، وكان هؤلاء الكتاب ذوى مقدرة فنية بحيث لم تفسد هذه السجعات والمحسنات معانيهم ، ولم تثقل على السمع ولم يمجها الذوق ، بل ان هذه السجعات والمحسنات أضفت على الأسلوب فى معظم الأحيان ، موسيقية وجمالا .

خاتمة

تمثل الوصايا لونا أدبيا هاما فى فنون الأدب العربى اذ تكشف عن المبادئ والأهداف التى تعتنقها المجتمعات وتسعى لتحقيقها ، وقد عالجت فى هذا البحث النقاط التالية :

١ - عرضت فى صدر هذا البحث للوصايا فى العصر الجاهلى ، ثم فى العصرين الاسلامى والأموى ، وأعطيت لمحة واضحة عنها ليتضح لنا مدى التطور الذى طرأ على الوصايا فى العصر العباسى .

٢ - تناول هذا البحث أدب الوصايا منذ قيام الدولة العباسية الى نهاية القرن الرابع الهجرى ، وتمتد هذه الفترة مايقرب من ثلاثة قرون ، وقد اتسم كل قرن بسمات معينة وكان القرن الثالث أشد شبها بالقرن الثانى ، ثم حدث تطور كبير من حيث الناحية الفنية والطريقة التى اتخذها الكتّاب لعرض وصاياهم .

٣ - عرضت الموضوعات التى تناولتها الوصايا ، ووضع لنا أن الوصايا السياسية والاجتماعية والدينية كانت تلتزم بمبادئ الاسلام ، وكانت هذه الألوان الثلاثة تمتزج فى هذه الوصايا ، وكانت الوصية بتقوى الله غالبية فى كثير منها .

وفى القرن الرابع الهجرى طغى الجانب السياسى ، وكان كبار الكتّاب يكتبون عن الخلفاء والولاة موصيين بلزوم الطاعة أو بالعودة اليها اذا حدث تمرد على السلطة الشرعية ، وكانوا يكتبون أيضا العهود للقضاة وأرباب السيوف والنقباء ، وكانت الوصايا تتخلل هذه العهود ، وصارت الوصايا الدينية فى كل ما يكتب تقليدية مكررة حتى ان أبا اسحق الصابى يكرر الوصية بالتقوى واتخاذ القرآن اماما .

ووردت بعض الوصايا الصادرة فى ظروف خاصة لا نستطيع أن نعوها بمبادئ يدعو اليها قائلها ، وانما وردت فى معرض أدبى خالص ، وتلك هى وصايا البخلاء التى كتبها الجاحظ فى كتابه (البخلاء) ، وأيضا وصايا

المكدين التى وردت فى مقامات بديع الزمان الهمذانى ، وتدعو الى التحايل واستغلال الناس ، وهذه الوصايا الواردة فى كتابى البخلاء والمقامات لون ادبى يهدف الى التسلية واظهار المقدرة الفنية ، ولا يهدف كاتباهما الى بث هذه المبادئ .

٤ - صورت هذه الوصايا أحوال المجتمع فى السياسة والاجتماع والدين ، وحتى الوصايا الشاذة التى وردت على لسان الجاحظ وبديع الزمان الهمذانى انما تعكس مظهرا من مظاهر الحياة فى ذلك الوقت ، فوصايا البخلاء تعكس الحرص على المال ، وتعكس الصراع السعوى بين الفرس والعرب ، وكان هذا الصراع الشعوى أحد الدوافع التى دفعت الجاحظ الى كتابة هذه الحكايات مبينا بخل الفرس ، كما أن بديع الزمان صور المكدين الذين برزوا فى المجتمع آنذاك ، وصور ألوانا من التحايل التى اتخذها أولئك المكدون للاستحواذ على المال بكل الطرق .

٥ - كانت هذه الوصايا تعرض فى بساطة ووضوح وبعد عن الفلسفة ، وفى القرن الرابع لجأ كبار الكتاب الى اظهار البراعة الفنية ، وأخذوا يقبلون المعنى على وجوهه المختلفة ويعرضونه فى صور عديدة ويوازنون بين الأوضاع التى يدعون اليها والأوضاع المخالفة لها مصورين الفارق الشاسع بين الوضعين .

٦ - كانت الوصايا تميل الى الايجاز ، ثم مالت الى الطول فى القرن الثالث وغلبت الوصايا المطولة فى القرن الرابع ، ومنذ قيام الدولة العباسية ظهر قليل من الوصايا المطولة مثل وصية الامام مالك لهرون الرشيد فى القرن الثانى ، وتتجاوز الثلاثين صفحة ، ومثل وصية الحاسبى أحد زعماء المتصوفة فى القرن الثالث ، وتزيد على وصية الامام مالك فى طولها .

٧ - اهتمت فى هذا البحث بوصايا الفرق التى أخذت وصايا اتجاها معيناً كوصايا الصوفيين والشيعة ، وكلاهما يتجه اتجاها دينيا ، ولكن الصوفيين يدعون الى الزهد والفناء فى الله ، والشيعة يدعون الى طاعة الله وطاعة رؤسائهم ويضفون على رؤسائهم تقديسا غير معهود فى التعاليم الاسلامية .

٨ - كانت هذه الوصايا تعتمد على الاقناع والاستثارة العاطفية ، وكان الاقناع عن طريق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والحكم والأمثال والأقوال المأثورة ، وكان أيضا عن طريق الاقناع العقلى .

٩ - اعتمد هذا البحث أساسا على الوصايا النثرية ، ولكنه لم يغفل الوصايا الشعرية وقد رجعت الى دواوين أشهر الشعراء الذين أولعوا بالوصايا وعلى رأسهم أبو العتاهية والمتنبى ، وكان الأول زاهدا أو مدعيا للزهد فأكثر من الوصايا الدينية ، وكان الثانى صاحب فلسفة وحكمة فدعا الى مبدأ القوة وسوء الظن بالناس والاعتماد على العقل .

١٠ - عرضت للمسمات الفنية لأدب الوصايا من حيث الأفكار والمعانى ، ومن حيث المعاطفة والخيال ، ومن حيث الأساليب ، ومن حيث الترسل أو العناية بتجميل الأسلوب ، وتتبع التطورات التى حدثت فى هذا المجال على مر القرون الثلاثة .

١١ - أعطيت صورة للمنهج الذى اتخذته الوصايا فى المطالع والخواتيم ، وفى مخاطبة من يوصونهم ، وحددت القوالب التى تصب فيها الوصايا كالمنشأفة والخطبة والرسالة وغيرها .

١٢ - لم تكن الوصايا مقصورة على فئة معينة ، فقد كانت تصدر من نماذج عديدة من الناس ، وان كانت تصدر فى الغالب من الرؤساء ومن رجال الدين ، وكانت تصدر من الخلفاء والوزراء ومن على شاكلتهم ، وكانت تصدر من كبار الكتاب الذين يكتبون باسم رؤسائهم ، وكانت تصدر من العلماء والزاهدين والمتصوفين ، وكانت تصدر من المظلومين الى ظالمهم يوصون بالعدل ومخافة الله ، وكانت تصدر من الآباء والأمهات المشفقين على أبنائهم ، وهناك وصايا البخلاء والمكدين ، وهناك وصايا الشعراء أصحاب المذاهب والفلسفات المعينة ، ولم يكن للمرأة نصيب كبير من الوصايا حيث لم تكن المرأة تحتل مكانا بارزا فى المجتمع ، ولم تكن تقوم بالأعمال المهمة .

١٣ - لا نستطيع أن نقول : ان الموصين كانوا يتمتعون بثقافات معينة ، فقد كانت الوصايا تصدر من جميع الطبقات ، والثقافة الوحيدة التى نستطيع

أن نحددها هي الثقافة الدينية ، فقد كانت الوصايا تدور فى فلك التعاليم الإسلامية سواء أكانت نابعة من شعور صادق أو مزيف •

١٤ - بعد دراسة هذه الوصايا دراسة فنية وضح أن أدب الوصايا فى القرنين الثانى والثالث ينتمى الى مدرسة الطبع ، وأنه تطور فى القرن الرابع وطبع بطابع مدرسة الصنعة التى سيطرت على الأدب فى ذلك القرن ، وقد بينت ماتحقق فى أدب الوصايا من سمات هاتين المدرستين •

ولم يهتم المؤرخون والأدباء بدراسة الوصايا دراسة فنية ، وقيل من اهتم بجمع شيء من وصايا العصر الجاهلى والإسلامى والأموى ، وهذا الكتاب جمع مجموعة كبيرة من وصايا العصر العباسى ، وشرح العوامل المؤثرة فى الوصايا والتى وجهتها فى هذه المجالات وشرح ماغض منها ، وضم المتشابه منا ، وقسمها الى وصايا سياسية وأخرى اجتماعية وثالثة دينية ، ونسب كل وصية الى قائلها ، وعين من وجهت اليهم الوصايا ، وإن كانت هناك وصايا عامة غير موجهة الى شخص معين ، ثم إن هذا البحث درس الوصايا دراسة فنية مفصلة من حيث الموضوعات والأفكار والمعانى والعاطفة والخيال والألفاظ والعبارات والمحسنات البديعية ، وعين ملامح الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية والدينية من خلال هذه الوصايا ، ثم عين المدارس الفنية التى ينتمى إليها أدب الوصايا •

وأنصف البحث بعض العلماء الذين غمطوا حقهم ، ففى صحيفة بشر ابن المدتمر يدعو هذا العالم البلاغى الى أن تكون الكلمة ملائمة فى موضعها ، ويدعو الى مراعاة مقتضى الحال ، وينهى عن التوعر والتعقيد وعن اللفظ العامى والسوقى والوحشى ، ثم انه يدعو الى الاهتمام باللفظ والمعنى معا ، ومن قوله فى ذلك : « ومن أراغ معنى كريما قليلتمس له لفظا كريما فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف » (١) •

وهكذا نستطيع أن نقول : إن بشر بن المعتمر سبق عبد القاهر الجرجانى فى القول بأهمية اللفظ والمعنى معا •

وكشف هذا البحث عن أن الجاحظ كان أحد العوامل التي ألهمت بديع الزمان مقاماته ، ومما جاء فى كتاب البخلاء : « أنا لو ذهب مالى لجلست قاصا ، أو طفت فى الآفاق كما كنت مكديا ، وصرت محتالا بالنهار واستعملت صناعة الليل ، أو خرجت قاطع طريق » (٢) فهو يتحدث عن المكدين وحيلهم ، ثم يتحدث عن الصعاليك والزواquil ومردة الأعراب وما الى ذلك ، وكان بديع الزمان ذا مخيلة لاقطة ، ونحسب أن هذه الكتابات كانت من العوامل الملهمة له .

وأمل أن يكون هذا البحث قد حقق الهدف منه ، وأن ينتفع به الدارسون ، وما توفيقى الا بالله .

المراجع

- ١ - أحكام أهل الذمة ج١ محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية . مطبعة جامعة دمشق .
- ٢ - أخبار الحلاج . على بن أنجب السلمي . مطبعة القلم . باريس .
- ٣ - اختيار المنظوم والمنثور ج ١٣ - ابن طيغور . مخطوط .
- ٤ - أدب الدنيا والدين . على بن محمد الماوردي . دار اقرأ بيروت .
- ٥ - الأدب الصغير . عبد الله بن المقفع . مكتبة البيان . بيروت .
- ٦ - الأدب الكبير . عبد الله بن المقفع . مطبعة منيمنة الحديثة . بيروت .
- ٧ - اعلام الموقعين ج ٤ - ابن قيم الجوزية . مكتبة الكليات الأزهرية .
- ٨ - أمالي المرتضى ج ١ - الشريف المرتضى . دار احياء الكتب العربية .
- ٩ - الامامة والسياسة (تاريخ الخلفاء) ج ٢ عبد الله بن مسلم بن قتيبة . مؤسسة الوفاء . بيروت .
- ١٠ - الأوراق ج ١ ، ٢ . محمد بن يحيى الصولى . مطبعة الصاوى .
- ١١ - البداية والنهاية ج ١٠ - الحافظ بن كثير . دار الفكر العربى .
- ١٢ - البيان والتبيين ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - الجاحظ . مطبعة المدنى ط ٥ .
- ١٣ - تاريخ بغداد ج ٩ - أحمد بن على الخطيب البغدادي ، دار الكتب
- ١٤ - تاريخ الطبرى ج ٤ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ - محمد بن جرير الطبرى . دار المعارف بمصر .
- ١٥ - تاريخ الكامل ج ٥ ، ٨ ، ٩ - أبو الحسن على بن الأثير . دار صادر بيروت .
- ١٦ - تحفة الوزراء . عبد الملك الثعالبي . مطبعة العانى بغداد .
- ١٧ - تلبيس ابليس . عبد الرحمن بن الجوزى . مطبعة النهضة بمصر .
- ١٨ - الجامع الصحيح . سنن الترمذى ج ٤ . محمد بن عيسى بن سورة . دار احياء التراث العربى . بيروت .
- ١٩ - حلية الأولياء ج ٩ ، ١٠ - أحمد بن عبد الله الأصبهاني . مطبعة السعادة .

- ٢٠ - خلاصة الذهب المسبوك • عبد الرحمن الاربلى • مكتبة المثنى • بغداد
- ٢١ - رسالة الامام مالك - الامام مالك - المطبعة الأميرية •
- ٢٢ - الرسالة القشيرية • عبد الكريم القشيري • مطبعة محمد على صبيح •
ومطبعة حسان •
- ٢٣ - رسائل البلغاء جمع محمد كرد على • مطبعة الظاهر بالقاهرة •
ومطبعة لجنة التأليف والترجمة •
- ٢٤ - رسائل الجاحظ ج ١ - رسالة الصحابة • مطبعة السنة المحمدية •
- ٢٥ - النروض الأنف ج ٢ عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي • دار الفكر
العربي •
- ٢٦ - زهر الآداب ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - ابراهيم بن علي الحصري • دار
الجيل •
- ٢٧ - سيرة عمر بن عبد العزيز - أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي •
مطبعة المؤيد •
- ٢٨ - سيرة عمر بن عبد العزيز • أبو محمد عبد الله بن الحكم • مطبعة
الاعتماد بمصر •
- ٢٩ - صبح الأعشى ج ٩ ، ١٠ ، ١٤ - أحمد بن علي القلقشندي • المطبعة
الأميرية بالقاهرة •
- ٣٠ - العقد الفريد ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - أحمد بن عبد ربه - لجنة التأليف
والترجمة والنشر •
- ٣١ - عيون الأخبار ج ١ عبد الله بن مسلم بن قتيبة • دار الكتاب العربي
بيروت - ج ٣ عبد الله بن مسلم بن قتيبة • دار الكتب العلمية بيروت •
- ٣٢ - العمدة • ج ١ - الحسن بن رشيق القيرواني • مطبعة السعادة •
- ٣٣ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ٢٢ - أحمد بن علي بن حجر
العسقلاني • مكتبة الكليات الأزهرية •
- ٣٤ - كتاب البخلاء • الجاحظ • المطبعة الخيرية ط ١ •

- ٣٥ - كتاب بغداد ج ٦ - أحمد بن طاهر بن طيغور . مكتب نشر الثقافة الإسلامية .
- ٣٦ - كتاب الخراج . أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم . المطبعة السلفية .
- ٣٧ - كتاب رسائل الخوارزمي - أبو بكر الخوارزمي . مطبعة عبد الرحمن رشدي ط ١ .
- ٣٨ - اللع . السراج الطوسي . دار الكتب الحديثة بمصر .
- ٤٠ - مآثر الانافة في معالم الخلافة . ج ١ - أحمد بن عبد الله القلقشندي .
- ٤١ - المحاسن والمساوي . الجاحظ . مطبعة الفتوح الأدبية ط ١ .
- ٤٢ - مروج الذهب ج ٢ على بن الحسين المسعودي . دار الأندلس . بيروت .
- ٤٣ - المستطرف ج ١ ، ٢ شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي . دار الكتب العلمية .
- ٤٤ - معجم الأدباء ج ٥ ، ٢٠ ياقوت الحموي . مطابع دار المأمون .
- ٤٥ - المعمرين والوصايا - أبو حاتم السجستاني سهل بن محمد . دار احياء الكتب العربية .
- ٤٦ - المغرب في حلى المغرب ج ٤ عبد الملك بن سعيد وآخرون . مطبعة بريل .
- ٤٧ - مقامات بديع الزمان الهمذاني . بديع الزمان الهمذاني . المطبعة المحمودية بمصر ط ٢ .
- ٤٨ - النحو الوافي ج ٣ . عباس حسن . دار المعارف بمصر .
- ٤٩ - نشوار المحاضرة ج ٢ - أبو علي المحسن التنوخي . دار صادر بيروت .
- ٥٠ - نهاية الأدب ج ٥ ، ٦ - أحمد بن عبد الوهاب النويري . مطبعة دار الكتب .
- ٥١ - الوصايا - الحارث بن أسد المحاسب . مطبعة محمد علي صبيح .
- ٥٢ - الوصايا الخالدة - جمع عبد البديع صقر - دار غريب للطباعة .
- ٥٣ - وصايا ملوك العرب في الجاهلية يحيى بن الوشاء . مطبعة بغداد .
- ٥٤ - وفيات الأعيان ج ٤ - أحمد بن محمد بن خلكان . دار صادر بيروت .
- ٥٥ - يتيمة الدهر ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - الثعالبي . دار الكتب العلمية - بيروت والمطبعة الحفنية .

الفهرس

الصفحة

٥	مقدمة
	تمهيد - الوصايا قبل العصر العباسي
٩	(أ) في العصر الجاهلي
١٤	(ب) في صدر الاسلام
٢٠	(ج) في عهد بني أمية
٢٩	الباب الأول - اتجاهات الوصايا في العصر العباسي
	الفصل الأول - الوصايا السياسية
٣٢	في فترة الاعداد للخلافة العباسية
	وصية محمد بن علي العباس لرجال الدعوة - وصية ابراهيم بن محمد
	لأبي مسلم الخراساني - وصية ابراهيم بن محمد لأخيه أبي العباس
٣٥	في صدر الدولة العباسية
	وصية أبي مسلم لقواده - وصية عبد الله بن معاوية لأبي مسلم - وصية
	السفاح لهارون الرشيد
٣٧	في عهد الخليفة المنصور
	وصية المنصور للمهدي بالخلافة - وصية المنصور للمهدي بالتقوى
	وحسن التصرف - وصية المنصور لحاجبه الخصيب - وصية المنصور
	لرجل ذكره بالله
٤٣	في عهد الخليفة المهدي
	وصية المهدي للهادي - وصية المهدي للرشيد - وصية المهدي للربيع
	ابن أبي الجهم

الصفحة

- ٤٦ فى عهد الرشيد
عهد الرشيد للأمين بالخلافة - عهد الرشيد للمأمون بالخلافة - وصية
الرشيد لهرثمة - وصية يحيى البرمكى بشأن معاملة الملوك - وصية
الفضل بن الربيع بشأن معاملة الملوك - وصية عبد الملك بن صالح
لأمير سرية
- ٥٠ فى عهد الأمين والمأمون
وصية الأمين لأحمد بن مزيد - وصية الأمين لعلى بن ماهان - وصية
زبيدة لعلى بن ماهان - وصية المأمون لعلى الرضا بولاية العهد -
وصية المأمون لأخيه المعتصم - وصية المأمون فى مرضه الأخير - وصية
أحمد بن يوسف - وصية طاهر بن الحسين لابنه
- ٥٨ بعد الخليفة المأمون الى منتصف القرن الثالث
وصية المتوكل لأبنائه الثلاثة بولاية العهد
- ٦١ فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى
وصية الموفق لأحد رجاله - وصية عبد الله بن طاهر باستخلاف أخيه -
وصية ابن الفرات للعباس بن الحسن - وصية أبى على البصير الى
عبيد الله بن خاقان
- ٦٤ فى القرن الرابع الهجرى
وصية أبى الهيثم لابنه ناصر الدولة - وصية أبى على الصغانى بشأن
التعامل مع الملوك - وصية ابن العميد لأبى عبد الله الطبرى - وصية
الخليفة القائم للاخشيد - وصية عبد العزيز بن يوسف لعضد الدولة -
وصية ابن العميد لابن بلكا - وصية أبى بكر الخوارزمى لوزير
خوارزمشاه - وصية الخوارزمى لأبى اسحاق الحاجب - وصية
الصاحب بن عباد لفخر الدولة
- ٧١ الفصل الثانى - الرصايا الاجتماعية

الصفحة

- ٧٣ فى صدر الدولة العباسية
وصية عبد الله معاوية لابنه - وصايا ابن المقفع لمن خدم السلطان -
وصية ابن المقفع بطلب العلم وتعليمه - الوصايا الواردة فى كتابي
(الأدب الصغير والأدب الكبير) - وصية ابن المقفع للمنصور بشأن
القضاء - وصية أبى حنيفة لإبراهيم بن أدهم - وصية المنصور لابنه
المهدى - وصية شبيب بن شيبه للمنصور بشأن أهل الذمة - وصية
بشر بن المعتمر فى البلاغة
- ٨١ فى عهد الخليفة المهدى
وصية المهدى للمهادى بشأن الزنادقة - وصية ابن خريم للمهدى - وصية
المهدى للفضل بن الربيع - وصية أبى عبيد بالسكوت
- ٨٣ فى عهد الرشيد
وصية الرشيد للأحمر النحوى - وصية يحيى البرمكى لابنه بالتعلم -
وصية جعفر بن يحيى بالايجاز - وصية محمد بن الليث لجعفر بن يحيى
- وصية يحيى لابنه الفضل بأداء الواجب - وصية عبد الملك بن صالح
لابنه - وصايا تتعلق بمعاملة الملوك - وصايا بأشخاص
- ٨٨ فى عهد المأمون
وصايا المأمون لأولاده - وصية الحسن بن سهل للمأمون - وصية
أبى داؤد بالالتزام بأداب المناظرة - وصية طاهر بن الحسين لابنه -
وصية بالعشق - وصية بشخص
- ٩٢ بعد عصر المأمون الى منتصف القرن الثالث
وصية أبى تمام للبحتري - وصية بلاغية للجاحظ - وصايا اخوانية
للجاحظ - وصية للجاحظ فى الآداب العامة - وصية يوحنا بن ماسويه
- وصايا بأشخاص - وصايا بالبخل
- ٩٨ فى النصف الثانى من القرن الثالث
وصية الموفق لأحد رجاله - وصية أحمد بن المدبر فى البلاغة - وصية
ابن المعتز فى آداب المجالس - وصية بشخص

الصفحة

- ١٠١ فى القرن الرابع الهجرى
وصية أبى الحسن الماوردى بمراعاة الله - وصية أبى اسحاق الصابى
لأحد أرباب السيوف - وصية أحمد بن مسكويه لنفسه - وصية أحمد
ابن سهل البلخى بالشورى - وصية المتنبى لعللى التنوخى - وصية
الخوارزمى لمريض بالجرب - وصية الهمذانى لوارث مال - وصية
الصاحب بن عباد بالقاضى الجرجانى - وصايا المقامات - وصايا
المقطلين
- ١١٣ الفصل الثالث - الوصايا الدينية
- ١١٥ فى صدر الدولة العباسية
وصية عبد الله بن معاوية لأبى مسلم الخراسانى - وصية امرأة لابنها
- وصية عبد الله بن معاوية لصديق له
- ١١٧ فى عهد المنصور
وصايا عمرو بن عبيد للمنصور - وصية الأوزاعى للمنصور - وصية
رجل للمنصور - وصية عبيد الله العمرى للمنصور - وصية الأوزاعى
لأخ له - وصية أبى حنيفة لابراهيم بن أدهم ، ووصية ابن أدهم لأبى
حنيفة - وصايا ابراهيم بن أدهم
- ١٢٢ فى عهد الخليفة المهدى
وصية المهدى بتقوى الله - وصية المهدى لواليه - وصية شبيب بن شبيبة
للمهدى - وصية صاح بن عبد الجليل للمهدى - وصايا الزاهدين -
وصية مالك للشافعى
- ١٢٦ فى عهد الرشيد
وصايا ابن السماك للرشيد - وصية أبى العتاهية للرشيد - وصية
الشافعى لأخ له فى الله - وصية مالك لليت بن سعد - وصية القاضى
ابن شريك لنفسه

الصفحة

١٣٢	فى عهد المأمون
	وصية المأمون لابنه العباس - وصية طاهر بن الحسين لابنه - وصية على الرضا بعدم الركون الى الدنيا - وصية أحمد بن حنبل لأهله - وصايا بشأن خلق القرآن - وصية ابن المبارك بترك آراء عمرو بن عبيد
١٣٥	بعد المأمون الى منتصف القرن الثالث
	وصية المعتصم لابنه الواثق - وصية عالم للمتوكل - وصية المتوكل لأبنائه الثلاثة - وصايا الجاحظ بالأناة وعدم الغضب - وصية الحارث المحاسبي
١٣٩	فى النصف الثانى من القرن الثالث
	وصية الموفق لأحد رجاله
١٤١	فى القرن الرابع الهجرى
	وصية الماوردى لأحد الوزراء - وصية الطائع لله لأبى الحسن العلوى - وصية الحاكم بأمر الله لأحد القضاة - وصايا الشيعة - وصايا الصوفيين
١٥٥	الباب الثانى : الخصائص الفنية لأدب الوصايا
١٥٧	الموضوعات والعوامل المؤثرة
١٦٦	الأفكار والمعانى
١٨٣	العاطفة
١٨٨	الأسلوب (أ) الألفاظ والعبارات
٢٠٦	(ب) التصوير
٢١٩	السجع والمحسنات البديعية
٢٢٦	المطالع والخواتيم

الصفحة

٢٣٠	• • • • •	شخصيات الوصايا
٢٣٢	• • • • •	القوالب التي تصب فيها الوصايا
٢٣٤	• • • • •	المدارس الفنية
٢٣٨	• • • • •	خاتمة
٢٤٣	• • • • •	المراجع